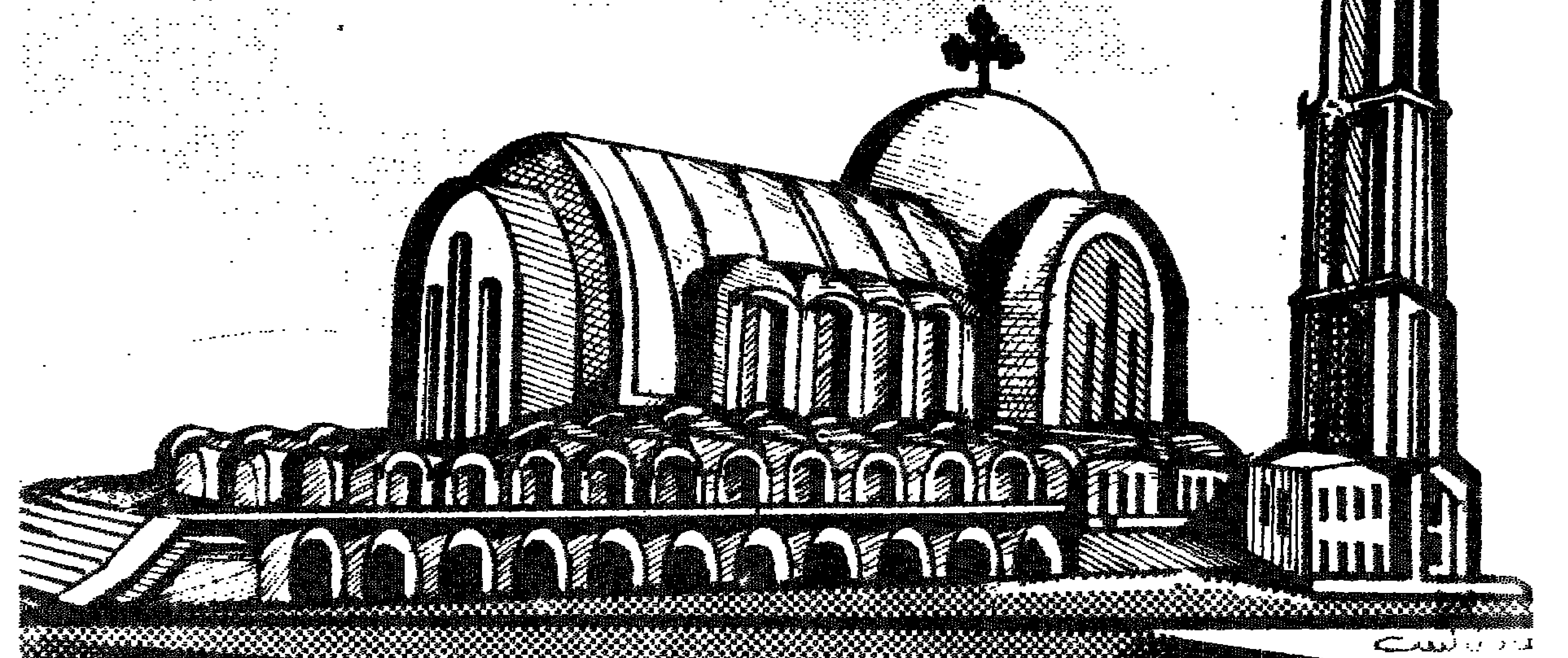
البابا شنوده الثالث

سلسلة (الإيمان والرجاء والمحبة)





اهداءات ٢٠٠٢

بطريركية الأقباط الأرثوذكس

الاسكندرية

البابا شنوده الثالث

سلسلة (الإيمان والرجاء والمحبة)



Love

The Summit of Virtues

By H.H. Pope Shenouda III

2nd Print — الطبعة الثانية

July 1994 — يوليو ١٩٩٤

Cairo — القاهرة

الكتاب : المحبـــــة.

المؤلف : قداسة البابا شنوده الثالث.

الناشر : الكلية الإكليريكية بالأنبا رويس.

المطبعة : الأنبا رويس الأوفست – العباسية – القاهرة.

الطبعة : الثانية يوليو ١٩٩٤

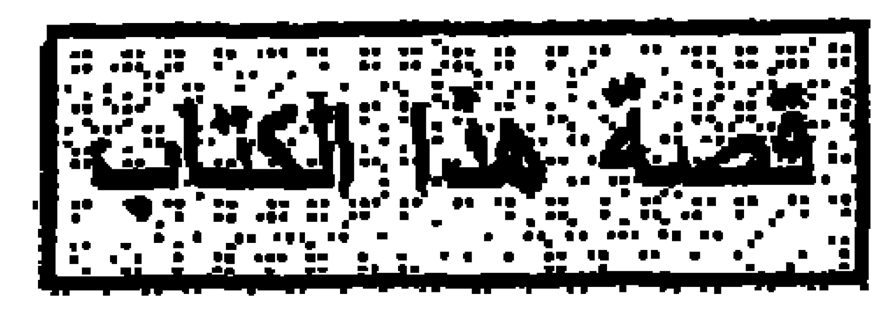
رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٣/٣٩٥٩.

I.S.B.N. 5345-06-5



قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية (١١٧)



قصة هذا الكتاب

اخترنا لك موضوعات هذا الكتاب من بين عشرات الموضوعات المتفرقة التى ألقيناها عن المحبة من الستينات حتى التسعينات على مدى ثلاثين عاماً ، سواء فى القاعة المرقسية بدير الأنبا رويس بالقاهرة ، أو فى الكاتدرائية المرقسية الكبرى ، أو خلال أسابيع نهضة ببعض إيبارشيات الوجه البحرى ، ثم أخيراً نشرنا عن هذا الموضوع أكثر من ثلاثين مقالاً بجريدة وطنى ...

وقد أصدرنا لك هذا الكتاب عن (المحبة) بعد كتابين صدرا من قبل : أحدهما عن (الإيمان) والآخر عن (الرجاء) ، لنكمل مجموعة (الإيمان والرجاء والمحبة) التى اهتم بها القديس بولس الرسول فى (اكو ١٣: ١٣) .

ولأن موضوع المحبة موضوع طويل جداً ، فقد قسمناه إلى عدة أبواب هى :

١ – كلمة عامة عن المحبة وأهميتها .

٢ – محبة الله لنا وللخليقة كلها .

٣ – محبتنا نحن لله .

٤ – محبتنا للناس .

٥ – شروط المحبة حسبما وردت فى (اكو ١٣) .

٦ – فتور المحبة " عندى عليك أنك تركت محبتك الأولى " (رؤ٢: ٤) .

وكل نقطة من هذه النقاط دخلت فى تفرعات وعناصر متعددة .

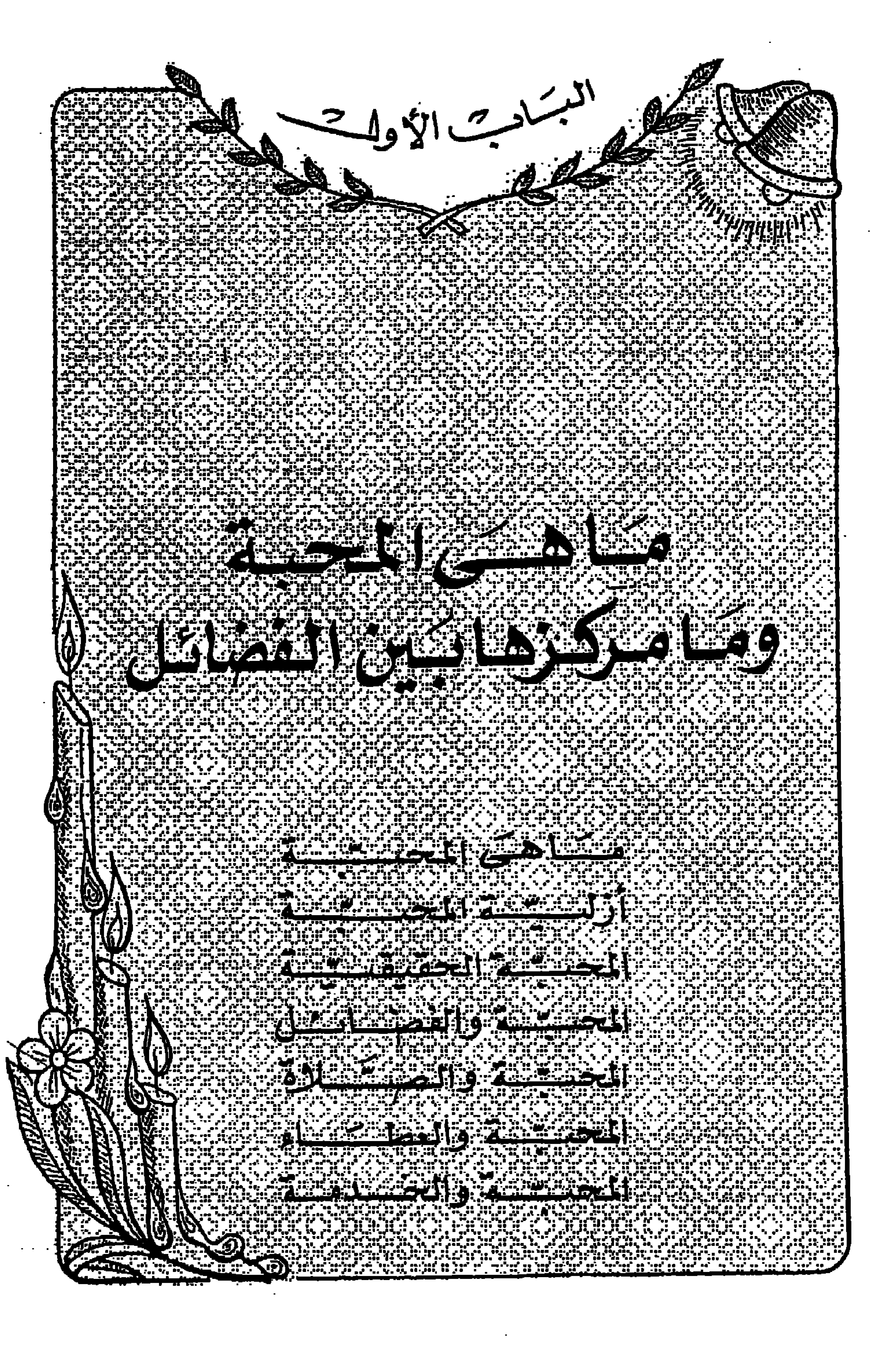
ختاماً أرجو من الرب أن تسود المحبة فى قلوب الجميع ، حسب وصية السيد المسيح ، وحسب تعليمه بأن المحبة هى الوصية العظمى فى الناموس ، وبها يتعلق الناموس كله والانبياء (مت ٢٢: ٣٥– ٤٠) .

وقد يكون هذا الكتاب عن المحبة مقدمة لكتاب آخرعن ثمار الروح التى تبدأ بالمحبة كما فى (غل ٥: ٢٢، ٢٣) . وقد يعقبه كتاب آخر عن (مخافة الله) حتى لا نستغل المحبة استغلالاً خاطئاً ..

فليرشدنا الرب جميعاً إلى سبله ، بشفاعة جميع القديسين آمين .

البابا شنوده الثالث

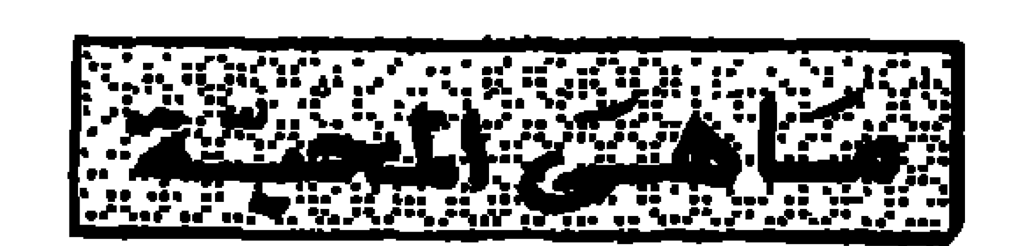
فهرست إجمالى



الباب الأول

ما هى المحبة وما مركزها بين الفضائل

- ما هى المحبة
- أزلية المحبة
- المحبة الحقيقية
- المحبة والفضائل
- المحبة والصلاة
- المحبة والعطاء
- المحبة والخدمة



ما هي المحبة

المحبة هي قمة الفضائل كلها. هي الفضيلة الأولى.

عندما سئل السيد المسيح ما هي الفضيلة العظمى في الناموس، قال هي المحبة: «تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل فكرك، ومن كل قوتك» (تث٦: ٥).

والثانية مثلها « تحب قريبك كنفسك » . ثم ختم بقوله « بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء» (مت٢٢: ٣٥- ٤٠). أي أن كل الوصايا تتجمع في المحبة.

* * *

إذن المحبة هي جماع الفضائل كلها.

وقد قال القديس بولس الرسول في هذا « وأما غاية الوصية فهي المحبة، من قلب طاهر، وضمير صالح...» (١تي ١: ٥). ولذلك صدق القديس أوغسطينوس حينما قال «تحب. ثم تفعل بعد ذلك ما تشاء»...

* * *

وقد جعلها الرسول أعظم من الإيمان والرجاء والنبوة.

فقال « أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة، ولكن أعظمهن المحبة» (١كو١٣: ١٣). وفي شرح ذلك قال «إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة، ولكن ليس لي محبة، فقد صرت نحاساً يطن أو صنجاً يرن. وإن كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم. وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال، ولكن ليس لي محبة، فلست شيئاً..» (١كو١٣: ١- ٣)... إذن ما أعجب هذه المحبة التي هي أعظم من الإيمان الذي ينقل الجبال...

* * *

والمحبة هي أولى ثمار الروح .

وبالتالى هى دليل عمل الروح فينا . قال الرسول « وأما ثمر الروح ، فهو محبة فرح سلام طول أناة ... » (غل ٥ : ٢٢) . وهكذا وضع المحبة أولاً . ولاشك أن الذى يمتلىء قلبه بالمحبة ، لابد سيمتلىء بالفرح ، وإذا عاش فى حب وفرح ، سيحيا بالتالى فى سلام ...

* * *

والمحبة هي آخر وصية أعطاها الرب لتلاميذه .

قال لهم « وصية جديدة أنا أعطيكم ، أن تحبوا بعضكم بعضاً . كما أحببتكم أنا ، تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً » (يو١٣ : ٣٤) . وكيف أحبهم هو؟ يقول الكتاب « إذ كان قد أحب خاصته الذين فى العالم ، أحبهم حتى المنتهى » (يو١٣ : ١) . وأيضاً أحبهم ، فبذل ذاته عنهم . هذه هى المحبة التى طلبها الرب ...

* * *

والمحبة المطلوبة منا ، هي صدى لمحبة الله لنا ...

وعن هذا يقول الرسول « فى هذا هى المحبة . ليس أننا نحن أحببنا الله ، بل أنه هو أحبنا ، وأرسل ابنه كفارة لخطايانا » (١يو٤ : ١٠) ... حقاً إن الله قد أحبنا قبل أن نوجد ، ومن أجل ذلك أوجدنا . فوجودنا هو ثمرة محبة الله لنا ... حينما كنا فى عقله فكرة ، وفى قلبه مسرة ...

* * *

مادام الله محبة ، ونحن صورة الله ومثاله (تك ١ : ٢٦ : ٢٧) ، إذن لابد أن نكون محبين مثله .

وإلا ، فى حالة عدم وجود المحبة فينا ، لا نكون على صورة الله . بل نكون قد فقدنا الصورة الإلهية التى خلقنا بها ... كذلك نحن أولاد الله . والابن لابد أن يشبه أباه . وإن شابهناه كأبناء الله ، لابد أن المحبة ستملأ قلوبنا ، وتفيض من وجوهنا ، ومن أعيننا ، ومن ملامحنا ، وتظهر فى تصرفاتنا وفى كل أعمالنا . ويقول الناس عنا : حقاً هؤلاء هم أولاد الله ، هم على مثاله فى الحب « بهذا أولاد الله ظاهرون » (١يو٣ : ١٠) .

والسيد المسيح جعل المحبة العلامة التى تميز تلاميذه .

فقال « بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذى ، إن كان فيكم حب ، بعضكم نحو بعض» (يو١٣ : ٣٥) . والقديس يوحنا الرسول جعل المحبة العلامة للميلاد من الله . فقال : « كل من يحب فقد ولد من الله و يعرف الله . ومن لا يحب ، لم يعرف الله ، لأن الله محبة» (١يو١٤ : ٧، ٨) .

* * *

هناك أنواع من المحبة : نحب الله ، ونحب الناس ونحب الخير .

إن الدين هو رحلة حب نحو قلب الله ، تعبر فى طريقها على قلوب الناس . والمحبة هى الرباط المقدس الذى يربط الناس بالله . إنها جوهر الدين والتدين .

ونحن لا نستطيع أن نصل إلى محبة الله ، دون أن نحب الناس . وهكذا قال الكتاب «الذى لا يحب أخاه الذى يبصره ، فكيف يحب الله الذى لا يبصره» (١يو٤ : ٢٠) .

ومحبتنا للناس تلد فى القلب العديد من الفضائل : تلد الثقة والتعاون ، والعطاء والبذل ، والصداقة والتضحية ، والسلام مع الغير.

* * *

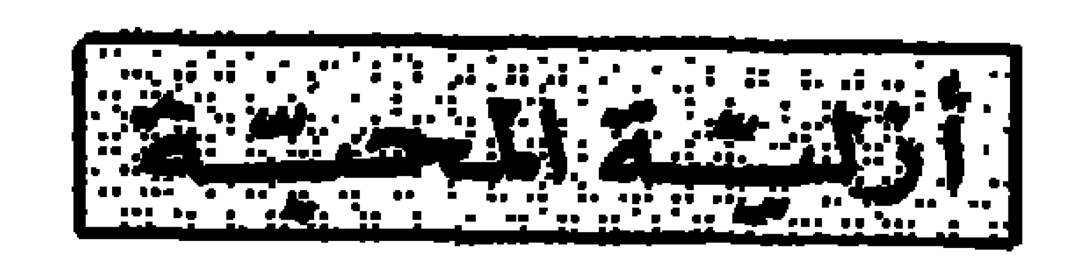
المحبة هي خروج من الذات إلى الغير .

بحيث تنسى ذاتك وتذكر غيرك . تخرج من (الأنا) ، فلا تسمح لها أن تحصرك داخلها . فلا تعيش داخل الأنا ، إنما داخل قلوب الناس ، تحيا لأجل الغير، وترى خيره بعضاً من خيرك . بل ترى خيره قبل خيرك . وهكذا تحب الغير، وتحب له الخير.

* * *

والحب شيء غير الشهوة تماماً ...

الحب دائماً يريد أن يعطى . والشهوة تريد دائماً أن تأخذ . الشهوة ممتزجة دائماً بالأنا ، بالذات . أما الحب فيمتزج بانكار الذات لأجل الغير. والحب الحقيقى لابد أن يمتزج بالطهارة والنقاوة ، كما يمتزج أيضاً بالحق . فإن خرجت المحبة عن الحق أو عن الطهارة ، تكون محبة ضارة. والمحبة الضارة لها معنا موضوع خاص ليس مجاله الآن .



المحبة الكلية ، هى الله نفسه .

الله هو الحب الكلى . الحب الذى لا يحد ، الذى كله قداسة . لذلك من ليس فيه حب، ليس الله فيه . ولذلك فإن أولاد الله مشهورون بالمحبة ، لأن الله يسكن فيهم . وفى شرح كل ذلك، قال القديس يوحنا الرسول « الله محبة . ومن يثبت فى المحبة، يثبت فى الله، والله فيه » (١يو٤ : ١٦) .

* * *

المحبة موجودة منذ الأزل ، واستمرت قبل الخطية .

أزلية المحبة واضحة لأن الله محبة ، والله أزلى . ومن محبة الله لم يشأ أن يكون وحده ، لذا من جوده وكرمه أوجد مخلوقات تحيا معه. فخلق الملائكة قبلنا . وكانت المحبة تربط الملائكة بعضهم ببعض . وكما قال أحد الآباء « لو وقف عشرة آلاف من الملائكة معاً ، لكان لهم جميعاً رأى واحد » ... وكما كان الملائكة يحبون بعضهم بعضاً ، هكذا كانوا يحبون الله أيضاً (وقبل خطيئة ابليس) . ولذلك يقول داود النبى فى المزمور « باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين قوة ، الفاعلين أمره عند سماع صوت كلامه » (مز١٠٣ : ٢٠) .

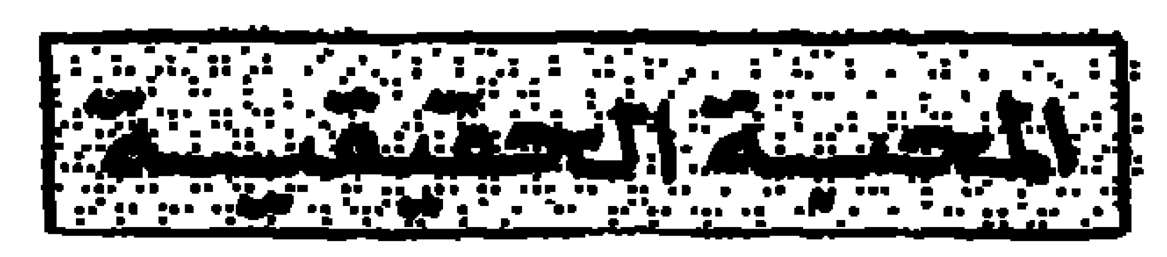
* * *

وهكذا كانت المحبة هى الأصل فى علاقات الإنسان الأول :

كانت المحبة كاملة بين الله والإنسان قبل الخطية . وكانت المحبة بين آدم وحواء ، طاهرة نقية ، فيها التعاون والثقة . بل كانت المحبة كائنة بين آدم والحيوانات . لا هو يصيدها ، ولا هى تؤذيه .. وفى ظل المحبة ، لم يكن يوجد الطبع الوحشى والإفتراس فى صفات بعض الحيوانات ، بل كان الكل أليفاً ... وكان آدم يحب الحيوانات ، و يسميها بأسماء...

ونفس الوضع تكرر فى قصة ابينا نوح والفلك . حيث كان فى الفلك يرعى جميع الحيوانات ، وهو الذى أدخلها إليه ، وكان يرعاها فيه .

إذن المحبة هى الأصل ، والبغضة دخيلة .



المحبة الحقيقية

والمحبة الحقيقية لها قوتها ، ولا تنهار .

يقول الكتاب « المحبة قوية كالموت ... مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفىء المحبة، والسيول لا تغمرها . إن أعطى الإنسان كل ثروة بيته بدل المحبة، تحتقر احتقاراً» (نش٨: ٦، ٧) . ويقول الرسول «المحبة لا تسقط أبداً» (١كو١٣: ٨) . لهذا فكل فضيلة تؤسس على المحبة، تكون راسخة . وكل علاقة تبنى على المحبة تبقى قوية ولا تتزعزع .

* * *

ولهذا قال الرب : يا ابنى اعطنى قلبك (أم ٢٣ : ٢٦) .

إن الله يريد القلب ، يريد الحب ، وليس مجرد الشكليات والمظاهر الخارجية . فالعبادة الخالية من الحب ، قد رفضها الله . وقال « هذا الشعب يكرمنى بشفتيه ، أما قلبه فمبتعد عنى بعيداً» (أش٢٩ : ١٣) ، (مت ١٥ : ٨) . وقال للشعب الذى يصلى ويقدم ذبائح، بينما لا يحب الله ولا القريب «لا تعودوا تأتون إلىّ بتقدمة باطلة . رؤوس شهوركم وأعيادكم أبغضتها نفسى ، صارت علىّ ثقلاً ، مللت حملها . فحين تبسطون أيديكم ، استر وجهى عنكم . وإن أكثرتم الصلاة، لا أسمع . أيديكم ملآنة دماً» (أش١ : ١٣- ١٥) .

* * *

المحبة الحقيقية ينبغى أن تكون محبة عملية .

وفى هذا قال القديس يوحنا الرسول «لا نحب بالكلام ولا باللسان ، بل بالعمل والحق» (١يو٣: ١٨) . وقد ذكر لنا الرب مثل السامرى الصالح ، وكيف كانت محبته عملية ، فيها الاهتمام والعناية والانفاق (لو١٠) . والله نفسه ـ تبارك اسمه ـ محبته لنا عملية ، فيها الرعاية الكاملة . خلق كل شىء أولاً من أجلنا ، ثم خلقنا بعد ذلك لنتمتع بأعمال عنايته . ولا يزال يرعانا . وفى عمل الفداء نقرأ عبارة « هكذا أحب الله العالم ، حتى بذل ...» (يو٣: ١٦) . وأيضاً «ولكن الله بيَّن محبته لنا ، لأنه ونحن بعد خطاة ، مات المسيح لأجلنا» (رو٥: ٨) .

إذن فالمحبة التى لا تعبر عن ذاتها عملياً ، ليست هى محبة حقيقية .

* * *

ومحبتنا لله ، يجب أن نثبتها عملياً بحفظ وصاياه .

فالله لا يقول فقط « يا ابنى اعطنى قلبك » ، إنما يقول بعدها مباشرة « ولتلاحظ عيناك طرقى » (أم٢٣ : ٢٦) . والسيد المسيح يقول « أنتم أحبائى ، إن فعلتم ما أوصيتكم به » (يو١٥ : ١٤) « إن حفظتم وصاياى ، تثبتون فى محبتى . كما أنى أنا قد حفظت وصايا أبى ، وأثبت فى محبته » (يو١٥ : ١٠) « والذى عنده وصاياى ويحفظها ، فهو الذى يحبنى » (يو١٤ : ٢١) .

فلا تقل إنى أحب الله ، بينما أنت تكسر وصاياه !

هوذا القديس يوحنا الرسول يقول « من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه ، فهو كاذب وليس الحق فيه . وأما من حفظ كلمته ، فحقاً فى هذا قد تكملت محبة الله » (١يو٢ : ٤ ، ٥) « كل من يثبت فيه لا يخطىء . كل من يخطىء ، لم يبصره ولا عرفه » (١يو٣ : ٦) . « فإن هذه هى محبة الله ، أن نحفظ وصاياه . ووصاياه ليست ثقيلة » (١يو٥ : ٣) .

* * *

والمحبة لها صفات تميزها ، شرحها الرسول :

فقال : « المحبة تتأنى ، وتترفق ، المحبة لاتحسد . المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ . ولا تقبح ، ولا تطلب ما لنفسها . ولا تحتد ، ولا تظن السوء . ولا تفرح بالإثم ، بل تفرح بالحق . وتحتمل كل شىء ، وتصدق كل شىء ، وترجو كل شىء ، وتصبر على كل شىء . المحبة لا تسقط أبداً » (١كو١٣ : ٤ - ٨) .

ألست ترى معى أنها منهج طويل شامل ، إن تناولناه بالتفصيل نقطة نقطة ...

* * *

المحبة لابد أن تشمل محبة الخير .

ففعل الخير وحده لا يكفى ، وربما لا يكون فضيلة . فهناك من يفعل الخير مجبراً مضطراً أو عن خوف ... وهناك من يفعل الخير لمجد أن ينال عنه مديحاً من الناس أو مكافأة ... ومن يفعل الخير رياء لمجرد حب المظاهر . وغيره قد يفعل الخير وهو متذمر فى

قلبه. فظاهر شيء. وقلبه شيء عكس ذلك تماماً.

أما الإنسان الفاضل فهو الذى يحب الخير، حتى إن لم تساعده إمكاناته على فعله. وإن فعل الخير لا يقصد من وراءه مكافأة. بل يجد لذة فى فعل الخير، و يعمل ذلك عن حب... الدافع الأساسى الذى يدفعه هو محبة الخير.

* * *

إن نقصت هذه المحبة، تنتج رذائل كثيرة:

نقص المحبة يوجد البغضة والكراهية. وقد تتسبب عن ذلك أيضاً الشماتة والفرح بالإثم. وقد قال الكتاب «لا تفرح بسقوط عدوك، ولا يبتهج قلبك إذا عثر» (أم ٢٤: ١٧).

ومن نتائج نقص المحبة أيضاً: الغضب والحقد. وقد يتطور الأمر إلى الشتيمة والضرب والقتل، والادانة والتشهير واشاعة المذمة. ومن نقص المحبة أيضاً الحسد والكبرياء والتعالى، وعدم الاحتمال، والقسوة...

أما نقص المحبة من جهة الله، فيظهر فى أمور عديدة منها إهمال الصلاة والكتاب والكنيسة، وعدم الشعور بالوجود فى حضرة الله، وعدم الفرح بالسماء...

كذلك محبة العالم، دليل على نقص المحبة نحو الله.

يقول القديس يعقوب الرسول «محبة العالم عداوة لله» (يع ٤: ٤). و يقول القديس يوحنا الرسول «لا تحبوا العالم، ولا الأشياء التى فى العالم. إن أحب أحد العالم، فليست فيه محبة الآب. لأن كل ما فى العالم شهوة الجسد، وشهوة العين، وتعظم المعيشة» (١يو٢: ١٥، ١٦).

وتدخل فى محبة العالم أيضاً: محبة المال، ومحبة المجد الباطل، ومحبة المادة، ومحبة الذات. وكل هذه ضد محبة الله وضد محبة الخير.

المحبة والفضائل

إن المحبة لابد أن تتخلل كل فضيلة.

وكل فضيلة خالية من المحبة، ليست فضيلة حقيقية.

عطاؤك للفقير إن لم تكن فيه محبة ، فهو ليس شيئاً . وخدمتك إن كانت خالية من الحب ، لا تكون خدمة مقبولة . كذلك صلاتك يجب أن تمتزج بالحب ، كما قال داود «باسمك ارفع يدى ، فتشبع نفسى كما من شحم ودسم» (مز٦٣: ٤) «محبوب هو اسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتى» (مز١١٩) .

كذلك كل أنواع العبادة ينبغى أن تكون ممتزجة بالحب . فيقول المرتل عن الذهاب إلى الكنيسة «فرحت بالقائلين لى : إلى بيت الرب نذهب» (مز١٢٢: ١) . «مساكنك محبوبة أيها الرب إله القوات ، تشتاق وتذوب نفسى للدخول إلى بيت الرب» (مز٨٤: ١) . ويقول عن كتاب الله «فرحت بكلامك كمن وجد غنائم كثيرة» «كالعسل والشهد فى فمى» (مز١١٩) ... وهكذا فى باقى الأمور.

* * *

إن الله فى يوم الحساب ، سيفحص جميع فضائلنا ويكافئنا فقط على ما فيها من حب ...

أما الفضائل الخالية من الحب ، فليست محسوبة لنا . وأخشى أن تكون محسوبة علينا ... ولهذا قال الرسول «لتصر كل أموركم فى محبة» (١كو١٦: ١٤) . وقال إن المحبة هى رباط الكمال (كو٣: ١٤) . حتى الإيمان ، قال عنه الرسول «الإيمان العامل بالمحبة» (غل ٥: ٦) ... الاستشهاد أيضاً ، قدم الشهداء نفوسهم فيه ، من أجل عظم محبتهم للرب ، الذى أحبوه أكثر من الحياة ، ومن الأهل ، ومن العالم كله . وأحبوا أن ينحلوا من رباطات الجسد ، ليلتقوا بالله الذى أحبوه ...

* * *

المحبة التى تدخل فى كل وصية ، حسب قول الكتاب «لتصر كل أموركم فى محبة» (١كو١٦: ١٤) .

والمحبة التى هى هدف كل وصية ، كما قال أيضاً «وأما غاية الوصية فهى المحبة» (١تى١: ٥) .

والمحبة التى هى أعظم من كل وصية ، كما ذكر الرب أنها الوصية العظمى فى الناموس (مت ٢٢: ٣٦-٤٠) . وكما قال بولس الرسول «وأما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة . هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة» (١كو١٣: ١٣) . ولم يقل

فقط إنها أعظم من الايمان العادى، بل أعظم من كل الايمان الذى ينقل الجبال (١كو١٣: ٢).

نعم، المحبة هى الوصية التى بها يتعلق كل الناموس والأنبياء (مت٢٢: ٤٠). أى أنه لو أراد الله أن يلخص لنا كل الوصايا فى وصية واحدة، لكانت هذه الوصية الواحدة هى المحبة...

* * *

هذه هى المحبة التى هى أفضل من جميع المواهب والمعجزات. لأنه بعد سرد الرسول قائمة بجميع المواهب، قال بعد ذلك «وأيضاً أريكم طريقاً أفضل» (١كو١٢: ٣). وإذا بهذا الطريق الأفضل هو المحبة...

كثيرون سيقولون للرب فى اليوم الأخير «يارب يارب، أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة» فيجيبهم «إنى لم أعرفكم قط». ذلك لأن المعجزات ليست هى التى تخلص، وإنما المحبة...

* * *

بل كل فضيلة خالية من المحبة، هى فضيلة ميتة لا روح فيها. بل لا تعد فضيلة من غير المحبة.

المحبة التى هى أفضل من كل علم ومعرفة. لأن الرسول يقول «العلم ينفخ، ولكن المحبة تبنى» (١كو٨: ١).

مادامت الفضائل كثيرة جداً، وإن جمعناها كلها أمام المؤمن، سيجد أمامه برنامجاً طويلاً جداً... فلنقل له: تكفيك المحبة. وإن اتقنتها، ستجد داخلها جميع الفضائل. بل إن وصلت إلى المحبة، لا تحتاج إلى وصايا أخرى. المحبة تكفيك وتغنيك.

* * *

إن وصلت إلى المحبة تكون قد وصلت إلى الله.

لأن الله محبة (١يو٤: ١٦)... ولو كانت فيك المحبة الكاملة، تكون قد ارتفعت فوق نطاق الناموس وفوق نطاق الوصايا.

إذا ملكت محبة الله على قلبك، فإنها تطرد منه الخطية، وتطرد الخوف... هناك كثيرون يجاهدون و يتعبون، و يريدون أن يصلوا إلى الله ولا يعرفون. بتداريب عديدة

وبجهاد كثير. وكلما يقومون يقعون. ويستمر قيامهم وسقوطهم. لماذا لأن جهادهم لم يبنَ على المحبة، كالبيت الذى يبنى على الصخر (مت٧: ٢٤). وبغير المحبة يصبح مجرد جهاد ظاهرى، لم يصل إلى العمق بعد...

أما إذا وصلت إلى محبة الله، فإنك لا تخاف الخطية.

الخطية حينئذ لا تقدر أن تعيش فى داخلك. لأن محبة الله التى فى داخلك هى نور، بينما الخطية ظلمة. والنور يطرد الظلمة، ولا شركة بين النور والظلمة (٢كو٦: ١٤). محبة الله لا تتفق مع محبة الخطية، فلا يمكن أن يوجدا معاً فى قلب واحد.

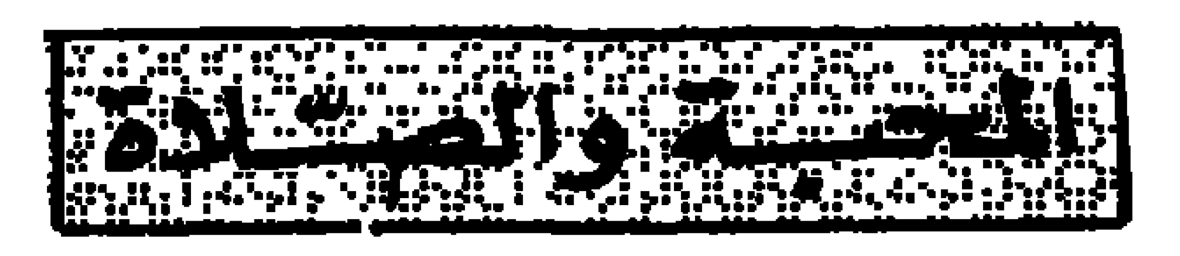
لذلك لا تجاهد ضد الخطية بدون محبة الله. حاول أن تدخل محبة الله إلى قلبك، فتتخلص من الخطية بدون تعب.

* * *

المحبة هى الميزان الذى توزن به أعمالنا فى اليوم الأخير.

لا تقاس أعمالنا الخيرة بكثرتها، إنما بمقدار ما فيها من حب. لا تقل له مثلاً: أنا قد وقفت يارب ثلاث ساعات أصلى. لأن الله سيجيبك: ليس المهم فى مقدار الوقت، إنما فى مشاعر الحب التى فى قلبك أثناء الصلاة.... هل لك مشاعر داود المرتل الذى قال «محبوب هو إسمك يارب، فهو طول النهار تلاوتى» (مز١١٩). وقال أيضاً «باسمك ارفع يدى، فتشبع نفسى كما من شحم ودسم» (مز٦٣: ٤)...

كذلك أنت فى صلاتك، هل تكون فى قلبك محبة الله الذى تصلى لى أم لا؟ هل يكون قلبك متصلاً به أم لا؟ اعلم أن الصلاة الخالية من هذه المشاعر القلبية، ليست هى مقبولة عند الله، ولا تدخل إلى حضرته.



لأنه: ما هى الصلاة فى مفهومها الروحى؟

إنها ليست مجرد كلام موجه إلى الله أو حديث معه، أو مخاطبة له.... فهذا هو الشيء الظاهرى. لكن المعنى الحقيقى والباطنى، هو أن الصلاة هى محبة واشتياق إلى الله، للتمتع به. وهذه المحبة نحو الله هى التى تجعلك تصلى، هى التى تدفعك إلى

الحديث معه . إذن الكلام مع الله هو مجرد نتيجة للحب الموجود فى القلب ، أو هو مجرد تعبير عن هذا الحب ...

* * *

فإذا لم يوجد هذا الحب فى قلبك ، ألا تكون صلاتك مجرد كلام لا يدخل إلى حضرة الله ؟!

ألسنا نقول فى صلواتنا « فلتدنُ وسيلتى قدامك ، ولتدخل طلبتى إلى حضرتك » (مز١١٩) مثال ذلك صلاة الفريسى الذى كانت صلاته أطول من صلاة العشار ، ومع ذلك لم يخرج من الهيكل مبرراً مثلما خرج العشار !! (لو١٨ : ١٤) . لماذا ؟ لأن صلاته لم تكن مقبولة ، إذ لم يكن فيها حب لله ، بل كان فيها حب للذات ومديح لها فى قوله « إنى لست مثل سائر الناس الظالمين الخاطفين الزناة » . كما لم يكن فيها حب للغير ، إذ فى صلاته أدان العشار قائلاً « ولا مثل هذا العشار » .

* * *

إذن فى الصلاة : الحب هو الأصل ، والكلام هو التعبير . كما أن اللسان فيها يتحدث ، كذلك القلب أيضاً يتحدث . ومشاعر الحب التى فى القلب ، حتى بدون كلام ، تعتبر صلاة . أما كلام الصلاة بدون حب ، ليس هو صلاة ...

وما أجمل مثال داود النبى الذى يقول « كما يشتاق الإيل إلى جداول المياه ، هكذا تشتاق نفسى إليك يا الله » « عطشت نفسى إلى الله ، إلى الإله الحى » (مز٤٢ : ١ ، ٢) . « يا الله أنت إلهى ، إليك أبكر . عطشت نفسى إليك . يشتاق إليك جسدى » (مز٦٣ : ١) « متى أقف وأتراءى أمام الله » « كنت أذكرك على فراشى ، وفى أوقات الأسحار كنت أرتل لك » (مز٦٣) . « سبقت عيناى وقت السحر ، لأتلو فى جميع أقوالك » (مز١١٩) ... كل هذا حب واشتياق ...

* * *

بعكس ذلك كان الفريسيون ، الذين « لعلة كانوا يطيلون صلواتهم » (مت٢٣ : ١٤) .

صلوات طويلة ، ولكنها غير مقبولة ، لأنها خالية من الحب . وبالمثل أولئك الذين كانوا يصلون فى المجامع ، وفى زوايا الشوارع لكى يراهم الناس (مت٦ : ٥) . ماذا كان هدفهم من الصلاة سوى محبة المديح والمجد الباطل ، وليس محبة الله . إنها الذات

المريضة ، التى لا يوجد بينها و بين الله صلة ، حتى فى وقت الصلاة !!

إن الله لا يريد الشفتين ، بل القلب (مت ١٥ : ٨) . وهو يقول باستمرار « يا ابنى أعطنى قلبك » (أم ٢٣ : ٢٦) .

* * *

يريد قلبك فى الصلاة ، عامراً بالحب نحوه ، ونحو قريبك .

لذلك قال « إن قدمت قربانك قدام المذبح . وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك ، فاترك هناك قربانك قدام المذبح ، واذهب أولاً اصطلح مع اخيك . وحينئذ تعالَ وقدم قربانك » (مت ٥ : ٢٣ ، ٢٤) . إنه لا يريدك أن تتقدم إلى المذبح بغير حب ، ولا يقبل قربانك بغير حب...

* * *

لذلك اخلطوا كل أعمالكم بالحب . اخلطوا فضائلكم به .

إن كل عمل من أعمالك يخلو من الحب ، إنما يخلو من قيمته ومن أهميته . ولا يكون هو عمل الله فيك .

إن كان الله يعمل فيك ، فالمحبة تعمل فيك ، لأن الله محبة . حينئذ تكون كل أعمالك محبة ، كما قال الرسول « لتصر كل أموركم فى محبة » (١كو١٦ : ١٤) .

حتى مشاكلكم تحلونها أيضاً فى محبة على قدر إمكانكم .

المحبة والعطاء

العطاء مثلاً ، يوزن بمقدار الحب الذى فيه .

ليس بكثرة المقدار ، إنما بكثرة الحب . والعطاء المادى الذى تقدمه ، يجب أن تقدم فيه حب ، يظهر فى مشاعر قلبك ، وفى ملامح وجهك ، لأن المعطى المسرور يحبه الرب (٢كو٩ : ٧) .

لأنه من الجائز أن إنساناً يعطى بدون رغبة ، وهو متضايق ، أو وهو محرج أو مضطر أو مضغوط عليه ، أو وهو غير مقتنع بأن يدفع . فهو يعطى وهو متذمر فى قلبه ! ليس مثل هذا العطاء مقبولاً عند الله .

هناك فرق بين إنسان يعطى المساكين ، وإنسان يحب المساكين فيعطيهم .

هذا الذى يحبهم هو الأفضل ، حتى لو لم يكن له ما يعطيه... لأن الله ينظر إلى القلب قبل اليد... إن أجمل ما فى العطاء ، أن تشعر بلذة وأنت تعطى ، لا تقل عن فرح الذى تعطيه . إن الأم تشعر بفرح حينما يرضع طفلها منها . فهى تعطيه حباً قبل أن تعطيه لبناً ، أو هى تعطيه الأمرين معاً... كذلك من يعطى المحتاج عن حب ، وبحب ، و يفرح باعطائه .

* * *

وهنا يبدو الفارق بين الثراء الذى يعطى ، والمحبة التى تعطى .

إنك حينما تعطف على شخص ، إنما تشعر بلذة فى العطف عليه ، ربما أكثر من اللذة التى يشعر بها ذلك الشخص الذى نال العطف منك . فأنت تأخذ حينما تعطى ، كما يأخذ الذى تعطيه . قال أحد الأدباء : « سقيت شجيرة كوباً من الماء . فلم تقدم لى عبارة شكر واحدة . ولكنها انتعشتْ فانتعشتُ » .

المحبة والخدمة

هكذا الخدمة أيضاً : إن لم يدخلها الحب ، لا تكون خدمة .

السيد المسيح كانت معجزاته مخلوطة بالحب . فمثلاً فى معجزة إشباع الجموع من الخمس خبزات والسمكتين ، يقول الكتاب إنه « أبصر جمعاً كثيراً ، فتحنن عليهم وشفى مرضاهم » (مت١٤ : ١٤) وأيضاً « فتحنن عليهم ، إذ كانوا كخراف لا راعى لها » (مر٦: ٣٤) .

وحتى حينما روى قصة السامرى الصالح ، دقق على هذه النقطة فقال « ولكن سامرياً مسافراً جاء إليه ، ولما رآه تحنن » (لو١٠ : ٣٣) . إن هذه العواطف لها أهميتها عند الرب .

* * *

كثيرون خدمتهم فى الكنيسة مجرد نشاط ، خالية من الحب .

تشمل الكثير من العمل والانتاج ، والكثير من الإداريات والنظام ، وربما من الروتين . ولكن بلا حب...

بينما الخدمة فى أصلها ، أنك تحب الله ، وملكوته . وتحب أبناء الله ، وتريد لهم أن يحبوا الله ، وأن يدخلوا ملكوته . لذلك تبذل كل جهدك لتقوم بعمل محبة نحوهم .

* * *

إن عطايا الرب ومعجزات الشفاء ، كانت ممتزجة بالحب .

قبل إقامته لعازر من الموت ، قيل عنه «بكى يسوع» (يو١١ : ٣٥) . وفى إقامة ابن أرملة نايين ، لما رأى هذه الأم الأرملة «تحنن عليها وقال لها لا تبكى» (لو٧ : ١٣) وفى شفاء الأبرص قيل «فتحنن يسوع ومد يده ولمسه» (مر١ : ٤١) وطهّره . وفى شفاء الأعميين فى أريحا ، قيل «فتحنن يسوع ولمس أعينهما ، فللوقت أبصرت أعينهما فتبعاه» (مت٢٠ : ٣٤) .

* * *

وما أجمل ما قيل عن السيد المسيح ، إنه «أحب خاصته الذين فى العالم ، أحبهم حتى المنتهى» (يو١٣ : ١) .

وقال لهم «لا أعود أسميكم عبيداً ... لكننى قد سميتكم أحباء» (يو١٥ : ١٥) «كما أحبنى الآب ، أحببتكم أنا . أثبتوا فى محبتى» (يو١٥ : ٩) . وقال للآب عنهم : «عرّفتهم إسمك وسأعرفهم ، ليكون فيهم الحب الذى أحببتنى به ، وأكون أنا فيهم» (يو١٧ : ٢٦) . وقال لهم عن رسالة الفداء التى جاء ليقوم بها «ليس لأحد حب أعظم من هذا ، أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو١٥ : ١٣) . كلام كله حب ، ونفهم منه هذه الحقيقة .

* * *

إن السيد المسيح على الصليب كان ذبيحة حب .

فتكلم عن الفداء ، إنه مات عنا . وأنه قد حمل خطايانا ، وأنه خلصنا . ولكن وراء كل هذا العمل ، كان الحب «أحب ... حتى بذل» (يو٣ : ١٦) ... إذن سبب التجسد الإلهى هو الحب ، وسبب الفداء أيضاً هو الحب . و يتحدث القديس يوحنا عن ذلك فيقول «فى هذا هى المحبة ، ليس أننا أحببنا الله ، بل أنه هو أحبنا ، وأرسل ابنه كفارة لخطايانا» (١يو٤ : ١٠) ... ولذلك نحن نقابل حبه بحب . وهكذا قال «نحن نحبه لأنه هو أحبنا قبلاً» (١يو٤ : ١٩) .

وكما كان المسيح ، ذبيحة حب نحونا ، هكذا كان الشهداء ذبيحة حب نحو الله .

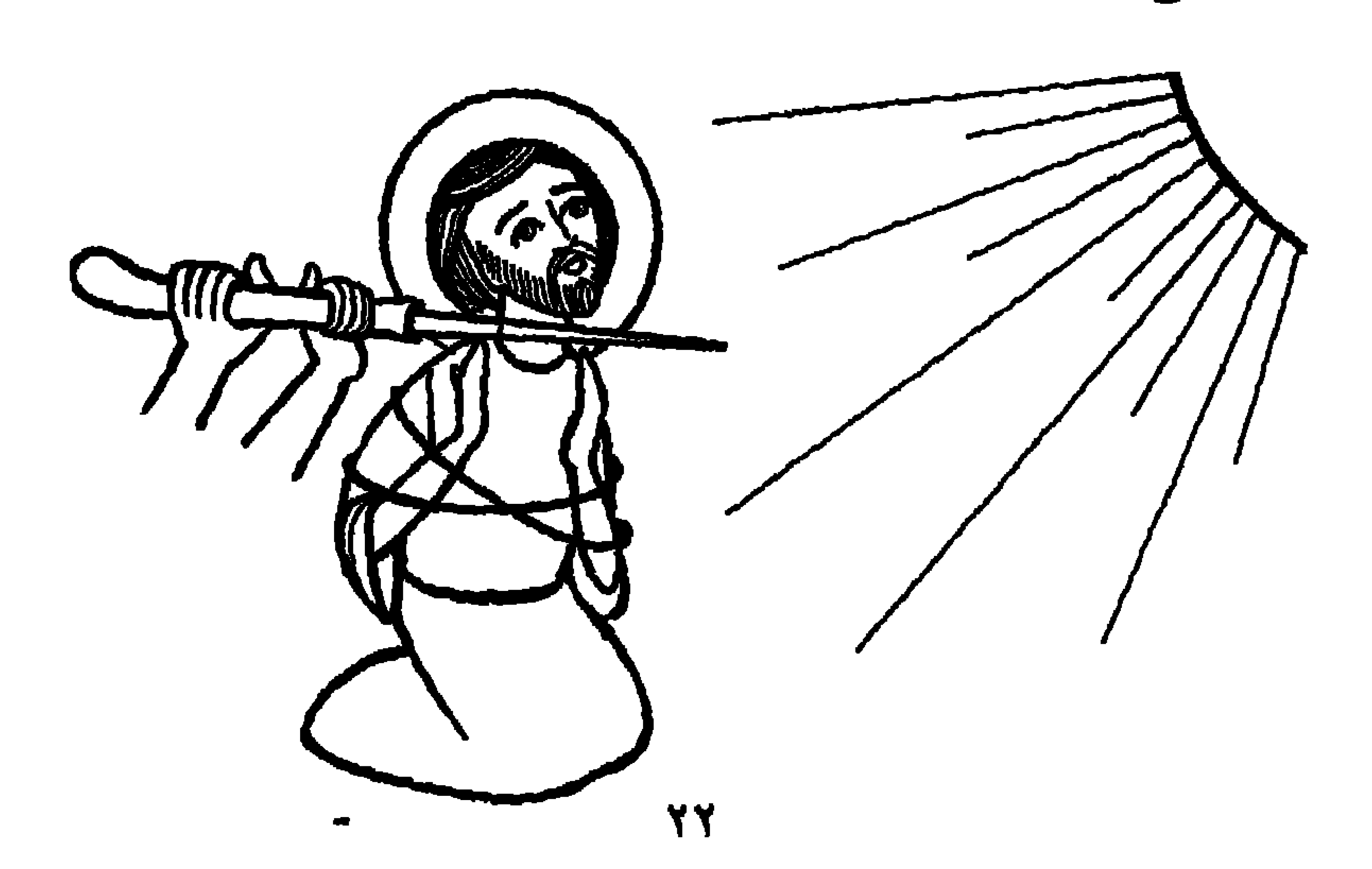
لقد قدموا حياتهم ذبيحة حب لله . أحبوه أكثر من العالم كله ، وأكثر من الأهل والأقرباء . بل أحبوه أكثر من أنفسهم ، وفرحوا بالموت لأنه يقربهم إليه ، ليعيشوا معه فى الفردوس ثم فى الملكوت إلى الأبد . كما قال القديس بولس الرسول « لى اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح . ذاك أفضل جداً » (فى ١ : ٢٣) .

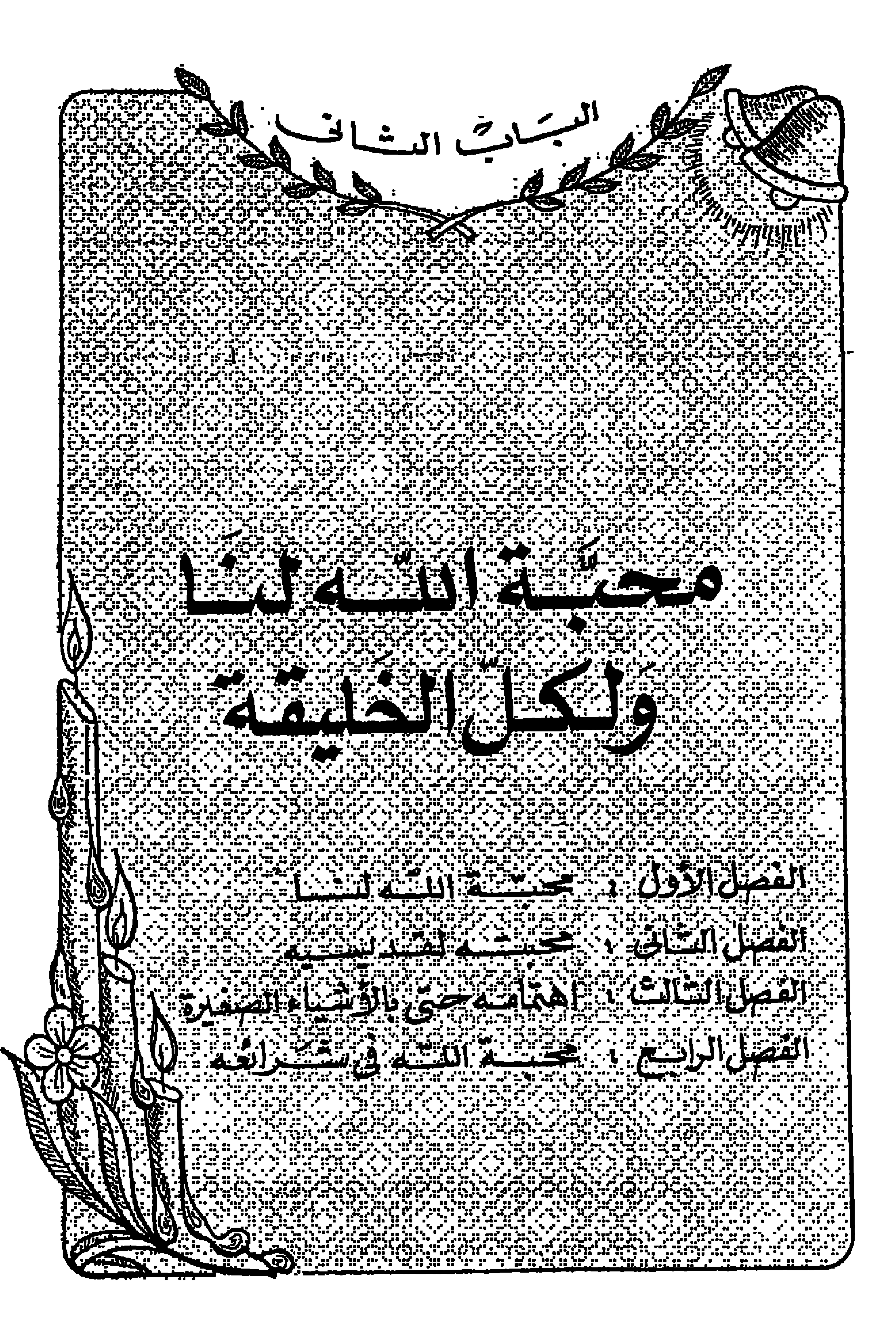
لا تظنوا أن الذين تقدموا للاستشهاد كانوا يلاقون الموت وهم خائفون أو متضايقون . كلا ، بل كانوا فى محبتهم للقاء الله ، فرحين جداً بهذا اللقاء ، ومشتاقين إليه . كانوا يذهبون إلى ساحة الاستشهاد وهم يرتلون فى فرح . وأثناء سجنهم ، حولوا السجون إلى معابد ، ترتفع منها أصوات الترتيل والتسبيح والصلاة .

* * *

حتى أن أحد الشهداء قبل السلاسل التى قيدوه بها ...

وشهيد آخر كان يصلى طالباً البركة للجلاد الذى سيقطع رأسه ... ولعلهم أخذوا هذا الدرس عن السيد المسيح الذى حينما اقترب إلى الجلجثة ، قال قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان » (يو ١٢ : ٢٣) « الآن تمجد ابن الانسان ، وتمجد الآب فيه » (يو ١٣ : ٣١) ... وقيل عنه فيما تحمله من آلام واهانات فى وقت الصلب « من أجل السرور الموضوع أمامه ، احتمل الصليب مستهيناً بالخزى » (عب ١٢ : ٢) .





الباب الثاني

محبة الله لنا ولكل الخليقة

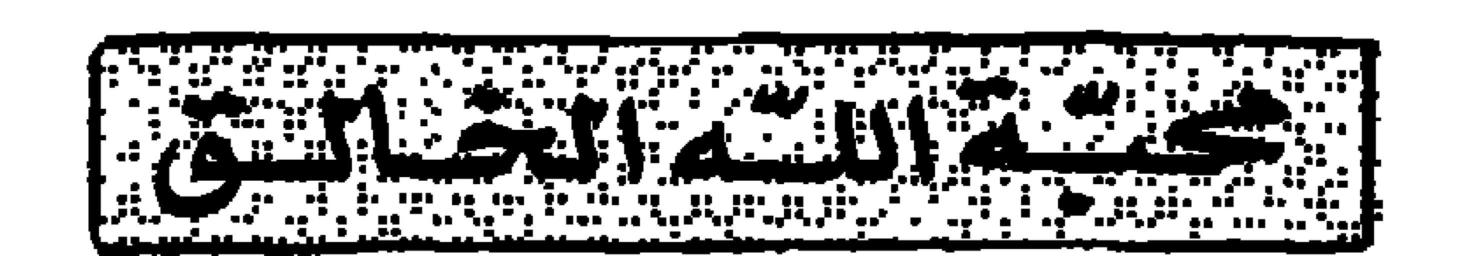
الفصل الأول

محبة الله لنا

عناصر هذا الفصل :

١ - محبة الله الخالق .
٢ - محبة الله الراعي .
٣ - محبة الله الآب .
٤ - ألقاب أخرى للمحبة .
٥ - سكنى الله فينا .
٦ - محبة الله صانع الخيرات .
٧ - محبة الله على الصليب .
٨ - محبة الله المتحنن .
٩ - محبة الله الغفور .
١٠ - اهتمام الرب بالمحتاجين إلى الحب .
١١ - الله المحب يستخدم المحبين .

يكفى أن المحبة هى أحد أسماء الله (١يو٤: ١٦، ٨)... وقد أظهر الله محبته للبشر بأنواع وطرق شتى، مما لست استطيع أن أشرحه، لأن محبة الله غير محدودة. ومهما كتبنا عنها فكتاباتنا محدودة. لذلك أوجز الشرح فأقول:



ظهرت محبة الله أولاً فى الخلق. لماذا؟ وكيف؟

منذ الأزل كان الله وحده، وكان مكتفياً بذاته. ولكنه لم يشأ أن يبقى وحده. ومن أجل محبته لنا قبل أن نوجد، شاء فأوجدنا. ولم نكن شيئاً جديداً بالنسبة إليه، فالله لا يجد عليه شيء. إنما كنا فى عقله فكرة، وفى قلبه مسرة، قبل أن يكون لنا وجود مادى فعلى... فكان وجودنا هو ثمرة حبه وثمرة كرمه.

* * *

ومن دلائل محبة الله للإنسان، أنه خلقه فى اليوم السادس.

أقصد أنه خلقه بعد أن خلق كل شيء من أجله، حتى لا يكون معوزاً شيئاً من أعمال كرامته. خلق له السماء سقفاً، ومهد له الأرض، لكى يمشى عليها. خلق له الطعام الذى يأكله، والماء الذى يشربه، والهواء الذى يستنشقه، والحيوان الذى يستخدمه أو يؤنسه. خلق الله النور: الشمس لضياء النهار، والقمر والنجوم لضياء الليل. ووضع لكل ذلك قوانين الفلك. وضبط البحار والأنهار. وأخضع له طبيعة الحيوان... وأخيراً خلق الإنسان بعد أن أعدّ له كل شيء. وما أجمل تأملاتنا فى ذلك فى القداس الغريغورى، تحت عبارة «من أجلى...».

ما أجمل أن نتأمل كل هذا فنقول:

لو أن الملائكة سألوا الله قائلين «لماذا يارب تخلق الشمس والقمر والنجوم؟»

لأجابهم «من أجل الإنسان حبيبى، والذى سأخلقه فيما بعد». وبنفس الإجابة يجيبهم عن خلقه للأرض والثمار والأزهار والأطيار، والطبيعة الجميلة... كلها من أجل راحة الإنسان حبيبى...

لذلك نستطيع أيضاً أن نقول : إن عطايا الله لنا ، سبقت خلقه إيانا .

* * *

من دلائل محبة الله لنا أيضاً فى الخلق ، أنه خلقنا على صورته ومثاله .

إذ قال فى ذلك «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» «فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه» (تك ١: ٢٦، ٢٧) .

على صورته من حيث أنه ذات وعقل وروح . ومن حيث أن له روحاً خالدة ، ومن حيث النقاوة والطهارة وحب الخير، ومن حيث القيادة والسلطة .

* * *

فمن محبة الله للإنسان حينما خلقه ، أنه منحه السلطان ومنحه البركة أيضاً .

وفى ذلك يقول سفر التكوين «وباركهم الله ، وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض واخضعوها ، وتسلطوا على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض» (تك ١ : ٢٨) . وهكذا صار الإنسان وكيلاً لله على الأرض ، وسيداً لكل الخليقة الأرضية . وبنفس هذه البركة والسلطة بارك الله أبانا نوحاً وبنيه بعد الطوفان ورسو الفلك (تك ٩: ١، ٢) .

إن كان الإنسان قد فقد بعضاً من هذه السلطة الآن ، فهذه نتيجة للخطية . ولكنه فى البدء لم يكن هكذا...

* * *

ومن محبة الله فى خلق الإنسان ، أنه وضعه فى جنة :

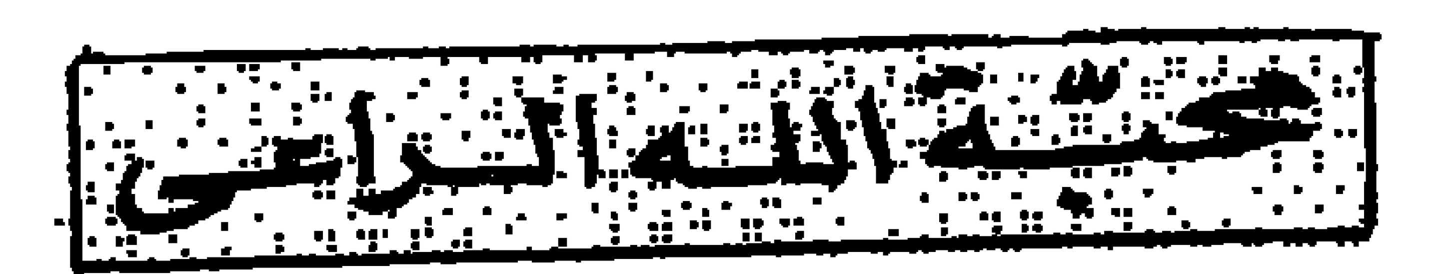
وفى ذلك يقول سفر التكوين «وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً . ووضع هناك آدم الذى جبله» «وأخذ الرب آدم، ووضعه فى جنة عدن» (تك ٢: ٨، ١٥) . وكانت الجنة مليئة بكل أنواع الثمار، وجميلة جداً ، يكفى أنها جنة .

* * *

ولم يكتف الله بهذا ، بل خلق لآدم معيناً نظيره .

خلقها من جنبه ، وغرس بينه وبينها حباً « فقال آدم : هذه الآن عظم من عظامي ، ولحم من لحمي . هذه تُدعى إمرأة ، لأنها من إمرءٍ أخذت » (تك ٢ : ٢٣) .

وكان خلق حواء لآدم يشمل لوناً آخر من محبته للبشرية . إذ خلقهما ذكراً وأنثى (تك ١ : ٢٧) . لكي يكثروا ويثمروا ويملأوا الأرض . ويكون هناك نسل فيما بعد ، كعدد نجوم السماء ورمل البحر ، لا يعد من الكثرة (تك ٢٢ : ١٧) .



وحتى بعد سقطة الإنسان الأول لم يتخلَّ الله عن محبته .

ففيما هو يعاقب ، مزج العقوبة بوعد بالخلاص . فقال « إن نسل المرأة يسحق رأس الحية » (تك ٣ : ١٥) . حقاً كما نقول في القداس الغريغوري « حوّلت لي العقوبة خلاصاً » .

ولم يلعن الله آدم وحواء كما لعن الحية (تك ٣ : ١٤) ، وإلا كانت اللعنة قد أصابت البشرية كلها .

وحتى عندما عاقب الله قايين ، لم يتخلَّ الله عن رأفته ، فلما قال له قايين « إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ، فيكون كل من وجدني يقتلني » فقال له الرب « كل من قتل قايين ، فسبعة أضعاف ينتقم منه » . وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده (تك ٤ : ١٤ ، ١٥) .

* * *

ومن محبة الله للإنسان رعايته بالناموس والأنبياء .

فلما سار الإنسان في طريق الضلال ، « وقال الجاهل في قلبه ليس إله » (مز ١٤ : ١) . وفسد البشر جميعاً ، وإذا « ليس من يعمل صلاحاً ، ليس ولا واحد » (مز ١٤ : ٣) . بل حتى ضمائرهم اظلمت ولم تعد تهديهم ، أرسل الله لهم الأنبياء لكي يبلغوهم صوت الله وأوامره . كما زوّدهم بالوحي الإلهي وبالشريعة المكتوبة . بل أن أول لوحين للشريعة ، كانا مكتوبين بأصبع الله « واللوحان هما صنعة الله ، والكتابة

كتابة الله منقوشة على اللوحين » (خر٣٢ : ١٦).

واستمر الله يرسل الأنبياء لهداية الناس، حتى بعد أن تركوا عهده، ونقضوا مذابحه، وقتلوا أنبياءه بالسيف (١مل١٩: ١٤). وحتى بعد أن عبدوا العجل الذهبى (خر٣٢) وعبدوا الأصنام فترات طويلة.

* * *

ومن محبةالله للإنسان أنه كان الراعى الصالح له.

كما تغنى داود النبى فى المزمور قائلاً « الرب يرعانى فلا يعوزنى شىء. فى مراع خضر يربضنى. إلى ماء الراحة يوردنى. يرد نفسى، يهدينى إلى سبل البر» (مز٢٣).

وقال الرب فى سفر حزقيال النبى « أنا أرعى غنمى وأربضها ـ يقول السيد الرب ـ وأطلب الضال، واسترد المطرود، وأجبر الكسير، وأعصب الجريح..» (حز٣٤: ١٥، ١٦). بل أن الرب تكلّم بشدة ضد الرعاة الذين يرعون أنفسهم، وقد أهملوا غنمه وخرافه، فقال « هأنذا على الرعاة، واطلب غنمى من يدهم، وأكفهم عن رعى الغنم، ولا يرعى الرعاة أنفسهم بعد، وأخلص غنمى من أفواههم، فلا تكون لهم مأكلاً » (حز٣٤: ١٠).

وفى العهد الجديد يقول السيد الرب « أنا هو الراعى الصالح، والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف» (يو١٠: ١١). « أنا هو الراعى الصالح، وأعرف خاصتى، وخاصتى تعرفنى» « خرافى تعرف صوتى فتتبعنى، ولن تهلك إلى الأبد، ولا يخطفها أحد من يدى» (يو١٠: ١٤، ٢٧، ٢٨).

* * *

ورعاية الرب لشعبه شاملة تشمل كل تفاصيل الحياة:

فهو يرعاهم مادياً وروحياً. ويخلصهم من أيدى أعدائهم. كما قال موسى النبى « قفوا وانظروا خلاص الرب.. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون» (خر١٤: ١٣، ١٤). وقصص أمثال هذا الخلاص التى تظهر محبة الرب كثيرة فى سفر القضاة.

* * *

ومحبة الرب فى رعايته المادية وأولاده، تظهر فى معجزتى المن والسلوى، وفى إرساله الطعام لإيليا النبى عند نهر كريت أثناء المجاعة، فى عبارة مؤثرة قال له فيها

« وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك » (١مل ١٧: ٤). بل تظهر محبة الرب العجيبة فى هذا الأمر، إذ أنه « يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين » (مت ٥: ٤٥). بل أنه يعطى البهائم قوتها، وفراخ الغربان التى تدعوه (مز ١٤٦). و يعطى طعاماً لكل دودة تدب تحت حجر.. ما أعجب محبته للكل وما أعجب حنانه.

* * *

ورعايته الروحية تشمل قصة الخلاص كلها.

وفى ذلك قال بولس الرسول عن الله فى إرساله الخدام للعناية الروحية بالناس « وهو أعطى البعض أن يكونوا رسلاً، والبعض أنبياء، والبعض مبشرين، والبعض رعاة ومعلمين. لأجل تكميل القديسين، لعمل الخدمة، لبنيان جسد المسيح. إلى أن ننتهى جميعاً إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله... » (أف ٤: ١١- ١٣). بل قال أيضاً عن الملائكة « أليسوا جميعهم أرواحاً خادمة، مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص » (عب ١: ١٤).

* * *

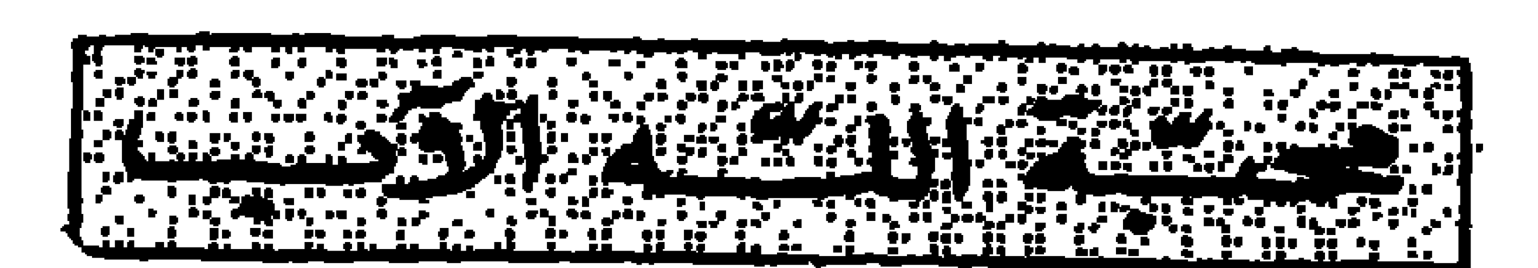
أما عن محبة الله فى إرسال الملائكة لخدمة البشر ولمعونتهم، فهى موضوع طويل يدل على عمق محبة الله...

يحدثنا عنه دانيال النبى فى الجب وهو يقول « إلهى أرسل ملاكه، فسد أفواه الأسود » (دا ٦: ٢٢). و يقول أبونا يعقوب أبو الآباء « الملاك الذى خلصنى من كل شر » (تك ٤٨: ١٦). ملاك آخر انقذ بطرس الرسول من السجن (أع ١٢: ٧، ١١). وملاك ضرب جيش سنحاريب وخلص الشعب منه (٢مل ١٩: ٣٥). حقاً، كما يقول الكتاب « ملاك الرب حال حول خائفيه و ينجيهم » (مز ٣٤: ٧).

ومن محبة الرب أيضاً يرسل ملائكة البشارة والفرح.

ملاك يبشر العذراء بالحبل بالمسيح (لو ١: ٢٦، ٣٨). وملاك يبشر زكريا بيوحنا المعمدان (لو ١: ١١- ٢٠). وملاك يبشر الرعاة بميلاد المسيح (لو ٢: ٨- ١٤). وملاك يبشر يوسف النجار (مت ١: ٢٠، ٢١)... وما أكثر الملائكة الذين بشروا

النسوة بالقيامة ... وملائكة البشرى كثيرون فى الكتاب المقدس ، يرسلهم الله من محبته حاملين أخباراً مفرحة .



ومن محبة الله لنا ، أنه دعانا أبناء له .

وفى هذا يقول القديس يوحنا الرسول « انظروا أية محبة أعطانا الآب ، حتى نُدعى أولاد الله » (١يو٣: ١) . وهكذا نصلى باستمرار ونقول « أبانا الذى فى السموات » (مت٦: ٩) . وتتكرر عبارة « أبوكم السماوى » مرات عديدة فى العظة على الجبل . وترتبط بالكمال المطلوب منا حيناً (مت٥: ٤٨) . وبالمغفرة حيناً آخر (مت٦: ١٤) . وبالعمل فى الخفاء أحياناً (مت٦: ٤، ٦، ١٨) . وترتبط بعناية الله أيضاً إذ يقول « فكم بالحرى أبوكم الذى فى السموات يهب خيرات للذين يسألونه » (مت٧: ١١) . « لا تهتموا قائلين ماذا نأكل ، أو ماذا نشرب ، أو ماذا نلبس ... لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها » (مت٦: ٣١ ، ٣٢) . ما أعمق أن نعتمد باستمرار على محبة هذا الآب السماوى .

* * *

ومحبة الله دعتنا أبناء أيضاً حتى فى العهد القديم .

فهو ينادى كلاً منا قائلاً « يا ابنى أعطنى قلبك ، ولتلاحظ عيناك طرقى » (أم٢٣: ٢٦) . ويقول الوحى فى قصة الطوفان قائلاً عن نسل شيث « رأى أولاد الله بنات الناس أنهن حسنات » (تك٦: ٢) . ويعاتب الله شعبه قائلاً « ربيت بنين ونشأتهم ، أما هم فعصوا علىّ » (أش١: ٢) . ويعاتب فى سفر ملاخى قائلاً « الابن يكرم أباه ، والعبد يكرم سيده . فإن كنت أنا أباً ، فأين كرامتى ؟ وإن كنت سيداً ، فأين هيبتى ؟ » (ملا١: ٦) .

ويناديه الشعب فى سفر اشعياء النبى قائلين « تطلّع من السموات ، وانظر من مسكن قدسك ... فإنك أنت أبونا ، وإن لم يعرفنا ابراهيم ... أنت يارب أبونا ، ولينا ، منذ الأبد اسمك » (أش٦٣: ١٥، ١٦) . وأيضاً « والآن يارب أنت أبونا . نحن الطين وأنت جابلنا » (أش٦٤: ٨) .

إن كلمة أب تحمل مشاعر عميقة لا تحصى .

تحمل معانى الحب والحنان ، والرعاية أيضاً . وتحمل معانى الرأفة والإشفاق أيضاً . وهكذا يقول داود النبى فى المزمور « كما يترأف الأب على البنين ، يترأف الرب على خائفيه . لأنه يعرف جبلتنا ، يذكر أننا تراب نحن » (مز١٠٣) . وعبارة الابوة تعنى أنه يعاملنا كأبناء وليس كعبيد . وتعنى أيضاً أن لنا ميراثاً فى السماء كبنين . وتعنى كذلك أنه يجب علينا أن نبادل هذا الأب حباً بحب . كما قال القديس يوحنا الرسول « نحن نحبه ، لأنه هو أحبنا أولاً » (١يو٤ : ١٩) ... وإلا فإننا نستحق توبيخ الرسول حينما قال « إن كنتم تحتملون التأديب ، يعاملكم الله كالبنين . فأى ابن لا يؤدبه أبوه . ولكن إن كنتم بلا تأديب ... فأنتم نغول لا بنون » (عب ١٢ : ٧ ، ٨) .

ألقاب أخرى للمحبة

ما أكثر أيضاً ألقاب الحب التى يلقبنا بها الله .

ليس فقط أبناء . بل يشبهنا أيضاً بالعروس . و يقول القديس يوحنا المعمدان عن المسيح والكنيسة « من له العروس فهو العريس . أما صديق العريس (عن نفسه) الذى يقف و يسمعه ، فيفرح فرحاً » (يو٣ : ٢٩) . نفس التشبيه يقوله السيد الرب فى مثل العذارى الحكيمات اللائى يسهرن فى مجيء العريس (مت ٢٥) . ونفس التشبيه فى (أف ٥ : ٢٥ : ٣٣) . وعن هذا التشبيه فى الحب ورد سفر كامل فى الكتاب هو سفر نشيد الأناشيد عن العلاقة بين الله والنفس البشرية .

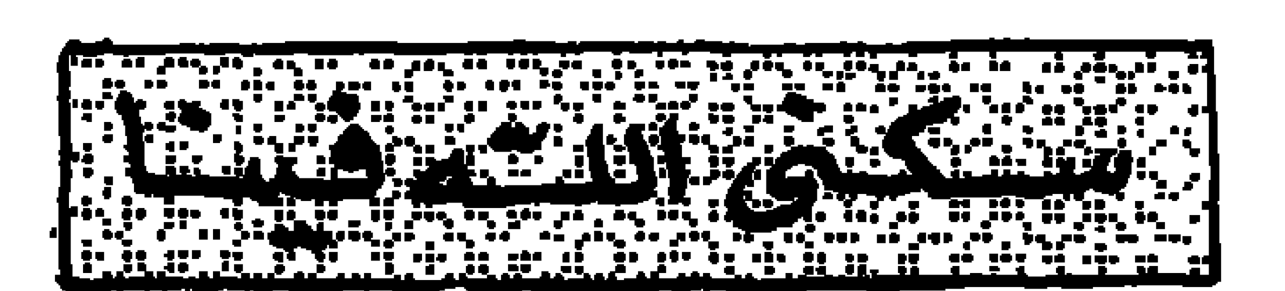
* * *

كذلك يشبه علاقتنا به بالعلاقة بين الجسد والرأس .

فالمسيح هو رأس الكنيسة ، وهو مخلص الجسد (أف ٥ : ٢٣) . وكلنا أعضاء فى جسده ... أو هناك تشبيه آخر مماثل ، أنه الكرمة ونحن الأغصان . والغصن الثابت فيه ، أى فى الكرمة ، هو الذى يأتى بثمر (يو١٥ : ٥) . ولذلك كله ـ من محبته لنا ـ دعانا خاصته . وقيل عنه إنه أحب خاصته الذين فى العالم ، أحبهم حتى المنتهى» (يو١٣ : ١) .

ومن محبته لنا دعانا هياكل لروحه القدوس .

فقال القديس بولس الرسول « أما تعلمون أنكم هيكل الله ، وروح الله يسكن فيكم.. لأن هيكل الله مقدس الذى أنتم هو» (١كو٣: ١٦، ١٧). وكرر ذلك فى (١كو٦: ١٩).



سكنى الله فينا

من محبة الله لنا : سكناه فى قلوبنا .

الله الذى يقول « يا ابنى اعطنى قلبك » (أم ٢٣ : ٢٦) . إنه ينظر إلى قلب كل واحد منا ، وإلى نفس كل واحد منا ، و يقول «ههنا هو موضع راحتى إلى أبد الأ بد . ههنا أسكن لأنى اشتهيته» (مز١٣٢) . قيل عنه فى تجسده أنه : لم يكن له موضع يسند فيه رأسه (لو٩: ٥٨).

أحسن موضع يسند فيه الرب رأسه ، هو القلب النقى ...

هو القلب الذى يحب الله ، ويحب أن يكون الله فى أعماقه ... من محبة الله لنا ، إنه يقف على باب قلب كلٍ منا ، و يقرع لكى يفتح له (رؤ٣: ٢٠). يقول لكل نفس من نفوسنا «افتحى لى يا اختى ، يا حبيبتى ، يا كاملتى» (نش٥: ٢). وإن تباطأت النفس فى أن تفتح له ، يظل منتظراً قارعاً على أبواب قلوبنا ، حتى يمتلىء رأسه من الطل ، وقصصه من ندى الليل (نش٥: ٢).

* * *

الله المحب الذى لا تسعه السموات ولا سماء السموات (١مل٨: ٢٧)... يريد أن يسكن فينا.

إن أعظم سماء يحب الرب أن يسكنها ، هى قلبك . وأعظم هيكل يوجد فيه هو قلبك . بل أعظم عرش يجلس عليه هو قلبك ، كما قيل فى قصيدة « همسة حب » :

فى سماء أنت حقاً إنما	كل قلب عاش فى الحب سماك
عرشك الأقدس قلب قد خلا	من هوى الكل فلا يهوى سواك
ما بعيد أنت عن روحى التى	فى سكون الصمت تستوحى نداك

نعم ، نحن هياكل الله ، والله يسكن فينا (١كو٣: ١٦) . إنه يقول « إن أحبنى أحد، يحفظ كلامى، ويحبه أبى . وإليه نأتى، وعنده نصنع منزلاً » (يو١٤: ٢٣) . أى الآب والإبن يسكنان فيك ، وأنت أيضاً مسكن للروح القدس (١كو٣: ١٦)... فتكون مسكناً للثالوث القدوس... حقاً ، ما أعمق محبة الله لنا . وما أسمى القلب المحب لله .

* * *

هذا القلب الذى يسكنه الله ومحبة الله ، هو - بدون مبالغة - أسمى من السماء التى فوقه !!

ألم يقل الرب فى العظة على الجبل « السماء والأرض تزولان » (مت٥: ١٨) (رؤ٢١: ١)... نعم هى تزول ، ولكن قلوبكم التى يسكن فيها الله ستبقى ! و يبقى الله ساكناً مع الناس، الله وسط شعبه (رؤ٢١: ٣)... هذا الذى قال لنا « ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر» (مت٢٨: ٢٠) .

* * *

نعم ، هذا هو عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا (مت ١: ٢٣) .

من نحن يارب ، حتى تكون معنا ؟! نحن التراب والرماد ، والمزدرى وغير الموجود (١كو١: ٢٨).... وكأن الله يقول : أنا معكم كل الأيام، لأنى أحبكم ، وأحب أن أكون فى وسطكم . وقد وعدتكم من قبل إنه « حيثما اجتمع إثنان أو ثلاث باسمى، فهناك أكون فى وسطهم » (مت١٨: ٢٠) . نعم إن مسرتى فى بنى البشر. أنا أحب أن أسكن فيهم... أنتم سمائى الخالدة . أنتم عرشى الذى أجلس عليه... أنتم ملكوتى !

* * *

ألم يقل الكتاب « ملكوت الله داخلكم » (لو١٧: ٢١) .

نعم ، داخل هذه القلوب ، افتح قلبك ، تجد داخله ملكوت الله ، تجد محبة الله... إنه الله الذى يقول « يا ابنى اعطنى قلبك » (أم٢٣: ٢٦). عجيب أن يقول الرب « اعطنى قلبك » !

من أنا يارب حتى أعطيك ؟! أنت مصدر كل غنى . أنت الذى تشبع كل حى

من رضاك . أنت مالك الكل ، الذى لك الأرض وما عليها ، المسكونة وكل الساكنين فيها (مز٢٤ : ١) ... أنت يارب الكائن الوحيد الذى لا يحتاج إلى شيء ... ومع ذلك :

* * *

سأعطيك يارب قلبى ، كما طلبت . ولكن لكى تقدسه وتنظفه وتطهره ، وتسكن فيه ، فيتبارك بك ، و يكون لك ...

خذه يارب ، واسند فيه رأسك ... أنت الذى خلقته . وأنت الذى أعطيتنى إياه ، وأوصيتنى قائلاً «فوق كل تحفظ احفظ قلبك ، لأن منه مخارج الحياة» (أم ٤ : ٢٣) . ليتك أنت تحفظه ، هذا الذى أعطيتنى إياه ، ليكون لك . وحينما أقدمه موضعاً لسكناك ، أقول لك كما قال الشعب فى القديم ، حينما تبرعوا لبناء بيت للرب :

« منك الجميع ، ومن يدك أعطيناك » (أى ٢٩ : ١٤) .

مبارك أنت يارب فى محبتك ، حينما تقبل من أيدينا شيئاً . ومبارك أنت فى تواضعك حينما تقول «يا ابنى أعطنى» مثلما قلت للمرأة السامرية «أعطينى لأشرب» (يو٤ : ٧) ... وأنت الذى عندك الماء الحى ، الذى كل من يشرب منه ، لا يعطش إلى الأبد ... (يو٤ : ١٤) .

حقاً يارب ، ليس لك شبيه بين الآله ، كما قال داود عبدك «من مثلك ؟!» (مز٨٩ : ٦ ، ٨) .

أنت يارب حنون جداً ، وعطوف جداً ، ومحبتك فوق الوصف ، وفوق الشرح ، لا يستطيع لسان أن يعبّر عنها ...

محبة الله صانع الخيرات

من محبة الله ، أنه صانع الخيرات لنا . قيل عنه إنه يجول يصنع خيراً ... (أع ١٠ : ٣٨) .

إنه يعطى الخير للكل ، حتى لأعدائه ، وللذين ينكرون وجوده . وعطاياه كلها نابعة من حبه ومن كرمه وجوده . مرت فترة كانت فيها الوثنية تسود العالم ، ومع ذلك لم يمنع الله خيره عن العالم ... وعندما عرفته هذه الأمم الوثنية ، كان هو الذى منحهم

الإيمان به ، كمبادرة من عنده ، مثلما فعل مع شعب نينوى (يون ٣) ، ومثلما فعل مع كثيرين بمعجزاته وآياته... وأيضاً باحساناته الكثيرة، هذه التي تغنى بها داود النبى فقال :

« باركى يا نفسى الرب ، ولا تنسى كل حسناته » (مز ١٠٣ : ٢) .

« باركى يا نفسى الرب ، وكل ما فى باطنى ليبارك إسمه القدوس» «الذى يغفر جميع ذنوبك ، الذى يشفى كل أمراضك ، الذى يفدى من الحفرة حياتك . الذى يكللك بالرحمة والرأفة . الذى يشبع بالخير عمرك ، فيتجدد مثل النسر شبابك» (مز١٠٣: ١- ٥) .

يغفر جميع ذنوبك فى المعمودية . ويشفى كل أمراضك الروحية فى أعترافك وتناولك وفى رعايته الروحية لك . ويفدى من الحفرة حياتك ، لأنه بالفداء ينقذك من الذهاب إلى الجحيم . ويكللك بالرحمة والرأفة ، أحينما يمنحك إكليل الحياة وإكليل البر. ويشبع بالخير عمرك فى الأبدية السعيدة والنعيم الأبدى ، فيتجدد مثل النسر شبابك ...

* * *

ما أكثر حسنات الله إلى الذين يحبونه ويحبهم :

يوحنا الرسول كان يتكىء فى حضنه ، ويسمع نبضات قلبه . ومريم أخت مرثا كانت تجلس عند قدميه ، وتسمع كلمات الروح من فمه. وكل الذين اتصلوا به ، كانوا ينالون من حنانه. بل إنه قال للكنيسة كلها «هوذا على كفى نقشتك» (أش٤٩ : ١٦) . وقال لتلاميذه :

« أما أنتم ، فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة » (مت ١٠ : ٣٠) .

وهكذا نرى من محبة الله للبشرية ، حفظه الدائم لها ، وعنايته الدائمة لها . وهكذا يقول المرتل فى المزمور: «لولا أن الرب كان معنا حين قام الناس علينا . لابتلعونا ونحن أحياء» «نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين . الفخ انكسر ونحن نجونا . عوننا من عند الرب الذى صنع السماء والأرض» (مز١٢٤) .

ويركز العناية فى الله وحده فيقول «إن لم يبنِ الرب البيت، فباطلاً يتعب

البناؤون. وإن لم يحرس الرب المدينة، فباطلاً يسهر الحارس» (مز١٢٧).

ويطمئن المرتل نفسه من واقع اختباراته مع الله ومحبته، فيقول «الرب عونى، فلا أخشى ماذا يصنع بى الإنسان. الرب لى معين، وأنا أرى بأعدائى» «أحاطوا بى احتياطاً واكتنفونى، وباسم الرب قهرتهم» «دُفعت لأسقط والرب عضدنى. قوتى وتسبحتى هو الرب، وقد صار لى خلاصاً» (مز١١٨).

* * *

ما أكثر ما فى المزامير من أناشيد عن معونة الله ورعايته ومحبته. وما أكثر خبرات داود وخبرات القديسين.

اختبر داود معونة الله أمام جليات الجبار. لذلك قال له مسبقاً «أنت تأتى إلىّ بسيف وبرمح وبترس، وأنا آتى إليك باسم رب الجنود» وقال له أيضاً «لأن الحرب للرب» (١صم١٧: ٤٥: ٤٧). واختبر داود كذلك حفظ الله له فى كل مؤامرات شاول الملك ضده.

الثلاثة فتية اختبروا محبة الله وحفظه، حينما ألقوهم فى أتون النار (دا٣). واختبر دانيال محبة الله وحفظه، حينما ألقوه فى جب الأسود. كذلك أيضاً محبة الله وحفظه بطرس الرسول وهو فى السجن (أع١٢). واختبرها بولس الرسول فى سجن فيلبى (أع١٦). وأيضاً حينما قال له الرب «أنا معك، ولا يقع بك أحد ليؤذيك» (أع١٨: ١٠). واختبرها يعقوب أبو الآباء حينما قال له الرب «ها أنا معك، واحفظك حيثما تذهب، وأردك إلى هذه الأرض» (تك٢٨: ١٥).

* * *

وقصص محبة الله وعنايته بأولاده، لا تدخل تحت حصر، سواء فى الكتاب المقدس أو فى تاريخ الكنيسة.

مجرد هذه النقطة وحدها فى موضوعنا، لو أننا استفضنا فى الحديث عنها، لاحتاجت إلى كتاب خاص. على أن محبة الله وعنايته، لم تشمل القديسين فقط، إنما كانت تشمل الكل كما ذكرنا. ومعجزات الشفاء واخراج الشياطين التى أجراها الرب، كانت للأمم أيضاً وليست فقط لأبناء ابراهيم.

والله فى أعمال محبته وحنانه، لم يضع أمامه على الدوام مبدأ المستحقين وغير المستحقين...

* * *

لو كان الله لا يعتنى إلا بالقديسين فقط، ولا يحب سواهم، هلكنا جميعاً...!

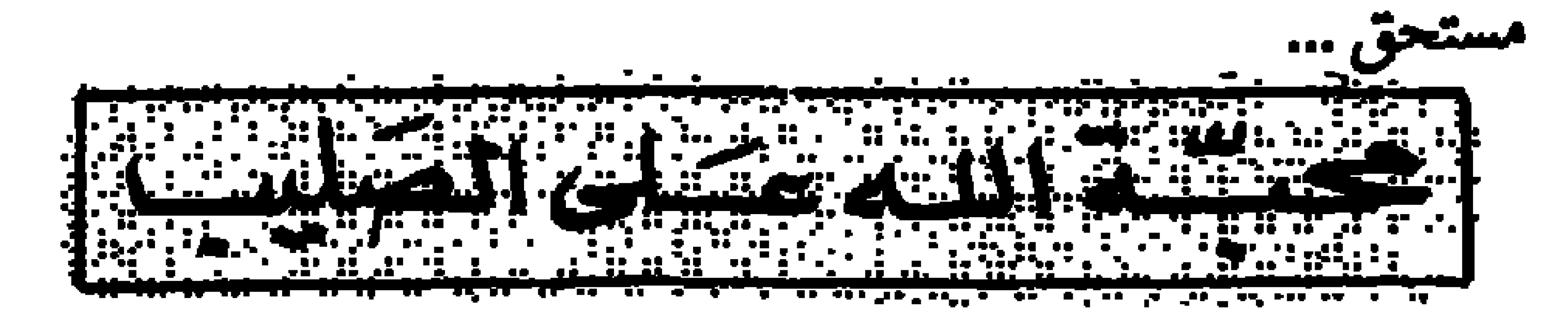
صدقونى، لو أن الله أمسك فى يده هذا الميزان، ميزان الاستحقاق، وأعطى فقط من يستحق، لما وجد من يستحق... فكلنا خطاة. «وكلنا كغنم ضللنا، ملنا كل واحد إلى طريقه» (أش٥٣: ٦). فلو كان الله يعطى المستحقين فقط، ما أعطى «الجميع زاغوا وفسدوا وأعوزهم مجد الله. ليس من يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد» (مز١٤).

وقد علمنا أن نفعل هكذا مثله، فقال «إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا» «أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم و يطردونكم، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات» (مت ٥: ٤٤- ٤٦).

* * *

وهذا المبدأ الإلهى، علمه الرب حتى للطبيعة.

تأملوا زنابق الحقل، الورود والزهور: إنها لا تعطى رائحتها الزكية للأبرار فقط وللمستحقين، بل للكل.. الكل يستنشق عبيرها، حتى للأشرار... إنها تعطى من رائحتها لكل أحد، حتى للذى يقطفها و يفركها بيده، تظل رائحتها- حتى بعد أن تلفظ أنفاسها- لاصقة بيده. كذلك الشمس تعطى من حرارتها وضوئها لكل أحد، والشجرة تعطى من ظلالها لكل أحد، والينبوع يعطى من مائه لكل أحد. ولا تفريق بين مستحق وغير مستحق...



محبة الله على الصليب

إن الله قد أحبنا ونحن بعد خطاة. وفدانا بدمه، ونحن أموات بالخطايا (رو٥: ٨) (أف ٢: ٤، ٥).

تُرى من فينا كان مستحقاً لدمه الكريم؟!

لذلك فأنا فى كل مرة أتناول من السرائر المقدسة ، أقول فى صلاتى « ليس يارب من أجل استحقاقى ، إنما من أجل احتياجى » . وعلّمت هذه الصلاة لكثيرين ...

إن الله يعطى غير المستحقين ، على الأقل لثلاثة أسباب : أولاً لأن من طبيعته الحب والعطاء . وثانياً من أجل احتياجهم . وثالثاً ، لعله بالحب يجذبهم إليه . فتؤثر فيهم محبته ، على الرغم من عدم استحقاقهم .

الرب يهتم بكل أحد ، وفى كل وقت ...

* * *

حتى وهو على الصليب ، كان يهتم بغيره ، ويعطى .

تصوروا وهو متعب جسدياً إلى أقصى حد ، وقد مزقت السياط جسده ، والشوك أنزف الدم منه ، مع الإرهاق الزائد ، من الجلد وحمل الصليب ودق المسامير فى يديه ورجليه ... مع كل ذلك فى عمق محبته ، يفكر فى صالبيه ، ويطلب لهم المغفرة ، ويقدم عنهم عذراً ، ويقول فى محبة عجيبة فوق الوصف :

« **يا أبتاه اغفر لهم ، لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون** » (لو٢٣: ٣٤) . إن آلامه التى لا تطاق ، لم تمنع محبته من التفكير فى صالبيه وطلب المغفرة لهم ، بل من أجل هذه المغفرة ، قد أسلم ذاته للصلب .

وبنفس الحب - وهو على الصليب - منح اللص التائب وعداً بأن يكون معه فى الفردوس فى نفس اليوم ... (لو٢٣ : ٤٣) . وهكذا أراح نفس هذا اللص ، قبل أن يلفظ اللص أنفاسه .

وبنفس الحب ، وبنوع آخر ، فكرّ فى أمه العذراء القديسة ، وفى ايوائها والعناية بها ، فكلّف بذلك تلميذه يوحنا الحبيب «ومن تلك الساعة ، أخذها التلميذ إلى خاصته» (يو١٩: ٢٧) .

كان بمحبته لا يفكر فى ذاته ، وإنما فى راحة غيره . فالمحبة لا تطلب ما لنفسها (١كو١٣: ٥) . بل تنكر ذاتها .

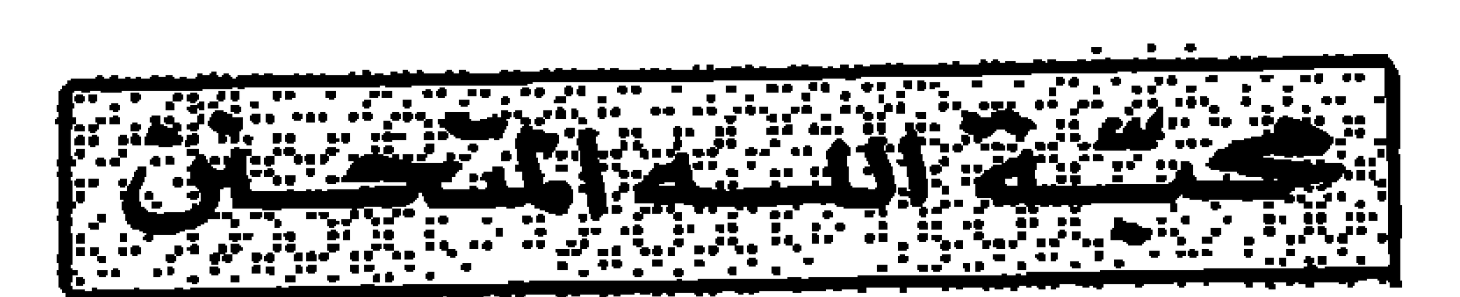
ليس غريباً إذن أن المهاتما غاندى ، الزعيم الروحى للهند - كما ذكر المؤرخ فيشر عنه - لما زار فرنسا ، ورأى أيقونة المسيح المصلوب ، بكى ...

كان الناس يرون المسيح من قبل ، محبة تتحرك على الأرض . وظلت المحبة فيه تتحرك بأكثر شدة على الصليب، حتى عندما كان جسده بلا حركة مسمراً بالمسامير.

بل فى الطريق إلى الصليب أيضاً ، كانت محبته أيضاً تعمل من أجل الغير، المستحقين وغير المستحقين...

فقد تحنن على ملخس عبد رئيس الكهنة ، لما استل بطرس سيفه ، وضربه فقطع أذنه... أمر بطرس بأن يرد سيفه إلى غمده. أما عن العبد، فإن الرب «لمس أذنه وأبرأها» (لو٢٢: ٥٠، ٥١).

أما عن تلاميذه، الذين خافوا فى وقت القبض عليه، فقال عنهم لمن جاءوا يقبضون عليه «أنا هو. إن كنتم تطلبوننى، فدعوا هؤلاء يذهبون» (يو١٨: ٨). وهكذا سهّل لهم الهرب فى سلام.



محبة الله لنا ، محبة مملوءة عاطفة .

لعل من أعمق مظاهرها ، تلك العبارة المؤثرة التى قيلت فى معجزة إقامة لعازر من الموت، أعنى قول البشير «بكى يسوع» (يو١١: ٣٥). إنها كلمة تدل على عمق المشاعر، عمق الحنان، عمق القلب...

وتكرر نفس التعبير بالنسبة إلى أورشليم التى كان ينتظرها الخراب بعد سنوات. وقد قيل فى ذلك «وفيما هو يقترب من المدينة بكى عليها» وقال «ستأتى أيام ويحيط بك أعداؤك... ويحاصرونك من كل جهة، و يهدمونك وبنيك فيكِ ولا يتركون فيك حجراً على حجر» (لو١٩: ٤١- ٤٤).

* * *

ومثل عبارة (بكى) فى إظهار محبة الرب لأولاده، كذلك عبارة (تحنن).

ومن أجل مواقفها قول الإنجيل «ولما رأى الجموع تحنن عليهم، إذ كانوا منزعجين ومنطرحين، كغنم لا راعى لها» (مت٩: ٣٦). لذلك قال لتلاميذه من أجلهم

« أطلبوا إلى رب الحصاد أن يرسل فعلة لحصاده » ...

ويكرر معلمنا متى البشير هذه العبارة فى شفاء المرضى ، وفيقول عن الرب إنه « تحنن عليهم وشفى مرضاهم » (مت ١٤: ١٤) . إذن كانت معجزات الشفاء ناتجة عن حنان قلب وحب . وهكذا يقول أيضاً فى شفاء الأعميين « فتحنن يسوع ولمس أعينهما . فللوقت أبصرت أعينهما فتبعاه» (مت ٢٠ : ٣٤) . وفى إقامة ابن أرملة نايين ـ وكانت أمه تبكى ، وهو وحيد أمه « فلما رآها الرب تحنن عليها ، وقال لها لا تبكى » وأقام الشاب « ودفعه إلى أمه » (لو٧: ١٢ـ ١٥) .

* * *

حاولوا يا أخوتى أن تتبعوا كلمة (تحنن) فى معاملات الرب . بل فى العهد القديم وردت كثيراً عبارة « الرب حنان ورحيم » (مز١١١ : ٤) (مز١٤٥ : ٨)... وكما يقول عنه نحميا إنه « إله غفور، حنان ورحيم ، طويل الروح » (نح ٩: ١٧) ويقول عن مغفرته للشعب وعدم إفنائهم على الرغم من صلابة رقابهم « ولكن لأجل مراحمك الكثيرة لم تفنهم ولم تتركهم ، لأنك إله حنان ورحيم » (نح ٩ : ٣١) .

* * *

من محبة الله لنا أيضاً أنه ينادينا بأسمائنا .

فيقول « أعرف خاصتى ، وخاصتى تعرفنى » « خرافى تسمع صوتى، وأنا أعرفها فتتبعنى ، ويقول أيضاً إن « الخراف تسمع صوته ، فيدعو خرافه الخاصة بأسماء ويخرجها » (يو١٠) .

جميل أن الله يعرف كل منا باسمه ، ويناديه باسمه ويقول لتلاميذه « افرحوا بالحرى أن أسماءكم كُتبت فى السموات » (لو ١٠: ٢٠) .

وجميل أيضاً أننا نرى فى الكتاب سفراً اسمه سفر العدد ، فيه يحصى الله أولاده ويكتبهم باسمائهم . كذلك فى سفر أخبار الأيام نراه يكتب الأسباط وتفرعاتها بالأسماء (١أى ١ـ ٩) ... ليس أحد غائباً أمامه . وإن غاب أحد يبحث عنه حتى يجده ، ويحمله على منكبيه فرحاً (لو١٥ : ٥) .

* * *

ومن محبة الله لنا ، أنه جعلنا واحداً معه .

فيقول «اثبتوا فىّ وأنا فيكم » (يو١٥: ٤) كما يثبت الغصن فى الكرمة. ويقول للآب «أنت أيها الآب فىّ، وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» (يو١٧: ٢١). ويقول أيضاً «أنا فيهم، وأنت فىّ، ليكونوا مكملين إلى واحد» (يو١٧: ٢٣).

* * *

ومن محبته أنه اعتبرنا كشخصه.

فلما اضطهد شاول الطرسوسى الكنيسة، قال له الرب «لماذا تضطهدنى؟» (أع٩: ٤). وعن الفقراء قال «مهما فعلتموه بأحد أخوتى هؤلاء الصغار، فبى قد فعلتم» (مت ٢٥: ٤٠). لذلك قال عنهم «كنت جوعاناً فأطعمتمونى» (مت ٢٥: ٣٥). وقال «من يقبلكم يقبلنى» (مت ١٠: ٤٠).

* * *

ومن محبة الله أيضاً الدالة العجيبة بينه وبين أولاده.

ومن أمثلتها أنه قبل أن يحرق سادوم «قال الرب هل أخفى عن عبدى ابراهيم ما أنا فاعله؟!» وأخبره بما سيفعله، وقبل أن يدخل ابراهيم معه فى حوار، حتى أن يقول له «حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر، أن تميت البار مع الأثيم... أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً؟!» (تك١٨: ١٧، ٢٥).

ونفس الوضع مع موسى، إذ قال له بعد أن عبد الشعب العجل الذهبى «الآن أتركنى ليحمى غضبى عليهم فأفنيهم» ولم يتركه موسى، بل حاوره فى الأمر، وقال له ارجع يارب عن حمو غضبك واندم على الشر» وقبل شفاعته (خر٣٢: ٩- ١٤).

* * *

وإلى جوار هذه الدالة، دفاعه أيضاً عنهم.

فقد دافع عن يوحنا المعمدان فقال: «ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا؟ أإنساناً لابساً ثياباً ناعمة؟! هوذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم فى بيوت الملوك... أنبياً؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبى... الحق أقول لكم لم يقم من بين المولودين من النساء من هو أعظم من يوحنا المعمدان...» (مت ١١: ٨- ١١).

ودافع عن موسى النبى لما تقوّل عليه هرون ومريم بعد زواجه من إمرأة

كوشية . فوبخهما الرب قائلاً «إن كان منكم نبى للرب، فبالرؤيا أستعلن له . فى الحلم أكلّمه . وأما عبدى موسى فليس هكذا، بل هو أمين فى كل بيتى . فماً لفم وعياناً أتكلم معه، لا بالألغاز. وشبه الرب يعاين . فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدى موسى ؟!» (عد ١٢: ٦- ٨) . وضرب الرب مريم بالبرص، فحجزت خارج المحلة سبعة أيام...

* * *

ودافع عن ابراهيم، لما أخذ أبيمالك الملك زوجته .

فظهر له فى حلم وقال له «ها أنت ميت بسبب المرأة التى أخذتها، فإنها متزوجة ببعل... فالآن رُدّ إمرأة الرجل، فإنه نبى فيصلى لأجلك فتحيا» (تك ٢٠: ٣، ٧) .

* * *

ودافع عن أيوب الصديق ضد أصحابه الثلاثة .

فقال لأليفاز التيمانى «قد احتمى غضبى عليك وعلى كلا صاحبيك، لأنكم لم تقولوا فىّ الصواب كعبدى أيوب . والآن فخذوا لأنفسكم سبعة ثيران وسبعة كباش . واذهبوا إلى عبدى أيوب، وأصعدوا محرقة لأجل أنفسكم . وعبدى أيوب يصلى من أجلكم- لأنى أرفع وجهه- لئلا أصنع معكم حسب حماقتكم . لأنكم لم تقولوا فىّ الصواب كعبدى أيوب..» (أى ٤٢: ٧، ٨) .

بل دافع الرب عن أيوب لما اشتكى عليه الشيطان .

وقال له «هل جعلت قلبك على عبدى أيوب؟ لأنه ليس مثله فى الأرض، رجل كامل ومستقيم، يتقى الله، ويحيد عن الشر، وإلى الآن هو متمسك بكماله..» (أى ٢: ٣) .

* * *

وأمثلة دفاع الرب عن أولاده كثيرة جداً .

دافع عن الشعب فى مصر ضد فرعون . ودافع عنهم فى أيام القضاة، ودافع عن دانيال والثلاثة فتية فى سنوات السبى . ودافع عن تلاميذه ضد كل اتهامات الكتبة والفريسين، وقال لبولس «لا تخف.... لأنى أنا معك، ولا يقع بك أحد ليؤذيك» (أع ١٨: ٩، ١٠) . ودافع عن الكنيسة فى كل زمان، ووعد بأن أبواب الجحيم لن

تقوى عليها (مت ١٦ : ١٨) .

* * *

والأعجب من هذا كله دفاع الرب عن الخطاة .

دافع عن المرأة الخاطئة التى بللت قدميه بدموعها فى بيت سمعان الفريسى . ووبخ الفريسى الذى أدانها . وأراه أن تلك الخاطئة كانت أبرّ منه، لأنها أحبت كثيراً (لو٧ : ٣٦- ٤٧) بينما كانت تلك المسكينة صامتة لا تملك الدفاع عن نفسها ...

* * *

ودافع أيضاً عن المرأة التى ضبطت فى ذات الفعل .

وقال للقساة الذين قدموها إلى حكم الموت « من كان منكم بلا خطية، فليرمها أولاً بحجر» (يو٨: ٧) . ولما أراح المرأة من الذين أدانوها، إذ انصرف الجميع، قال للمرأة « ولا أنا أدينك . اذهبى ولا تخطئى أيضاً » ...

* * *

كذلك المرأة التى سكبت عليه الطيب فى الأسبوع الأخير :

لما تنمر عليها البعض وقالوا « لماذا هذا الإتلاف ؟! لأنه كان يمكن أن يباع هذا الطيب بكثير ويعطى للفقراء ! » فدافع الرب عن هذه المرأة وقال « لماذا تزعجون المرأة ؟! فإنها قد عملت بى عملاً حسناً . فإن الفقراء معكم فى كل حين ... فإنها سكبت هذا الطيب على جسدى ... لأجل تكفينى » (مت ٢٦ : ٦- ١٢) . ولم يدافع عن المرأة فقط، وإنما طوبها أيضاً بقوله « الحق أقول لكم حيثما يكرز بهذا الإنجيل فى كل العالم، يُخبر أيضاً بما فعلته هذه تذكاراً لها » ... حقاً إن الرب فى محبته يرفع وجوه المساكين ...

محبة الله الغفور

ومن محبة الرب لنا، أنه منحنا التوبة للمغفرة .

تظهر محبته هذه فى قول الرسول إن الله « يريد أن جميع الناس يخلصون، وإلى معرفة الحق يقبلون » (١تى ٢ : ٤) . بل إن السيد الرب نفسه يقول فى سفر حزقيال النبى، إنه لا يسرّ بموت الشرير، بل برجوعه عن طرقه فيحيا (حز١٨ : ٢٣) . لذلك منحنا الله التوبة للحياة (أع ١١ : ١٨) .

حقاً من محبة الله أنه لم ينهِ حياتنا ونحن فى خطايانا .

وإنما رأى وصبر ، وأطال أناته علينا لكى نتوب وإنما « بغنى لطفه ، وإمهاله وطول أناته » إنما يقتادنا إلى التوبة (رو٢: ٤)... كان يمكن أن يمسك بشاول الطرسوسى وهو يضطهد الكنيسة ، و يلقى به فى الجحيم !! ولكنه أطال أناته عليه حتى تحول إلى القديس بولس الرسول ، الاناء المختار ، الذى تعب أكثر من جميع الرسل (١كو١٥: ١٠).

* * *

بل إن ضلّ أحد يذهب و يبحث عنه ليرجعه ...

كما هو واضح من قصة الخروف الضال والدرهم المفقود . و يحث الرب عن الخطاة يتضح من قوله : « أنا واقف على الباب واقرع . إن فتح أحد لى ، أدخل وأتعشى معه » (رؤ٣: ٢٠). بل إن الرب من محبته أرسل الرسل والأنبياء ، كسفراء عنه ، وأعطاهم خدمة المصالحة ، لكى ينادوا أن « اصطلحوا مع الله » (٢كو٥ : ١٨: ٢٠) . بل أنه يمد يده طول النهار لشعب معاند ومقاوم (رو١٠: ٢١) .

ومن محبته يدعو الناس ، لكى يتوبوا فيغفر لهم و يقول « هلم نتحاجج -يقول الرب- إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج ... » (أش ١: ١٨) .

ومن محبة الله أنه يفرح بالراجعين إليه .

لا يعاتبهم ، بل يفرح بهم . كما قال فى عودة الابن الضال « ينبغى أن نفرح ونسرّ لأن ابنى هذا كان ميتاً فعاش ، وكان ضالاً فوجد » (لو١٥: ٢٤ ، ٣٢) . وهكذا لما وجد خروفه الضال « حمله على منكبيه فرحاً » (لو١٥: ٥) . بل تفرح الملائكة أيضاً معه . وهكذا يقول الكتاب إنه « يكون فرح قدام ملائكة الله بخاطىء واحد يتوب » (لو١٥: ١٠) .

* * *

والرب فى قبوله للخطاه ، يكون فى محبته عميق المغفرة .

تغنى داود النبى بهذه المغفرة فقال « باركى يا نفسى الرب ، ولا تنسى كل حسناته ، الذى يغفر جميع ذنوبك... الرب رحيم ورؤوف ، طويل الروح ، وكثير الرحمة . لا يحاكم إلى الأبد ، ولا يحقد إلى الدهر. لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم

يجازنا حسب آثامنا . لأنه مثل ارتفاع السموات فوق الأرض، قويت رحمته على خائفيه . كبعد المشرق عن المغرب، أبعد عنا معاصينا... لأنه يعرف جبلتنا يذكر أننا تراب نحن» (مز١٠٣) .

* * *

ومن محبة الله ، فإنه فى مغفرته لخطايانا ، يمحوها ولا يعود يذكرها .

وهكذا يقول فى سفر ارمياء النبى «لأنى أصفح عن إثمهم، ولا أذكر خطيئتهم بعد» (أر٣١ : ٣٤) .

ويقول فى سفر حزقيال النبى عن الشرير التائب «كل معاصيه التى فعلها، لا تذكر عليه» (خر١٨ : ٢٢) (حز٣٣ : ١٦) . ويقول بولس الرسول «إن الله - فى المسيح - كان مصالحاً العالم لنفسه ، غير حاسب لهم خطاياهم» (٢كو٥ : ١٩) .

ويتغنى المرتل فى المزمور بهذه المغفرة التى تمحى فيها الخطايا ، فيقول «طوبى للذى غُفر إثمه وسترت خطيته . طوبى للإنسان الذى لا يحسب له الرب خطية» (مز٣٢ : ١، ٢) . وقد اقتبس بولس الرسول هذا التطويب (رو٤ : ٧، ٨) .

بل أحس داود بعمق مغفرة الله فى محبته فقال :

ما أعظم هذه المحبة التى تغسل الخاطىء من خطيته ، فيبيض أكثر من الثلج ...

* * *

بل أكثر من هذا كله ، فإن الله - لكى يغفر خطايانا - حملها بدلاً منا .

وكما قال أشعياء النبى « كلنا كغنم ضللنا . ملنا كل واحد إلى طريقه . والرب وضع عليه إثم جميعنا» (أش٥٣ : ٦) . وقال عنه يوحنا المعمدان «هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم» (يو١ : ٢٩)... وهكذا دفع ثمن خطايانا على الصليب . ومات عنا، لكى نحيا نحن بموته... وهكذا قال القديس بولس الرسول إن «الله بيّن محبته لنا ، لأنه ونحن بعد خطاة ، مات المسيح لأجلنا» (رو٥ : ٨) .

* * *

إذن المسيح - بالفداء - كان على الصليب ذبيحة حب .

إن عمل الكفارة والفداء ، كان عملاً يدل على عمق محبة الله لنا «هكذا أحب

الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد. لكى لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣: ١٦). وهكذا يقول القديس يوحنا الرسول عن المحبة بيننا وبين الله «ليس أننا نحن أحببنا الله. بل أنه هو أحبنا، وأرسل ابنه كفارة عن خطايانا» (١يو٤: ١٠). لهذا نقول:

* * *

قبل أن يصلب اليهود المسيح، صلبته محبته للبشر.

هو صعد على الصليب بارادته، دفعته إلى ذلك محبته للبشر ورغبته فى خلاصهم. لقد قال عن نفسه «أضع نفسى لآخذها. ليس أحد يأخذها منى، بل أضعها أنا من ذاتى. لى سلطان أن أضعها، وسلطان أن آخذها أيضاً» (يو١٠: ١٧، ١٨).

إذن عقيدة الفداء، التى هى أعظم عقائد المسيحية، كان أساسها الحب وسببها الحب، حب الله للناس...

* * *

الحب هو الذى سمّر المسيح على الصليب.

لقد تحدوه قائلين «لوكنت ابن الله، انزل من على الصليب، فنؤمن بك» (مت٢٧: ٤٠، ٤٢). وكان يستطيع أن ينزل، ولكنه لم يفعل. لأن محبته هى التى كانت تسمره على الصليب، وليس المسامير... إنها المحبة التى أشار إليها بقوله:

«ليس حب أعظم من هذا: أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو١٥: ١٣).

* * *

بل هو قد وضع نفسه عن المسيئين إليه، عن الخطاة الذين كسروا وصاياه. وهكذا يقول بولس الرسول «إنه بالجهد يموت أحد عن بار... ولكن الله بين محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة، مات المسيح لأجلنا» «مات فى الوقت المعين لأجل الفجار» (رو٥: ٧، ٨، ٦).

ولكن لكى يموت، كان لابد أن يلبس جسداً قابلاً للموت. وهكذا نقول:

إن محبة الله للبشر، هى سبب التجسد.

من أجلنا ، ومن أجل خلاصنا «أخلى ذاته ، وأخذ شكل العبد، وصار فى الهيئة كإنسان ... وأطاع حتى الموت ، موت الصليب» (فى ٢ : ٧ ، ٨).

من أجلنا ، وبسبب محبته ، قبل الآلام ، وتعرض للإهانات، ليس عن ضعف، وإنما عن قوة حب، لكى يدفع ثمن خطايانا.

اهتمام الله بالمحتاجين إلى الحب

لقد اهتم الله بالكل، وبخاصة أولئك الذين لم يكن أحد يهتم بهم. فأولاهم حباً كانوا فى مسيس الحاجة إليه. ومنح حبه للمظلومين والمقهورين، وقال للتعابى:

« تعالوا إلىَّ يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال ، وأنا أريحكم» (مت ١١ : ٢٨).

وكانت هذه النقطة هى من أبرز خواص رسالة السيد المسيح له المجد. وقال فى ذلك «روح السيد الرب علىَّ، لأنه مسحنى لأ بشر المساكين. أرسلنى لأعصب منكسرى القلب. لأنادى للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالإطلاق... لأعزى جميع النائحين... لأعطيهم جمالاً عوضاً عن الرماد، ودهن فرح عوضاً عن النوح، ورداء تسبيح عوضاً عن الروح اليائسة» (أش ٦١: ١ـ ٣).

نعم ، إنه رجاء لمن ليس له رجاء ...

ومعين من ليس له معين ـ كما نقول فى صلوات القداس الإلهى ـ عزاء صغيرى القلوب، وميناء الذين فى العاصف... وهكذا كان يعطى الحب للذين لا يجدون حباً من أحد. وكان يذكر الذين ليس لهم أحد يذكرهم. وهو باستمرار الباب المفتوح، حينما تكون سائر الأ بواب مغلقة. وسنضرب بعض أمثلة:

* * *

الحب الذى قدمه الرب للعشارين المحتقرين من الناس.

كان العشارون منبوذين من المجتمع اليهودى ، يرونهم عنواناً للظلم والبعد عن الروحانية. ولكن الله المحب أراد أن يرد لهم اعتبارهم، ويعيد إليهم كرامتهم، وبخاصة أمام الفريسيين المشهورين بالتدقيق فى حفظ الوصايا. فذكر مثل الفريسى

والعشار. وكيف أن العشار فى توبته وانسحاق قلبه، كان أفضل من الفريسى فى كبريائه وافتخاره. وكيف أن العشار خرج من الهيكل مبرراً دون ذاك (لو١٨: ٩-١٤).

وكان يحضر ولائم العشارين، ويدخل بيوتهم. وبهذا يرفع من معنوياتهم ويجذبهم إليه.

وما كان يبالى بانتقاد الفريسيين والكتبة له (لو١٥: ٢). حتى أنهم قالوا لتلاميذه «لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة؟!». أما هو فكان يجيب «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى... لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة» (مت٩: ١١-١٣). وكان يقول أيضاً «يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب، أكثر من تسعة وتسعين لا يحتاجون إلى توبة» (لو١٥: ٧).

* * *

حقاً ما أعمق اهتمام المسيح بالخطاة والمرضى.

إنه ما كان يتعالى عليهم أو يحتقرهم، كما كان يفعل الفريسيون، بل كان يدخل إلى بيوتهم، كما دخل إلى بيت زكا رئيس العشارين، حتى تذمر الجمع قائلين إنه دخل ليبيت عند رجل خاطىء (لو١٩: ٧). أما السيد فقد منح زكا الحب الذى تاب به. وقال: اليوم حصل خلاص لأهل هذا البيت، إذ هو أيضاً ابن ابراهيم» بل قال إنه:

«قد جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك» (لو ١٩: ١٠).

عميقة جداً هذه العبارة ... لم يقل يخلص من قد ضل أو أخطأ، بل ما قد هلك..! إذن فحتى الهالك له رجاء، وله مكان فى محبة الله يمكن به أن يخلص. وليس فقط يخلص، بل أن الرب قد اختار أحد هؤلاء العشارين، ليكون واحداً من تلاميذه الإثنى عشر، وهو متى الذى كان جالساً عند مكان الجباية (مت٩: ٩).

* * *

أى حب هذا، هو حب الرب الذى قيل عنه:

«المقيم المسكين من التراب، والرافع البائس من المزبلة، ليجلسه مع أشراف شعبه» (مز١١٣: ٧، ٨).

هذا هو تعامل الرب المملوء حباً والمملوء اتضاعاً، مع المساكين والمحتقرين، مع الخطاة والعشارين، المنبوذين من المجتمع. أعطاهم فوق ما كانوا ينتظرونه منه بمراحل... لقد أذاب قلوبهم بهذا الحب... زكا مثلاً، كانت أقصى أمنيته أن يراه. أما أن يقف الرب عنده، و يناديه باسمه، و يدخل إلى بيته، و يعلن أنه أيضاً من أبناء ابراهيم... فقد كان هذا فوق احتماله... فأعلن توبته، وأعلن الرب خلاصه...

* * *

طائفة أخرى هي السامريون، وكان المجتمع اليهودى لا يعاملونهم (يو٤: ٩). وكيف عاملهم الرب بحب...

كان اليهود يحتقرونهم، و يرون أنهم غير مؤمنين. وفعلاً لم يكن إيمانهم سليماً... ولكن حتى هؤلاء، ما كانت محبة الرب بعيدة عنهم، ولا كان خلاصه مغلقاً أمامهم. وإذا بالرب يشرح مثل السامرى الصالح، الذى أظهر فيه كيف أن ذلك السامرى كان أفضل فى حبه من الكاهن واللاوى (لو١٠: ٢٥- ٣٧). وردّ بهذا المثل على سؤال أحد الناموسيين «من هو قريبى» فأظهر له أن السامرى أيضاً قريبه.

وفى معجزة شفاء العشرة البرص، أظهر أن الوحيد الذى رجع فشكر كان سامرياً... وقال لهذا الرجل «الغريب الجنس» «إيمانك خلصك» (لو١٧: ١٢- ١٩).

إن محبة الله تشمل أيضاً «الغريب الجنس»، وترفع معنوياته، وتفتح له باب الإيمان والخلاص.

ولم يكتفِ الرب بهذا من جهة السامريين، بل زارهم ودخل مدينتهم. ومعروفة قصة هدايته للمرأة السامرية، وحديثه معها عن الماء الحى، واجتذابها إلى التوبة وإلى الإيمان... ثم بعد ذلك أهل مدينتها كلهم «جاء إليه السامريون وسألوه أن يمكث عندهم. فمكث هناك يومين» وآمن به كثيرون وقالوا «إن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم» (يو٤: ٥- ٤٢).

إنه بالحب قد خلص كثيرين من السامرة.

وقال لتلاميذه «ارفعوا عيونكم وأنظروا الحقول: إنها قد أبيضت للحصاد... أنا

أرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه» (يو٤: ٣٥، ٣٨). وهكذا لم ينسَ الرب السامرة فى ارساليته لتلاميذه، بل قال لهم بعد القيامة «وتكونون لى شهوداً فى أورشليم، وفى كل اليهودية، والسامرة، وإلى أقصى الأرض» (أع ١: ٨).

* * *

جيل أن يعرف كل إنسان أنه ليس منسياً من الله، ولو كان فى أقصى الأرض. وهذا يذكرنا بالأمم.

كان الأمم أيضاً محتقرين من اليهود، لأنهم ليسوا أبناء لا براهيم، وليسوا من شعب الله !! ولكن الرب أظهر محبته لهم أيضاً، من جهة المعجزات، والإيمان...

يكفى أنه بالنسبة إلى قائد المائة الأعمى الذى شفى الرب غلامه، أنه قال عنه: الحق أقول لكم:

« لم أجد ولا فى إسرائيل كلها إيماناً بمقدار هذا» (مت ٨: ١٠).

ثم فتح بمحبته باب الملكوت أمام الأمم وقال: «إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب، و يتكئون مع ابراهيم واسحق و يعقوب فى ملكوت السموات» (مت ٨: ١١).

* * *

كذلك نذكر محبة الرب للأطفال ...

هؤلاء لم تكن لهم قيمة فى المجتمع، بل للأسف كانوا يطردونهم أحياناً من حضرة المسيح. ولكنه فى حب قال لهم «دعوا الأولاد يأتون إلىّ ولا تمنعونهم. لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات» (مت ١٩: ١٤). ووضع يديه عليهم و باركهم.

وفى مناسبة أخرى دعا ولداً وأقامه فى وسط التلاميذ وقال «الحق أقول لكم: إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد، فلن تدخلوا ملكوت السموات» (مت ١٨: ٣). وحامى عن هؤلاء الصغار، فقال «من أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى، فخير له أن يعلق فى عنقه حجر الرحى و يغرق فى لجة البحر» (مت ١٨: ٦).

والرب احتضن الأطفال، ووضع يديه عليهم، وباركهم (مر١٠: ١٦) (مر٩: ٣٦).

وكما رفع معنويات الأطفال ، رفع معنويات النساء .

سمح للمرأة أن تنضم إلى جماعة تلاميذه . ونسوة كثيرات كن يخدمنه من أموالهن (لو ٨: ٣) . وكان من بين من أقامهم من الأموات ابنة يايرس (لو٨: ٥٤، ٥٥) . وقد شفى نازفة الدم، وقال لها إيمانك قد شفاكِ (لو٨: ٤٨) . وكان يدخل بيت مريم ومرثا . وامتدح مريم قائلاً إنها «اختارت النصيب الصالح الذى لن ينزع منها» (لو١٠: ٤٢) .

* * *

وتكفى المكانة العظيمة التى قدمها للقديسة العذراء .

التى أصبحت جميع الأجيال تطوبها . ولما وصل سلامها إلى أليصابات امتلأت اليصابات من الروح القدس . وارتكض الجنين فى بطنها (لو ١: ٤٨، ٤١) . وخاطب السيد المسيح أمه على الصليب وجعلها أماً روحية لتلميذه يوحنا (يو١٩: ٢٦، ٢٧) .

وبعد القيامة قيل إنه « ظهر أولاً لمريم المجدلية » (مر ١٦ : ٩) . وقال لها ولمريم الأخرى «اذهبا بسلام وقولا لأخوتى أن يمضوا إلى الجليل ، هناك يروننى» (مت٢٨ : ١٠) .

* * *

ولا ننسى دفاع الرب عن المرأة .

دافع عن المرأة التى ضبطت فى ذات الفعل ، وأنقذها من الرجم (يو٨) . ودافع عن المرأة التى بللت قدميه بدموعها ومسحتهما بشعر رأسها (لو٧) . ودافع عن المرأة التى سكبت الطيب على رأسه فى بيت سمعان الأبرص . ولما احتج البعض قائلين «لماذا هذا الاتلاف . لأنه كان يمكن أن يُباع هذا الطيب بكثير و يعطى للفقراء» قال الرب «لماذا تزعجون المرأة؟! إنها قد عملت بى عملاً حسناً... إنما فعلت ذلك لأجل تكفينى» بل طوبها قائلاً «حيثما يكرز بهذا الإنجيل فى كل العالم ، يخبر أيضاً بما فعلته هذه المرأة تذكاراً لها» (مت٢٦ : ٦- ١٣) .

* * *

الله المحب يستخدم المحبين

نقطة أخرى نقولها فى محبة الله لنا . وهى .

إن الله المحب يختار المحبين للعمل معه فى الخدمة .

لقد اختار داود المحب ، الذى من فرط محبته اشفق على شاه وأنتزعها من فم الأسد لينقذها (١صم١٧ : ٣٤، ٣٥).

وموسى ، لما كان فى بدء حياته قائداً قوياً ، يمكنه أن يقتل رجلاً ويطمره فى الرمل (خر٢: ١٢)... فى ذلك الوقت لم يختره الرب. إنما أخذه ودرّبه فى عمل الرعى أربعين عاماً ، حتى وصل إلى الوضع الذى قيل عنه فيه «وكان الرجل موسى حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض» (عد١٢: ٣).

* * *

واستخدم الرب موسى المملوء من الحب .

الذى دافع عن مريم بعد أن تكلمت ضده . ولما ضربها الرب بالبرص ، دافع عنها موسى «وصرخ موسى إلى الرب قائلاً : اللهم اشفها» (عد١٢: ١٣، ١).

ودافع موسى عن الشعب لما أراد الرب إفناء ذلك الشعب بعد عبادته العجل الذهبى. وإذا بموسى المملوء محبة يتشفع فيهم ويقول لله «لماذا يارب يحمى غضبك على شعبك ؟... ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك» (خر٣٢: ١١، ١٢).

ووصلت المحبة بموسى ، أنه قال للرب : «والآن إن غفرت خطيتهم ، وإلا فامحنى من كتابك الذى كتبت» (خر٣٢: ٣٢).

* * *

ذكرتنى هذه العبارة بقول القديس بولس الرسول :

« كنت أود لو أكون أنا نفسى محروماً من المسيح ، لأجل أخوتى أنسبائى حسب الجسد» (رو٩: ٣).

هذه المحبة العجيبة لم تكن موجودة عند بولس فى أول عهده قبل أن يعرف المسيح ، حينما كان اسمه شاول الطرسوسى، وكان مضطهداً للكنيسة ، وكان «ينفث تهديداً وقتلاً على تلاميذ الرب» «حتى إذا وجد أناساً من الطريق ، رجالاً أو نساء ،

يسوقهم موثقين إلى أورشليم» (أع ٩ : ١، ٢)... «وكان يسطو على الكنيسة. وهو يدخل البيوت، ويجر رجالاً ونساء ويسلمهم إلى السجن» (أع ٨: ٣).

ولكنه لما عرف الرب المحب ... تحول إلى صورة المحبة هذه.

وأصبح بولس الذى قال إن المحبة أعظم من الايمان الذى ينقل الجبال (١كو١٣: ٢، ١٣)... أصبح بولس الذى يقول «استعبدت نفسى للجميع لأربح الكثيرين... صرت للضعفاء كضعيف، لأربح الضعفاء. صرت للكل كل شيء، لأخلص على كل حال قوماً» (١كو٩: ١٩- ٢٢). صار بولس الذى قال «متذكرين أنى ثلاث سنين ليلاً ونهاراً، لم أفتر عن أن أنذر بدموع كل أحد» (أع ٢٠: ٣١)... نعم ينذر بدموع، وليس بعنف. ويقول أيضاً فى محبته للكل «من يضعف وأنا لا أضعف ؟! من يعثر وأنا لا ألتهب ؟!» (٢كو١١: ٢٩).

* * *

نعم إن الرب أعدّ تلاميذه بالحب لكى يخدموا والذين كانوا عنفاء منهم، غيّرهم إلى محبين.

نذكر مثالاً آخر غير شاول الطرسوسى، هو يعقوب ويوحنا، اللذين سماهما الرب بوانرجس أى ابنى الرعد (مر٣: ١٧). وقد كانا عنيفين فى بادىء الأمر قبل أن يدربهما المسيح على المحبة...

حدث مرة أن الرب لم تقبله قرية للسامريين «فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا، قالا: يارب، أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا أيضاً»، فانتهرهما الرب وقال «لستما تعلمان من أى روح أنتما. لأن ابن الإنسان لم يأتِ ليهلك أنفس الناس، بل ليخلص» (لو٩: ٥٢- ٥٦).

وإذا بيوحنا الذى قال تلك العبارة العنيفة، يتحول إلى يوحنا الحبيب أكثر تلميذ تكلم عن المحبة:

يكفى أنه هو الذى قال «الله محبة. من يثبت فى المحبة، يثبت فى الله، والله فيه» (١يو٤: ١٦). ويحكى التاريخ قصصاً عجيبة عن محبته...

إن الله المحب، يريد أن يكون خدامه على نفس صورته فى الحب، وبنفس أسلوبه فى الحب. والذى لا تسكنه المحبة لا يصلح أن يكون خادماً للرب...

أ

الفصل الثانى :

محبة الله لقديسيه

عجيبة هى محبة الله لقديسيه ، نحاول أن نذكر عنها بضع نقاط كأمثلة ، لتوضح عمق ذلك الحب :

أولاً : دعوة الله لهم للعمل معه :

وفى ذلك قال الرب لتلاميذه الأطهار « لستم أنتم اخترتمونى، بل أنا الذى اخترتكم. وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر، ويدوم ثمركم » (يو١٥: ١٦). ويقول الرسول « الذين سبق فعرفهم، سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ... والذين سبق فعينهم، فهؤلاء دعاهم أيضاً » (رو٨: ٢٩، ٣٠).

ما أجمل أن يكون إنسان معروفاً عند الله ، ومعنياً منه ، ومدعواً للعمل معه ، وأن يشابه صورة ابنه ...

* * *

بل ما أجمل أن هذا المختار من الله، يعرفه الله ويدعوه، وهو بعد فى بطن أمه .

مثال ذلك قول الرب لأرمياء النبى « قبلما صورتك فى البطن عرفتك. وقبلما خرجت من الرحم قدستك. جعلتك نبياً للشعوب » (أر١: ٥)... عرفه، فاختاره، فقدسه، فعينه نبياً، قبل أن يخرج من بطن أمه !!

ومثال أرمياء النبى ، يوحنا المعمدان أيضاً : تكلم الرب عن اختياره، قبل أن تحبل به أمه، على لسان الملاك الذى بشر أباه زكريا، بأن إمرأته ستحبل بهذا المختار « ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس. ويرد كثيرين من بنى إسرائيل إلى الرب إلههم ... لكى يهيىء للرب شعباً مستعداً » « ويكون عظيماً أمام الرب » (لو١: ١٥-١٧).

* * *

ومثال أرمياء والمعمدان ، كان شمشون وبولس الرسول :

أما عن شمشون ، فقد قال ملاك الرب الذى بشر أمه « ها أنك تحبلين وتلدين ابناً ، ولا يعلو رأسه موسى ، لأن الصبى يكون نذيراً للرب من البطن » (قض١٣ : ٥).

أما عن بولس الرسول ، فقد تحدث عن اختياره من بطن أمه ، فقال « لما سُر الله الذى أفرزنى من بطن أمى ، ودعانى بنعمته ، أن يعلن ابنه فىّ لأ بشر به بين الأمم ، للوقت لم استشر لحماً ولا دماً ... » (غل ١ : ١٥ ، ١٦) .

كذلك القديس الأنبا شنوده رئيس المتوحدين :

اختاره الرب ، وعينه رئيساً للمتوحدين ، وأباً للرهبان قبل أن تحبل به أمه .

و يعقوب أبو الآباء ، أعطاه الرب الرئاسة والسيادة على أخوته ، وهو بعد فى بطن أمه (تك ٢٥ : ٢٣). و بالتالى اختاره أن يأتى من نسله المسيح ، و بنسله تتبارك جميع قبائل الأ رض .

من محبة الله لكل هؤلاء ، اختارهم لبناء ملكوته .

* * *

وفى محبته لهم أعطاهم بركة ، بل وجعلهم بركة .

كما قال لأ بينا ابراهيم : « أباركك ، وتكون بركة ، وأبارك مباركيك ، ولاعنك ألعنه . وتتبارك فيك جميع قبائل الأ رض » (تك ١٢ : ٢ ، ٣) . حقاً ، كم من قديس صار بركة لجيله أو للأجيال كلها.... وأصبح حاملاً لله (ثيئوفورس) ، يقدمه للعالم . وكم من قديس كشف له الله ما لا يرى ، ومنحه استعلانات (٢كو١٢ : ٧) .

وقديسون منحهم قوة أجراء المعجزات ، مثل موسى الذى شق البحر الأحمر ، وفجّر من الصخرة ماء ، وأنزل المن والسلوى .

* * *

إن الله فى حبه يعطى بلا حساب ، بلا كيل . يفتح كوى السماء لتنزل منها بركاته ، حتى نقول كفانا كفانا .

فى محبته لقديسيه ، أعطاهم الروح القدس ، أعطاهم البركة والنعمة والحب .

وجعل سكناه داخلهم، وأعطاهم صنع المعجزات. منحهم الحكمة. وأعطاهم كل ما يطلبونه لأجل أنفسهم ولأجل الآخرين وكانت صلواتهم مفاتيح للسماء. وكان يأخذ رأيهم و ينفذ طلباتهم، كما فعل مع موسى ومع ابراهيم.

* * *

ومن محبته لقديسيه كان ينسب إليهم أعماله.

فيقول «شريعة موسى» وهى شريعة الرب. و يقال كنيسة مارجرجس وهى كنيسة الله. وتحدث معجزة شفاء على يد العذراء بينما الله هو الشافى، و يقول الرب:

« من يكرمكم يكرمنى » « ومن يرذلكم يرذلنى » .

وبمحبة الله لقديسيه عمل فيهم، وعمل بهم، وعمل معهم، وجعلهم سفراءه، ووكلاءه ووسطاءه على الأرض، ينقلون نعمته للآخرين وقال لهم «لا أعود أسميكم عبيداً بل أحباء». بل أنه دعاهم اخوته وصار بكراً وسط أخوة كثيرين (رو٨: ٢٩).

وقيل عنه إنه « أحب خاصته الذين فى العالم، أحبهم حتى المنتهى» (يو١٣: ١). وفى هذا الحب اعتبرهم كشخصه.

* * *

بل نقرأ عجيبة، قالها فى منحهم صنع المعجزات وهى:

« من يؤمن بى، فالأعمال التى أعملها يعملها هو أيضاً، و يعمل أعظم منها» (يو١٤: ١٢).

إننى أقف مبهوتاً ومبهوراً أمام عبارة «و يعمل أعظم منها» !! أى حب هذا، وأى اتضاع !!...

نعم، إنه من محبته لقديسيه، زودهم بقوى عجيبة. وجعلهم شركاء للروح القدس و«شركاء للطبيعة الإلهية» فى العمل (١بط١: ٤) وقال لهم «ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم» (أع ١: ٨). وجعلهم وكلاء سرائر الله (١كو٤: ١) « التى تشتهى الملائكة أن تطلّع عليها» (١بط١: ١٢).

* * *

ومن محبته لهم منحهم مواهب الروح القدس هذه المواهب التى خصص لها القديس بولس الرسول إصحاحاً كاملاً من رسالته الأولى إلى كورنثوسي (١كو١٢) «قاسماً لكل واحد بمفرده كما يشاء» ...

* * *

ومن محبة الله لقديسيه، أنه جعلهم يجربون عشرته وصداقته.

فموسى جلس معه على الجبل أربعين يوماً. وقضى الرب مع تلاميذه أربعين يوماً بعد القيامة يحدثهم عن الأمور المختصة بملكوت الله. وقيل عن ابراهيم إنه خليل الله. وهؤلاء لم يعاشروه فقط، بل تمتعوا به. قال داود:

« ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب » ما أعجب هذه المذاقة !!

بهذا الحب ظهر الرب لكثير من قديسيه، وكلمهم. كما ظهر للأنبا بيشوى فغسل القديس رجليه. وظهر للأنبا بولا الطموهى، وقال له فى محبة «كفاك تعباً يا حبيبى بولا» ...

وظهر لإيليا النبى وهو هارب من الملكة إيزابل، وطمأنه وكلّفه برسالة ... وكان قد أرسل له ملاكاً ليقويه و يقدم له طعاماً ليغذيه (١مل١٩: ٥-١٨).

وظهر أيضاً ليعقوب وهو هارب من أخيه عيسو، وطمأنه، وعزاه بوعود إلهية. وقال له «هأنذا معك، واحفظك حيثما تذهب، وأردك إلى هذه الأرض» (تك٢٨: ١٥).

* * *

إن من محبةالله لقديسيه، العزاء العجيب الذى يمنحه لهم.

كل الذين عاشرواالله، تمتعوا بالعزاء، وبالسلام، والطمأنينة، والفرح. وهكذا قال الرسول «افرحوا فى الرب كل حين» (فى ٤: ٤).

وبهذا العزاء استطاع الآباء أن يعيشوا فى البرية وحدهم، بلا أنيس، وهم فى متعة الحب الإلهى، يجدون فى وحشة البرية عزاء لا يعبر عنه ولذة عميقة بالعشرة الإلهية ...

ومن محبة الله لقديسيه، أنه أعطاهم الإحساس بالوجود فى حضرته... وفى ذلك

يقول داود النبي :

« تأملت فرأيت الرب أمامي فى كل حين ، لأنه عن يميني فلا أتزعزع » و يقول إيليا النبي « حى هو رب الجنود الذى أنا واقف أمامه » (١مل١٨ : ١٥) .

إن النفس البشرية التى ذاقت محبة الله ، تقول « شماله تحت رأسى ، ويمينه تعانقنى »، شاعرة أن محبته محيطة بها ـ (نش ٢ : ٦) .

* * *

ومن محبة الله لنا ، أنه يحيطنا بملائكته ، تحفظنا وتخدمنا .

فيقول بولس الرسول عن الملائكة « أليسوا جميعاً أرواحاً خادمة ، مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص » (عب١ : ١٤) و يقول المزمور « ملاك الرب حال حول خائفيه و ينجيهم » .

ما أعجب أن تخدمنا الملائكة ، ونحن لا نستحق مجرد رؤيتهم ... !

* * *

ومن محبة الله لقديسيه ، أنه يمنحهم حق الشفاعة أيضاً .

لما أراد الله أن يغفر خطية أصحاب أيوب ، قال لهم بعد أن بكتهم « اذهبوا إلى عبدى أيوب . واصعدوا محرقة لأجل أنفسكم ، وعبدى أيوب يصلى من أجلكم . لأنى أرفع وجهه ، لئلا أصنع معكم حسب حماقتكم » (أى ٤٢ : ٨) .

وهكذا جعل الله مغفرته مشروطة بصلاة أيوب عنهم . ولما لا تغفر يارب مباشرة ؟! يقول (لأنى أرفع وجهه) ...

و يظهر الرب لشاول الطرسوسى ، و يدعوه إلى خدمته ولكن لا يشرح له ما ينبغى . وهكذا يعطى الرب كرامة لحنانيا وكهنوته .

* * *

بل ما أعجب أن الروح القدس يقول لرجال الكنيسة : « افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه ». (أع١٣ : ٢) . ولعلهم يقولون فى قلوبهم : ومن نحن يارب ؟! مادمت قد دعوتهما ، فقد انتهى الأمر. ولكن الروح القدس يود أن تمر إرسالية برنابا وشاول من خلال القنوات الشرعية فى الكنيسة ، حباً لهذه القنوات ، وتدعيماً لشرعيتها وعملها ...

ولهذا بعد أن «صاموا حينئذ وصلوا، ووضعوا عليهما الأيادى وأطلقوهما بسلام» ... قيل حينئذ عنهما «فهذان إذ أرسلا من الروح القدس، انحدرا إلى سلوكية ...» (أع ١٣ : ٣، ٤)... نعم ارسلا من الروح القدس. ولكن كيف؟ ... من خلال الكنيسة التى يحبها الروح، و يدعم لها اختصاصاتها ... ما أعمق محبتك يارب!

أنظروا أيضاً إلى قصة قبول كرنيليوس الأممى الذى صعدت صلواته وتقدماته إلى الرب. وظهر له ملاك الرب يخبره بهذا... ولكن الرب يحيل كرنيليوس إلى عبده بطرس، لكى يخبره بما ينبغى (أع ١٠ : ١ - ٦). ذلك لأن الله يريد أن يعمل عن طريق رسله، كهنته. وبهذا يرفع وجوههم كوكلائه، و يثبت لهم فى الكنيسة اختصاصاتهم.

* * *

ولعل من أعجب القصص فى محبة الله لقديسيه، ورفعه مكانتهم أمام الكل، قصة إقامة مساعدين لموسى النبى.

أراد الله أن يريح نبيه موسى من ثقل المسئوليات التى عليه، وذلك بإقامة مساعدين له، «فقال الرب لموسى: اجمع إلىّ سبعين رجلاً، من شيوخ إسرائيل الذين تعلم أنهم شيوخ الشعب وعرفاؤه. واقبل بهم إلى خيمة الاجتماع فيقفوا هناك معك. فأنزل أنا وأتكلم معك هناك، وآخذ من الروح الذى عليك وأضع عليهم، فيحملون معك ثقل الشعب» (عد ١١ : ١٦، ١٧)... وكأن موسى يقول: من أنا يارب الذى تأخذ من الروح الذى علىّ وتضع عليهم؟! إعطهم من عندك كما أعطيتنى!

ولكن االله من محبته لموسى، أراد أن يرفع قدره أمامهم، لكيلا يشعروا أنهم صاروا مساوين له...

وذلك إن أخذوا من نفس المصدر الإلهى كما أخذ...

«وخرج موسى وكلّم الشعب بكلام الرب، وجمع سبعين رجلاً من شيوخ الشعب، وأوقفهم حوالى الخيمة. فنزل الرب فى سحابة وتكلم معه. وأخذ من الروح الذى عليه، وجعل على السبعين رجلاً الشيوخ. فلما حلّ عليهم الروح تنبأوا» (عد ١١ : ٢٤، ٢٥)...

موسى هو الذى اختارهم بنفسه ، ولم يعينهم الرب له . وأخذوا من الروح الذى عليه فتنبأوا ليعرفوا أنهم مجرد مساعدين له . فهو الذى أقامهم أمام الرب... وهكذا عامل الرب موسى ، بالأسلوب الذى يحفظ له كرامته ورئاسته بين مساعديه ...

* * *

من محبة الله أيضاً لقديسيه ، أنه أعطاهم سلطاناً على الطبيعة .

كما سبق من قبل أن أعطى آدم وحواء (تك ١ : ٦) . وكما أعطى أيضاً نوحاً و بنيه ، فادخلوا الوحوش والدبيبن وسائر الحيوانات إلى الفلك وعاشوا فيه (تك٦: ١٩-٢١).

ما أعجب قول إيليا النبى « حى هو الرب ... أنه لا يكون طل ولا مطر فى هذه السنين ، إلا عند قولى » (١مل١٧ : ١) .

وفعلاً امتنع المطر أكثر من ثلاث سنوات منتظراً قول إيليا ...

وإيليا يعطى بركة لأرملة صرفة صيدا ، بأن كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص ، إلى أن ينزل الله المطر على الأرض ، وهكذا كان (١مل١٧ : ١٤- ١٦) .

* * *

ومنع الرب طبائع كثيرة من أن تؤذى قديسيه كما حدث مع يونان فى بطن الحوت (يون٢) . وكما حدث مع الثلاثة فتية فى أتون النار (دا٣١) ، ومع دانيال فى جب الأسود (دا٦)... وصار أحباء الله هؤلاء فى وضع له سموه ، جذب الآخرين إلى الإيمان .

فى نياحة الأنبا بولا ، أرسل الله أسدين فحفرا قبراً له ، لكى لا يتعب فى هذا الأمر القديس الأنبا أنطونيوس الذى أمرهما .

* * *

أحب الله قديسيه ، فأكرمهم فى حياتهم وفى وفاتهم أيضاً .

يرسل ملائكة لكى تحمل روح لعازر المسكين إلى أحضان ابراهيم (لو١٦ : ٢٢) . وروح أنبا آمون رآها القديس أنطونيوس ، وقد حملتها الملائكة فى فرح ، لتزفها بالتسابيح إلى السماء .

وهناك قديسون عند وفاتهم ، كانوا يرون أنواراً ، و يظهر لهم قديسون لاستقبال

أرواحهم. وبعض منهم تفوح رائحة بخور عند وفاتهم. فما أجمل قول الكتاب «لتمت نفسي موت الأبرار، ولتكن آخرتي كآخرتهم» (عدد ٢٣: ١٠).

* * *

ومن محبة الله لقديسيه أنه دعاهم (آلهة)!

فقال لهم في المزمور (٨٢ : ٦) ألم أقل إنكم آلهة، وبني العلي تدعون» (مز٨٢: ٦). وقال الرب لموسى «جعلتك إلهاً لفرعون. وهرون أخوك يكون نبيك» (خر٧: ١).. وقال له عن هرون «هو يكون لك فماً، وأنت تكون له إلهاً» (خر٤: ١٦) يقصد: توحي له بالكلام الذي تريد أن تقوله. وبالنسبة إلى فرعون تكون سيداً له...

* * *

ومن محبة الله لقديسيه أنه أعطاهم بعض ألقابه :

فقال «أنا هو نور العالم» (يو١٢: ٤٦)، وقال «أنتم نور العالم» (مت ٥: ١٤). وطبعاً الفرق واضح. فهو النور الحقيقي (يو١: ٩). وهم يأخذون من نوره. وقال «أنا هو الراعي الصالح» (يو١٠: ١١). وأقام في الكنيسة رعاة (اف ٤: ١١).

* * *

محبة الله لقديسيه تبدو أيضاً في حنانه عليهم إن أخطأوا، حتى حنانه في عقوبته ... !

ما أشد قسوة الإنسان، إذا وقع اخوه الإنسان في يده. أما الله فحنون جداً حتى عندما يعاقب...

لذلك قال داود النبي عبارته المشهورة: «أقع في يد الله، ولا أقع في يد إنسان، لأن مراحم الله واسعة» (٢صم ٢٤: ١٢).

لقد عاقب الرب داود، ولكن عقابه له لم يمنع أبداً استمرار محبته، حتى بعد موت داود... فعامل ابنه سليمان برفق، وعلل رفقه عليه بقوله «من أجل داود عبدي» (١مل ١١: ١٣) أو بقوله له «من أجل داود أبيك» (١مل١١: ١٢).

وحتى بالنسبة إلى سليمان نفسه ، قال عنه الرب لداود أبيه «هو يبنى بيتاً لاسمى، وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد. أنا أكون له أباً، وهو يكون لى إبناً. إن تعوّج أؤدبه بقضيب الناس وبضربات بنى آدم. ولكن رحمتى لا تنزع منه كما نزعتها من شاول» (٢صم٧: ١٣- ١٥).

جميلة هذه العبارة «إن تعوّج أؤدبه. ولكن رحمتى لا تنزع منه» ...

إنها تعبر عن رأفة الله فى عقابه ...

* * *

بل رقة الله الشديدة تبدو فى مقابلته لإنكار بطرس الرسول، الذى أنكره ثلاث مرات وكان يلعن ويحلف إنى لا أعرف الرجل (مت ٢٦ : ٦٩- ٧٤)... كيف لاقاه بعد القيامة برقة شديدة، وطمأنه على رسوليته بقوله «إرعَ غنمى. ارعَ خرافى» (يو٢١: ١٥- ١٧).

* * *

حقاً إن الله يعامل الناس حسب عمق محبته نحوهم وليس حسب خطاياهم إليه.

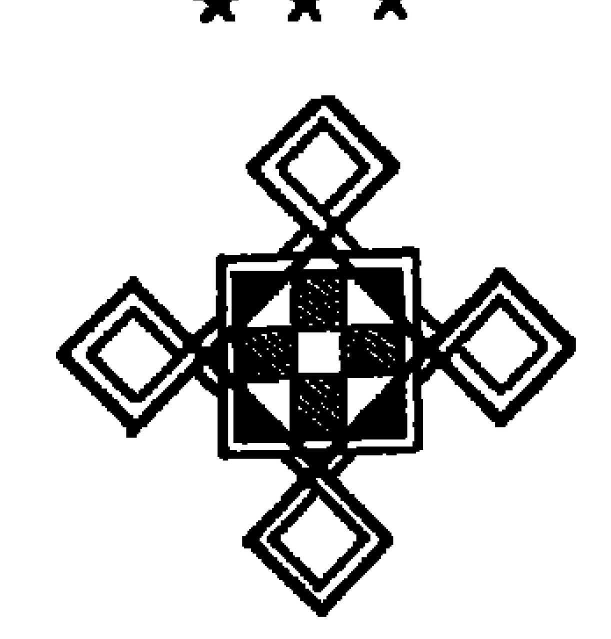
وحتى عندما قال الرب «بسطت يدىّ طول النهار لشعب معاند ومقاوم» ... نسأله «ولماذا تمد يارب يدك نحو هؤلاء المعاندين؟! ولعله يجيب:

«لأن المحبة التى فى قلبى من نحوهم، أقوى بكثير من العناد الذى فى قلوبهم من نحوى ...».

صدق أحد الروحيين حينما قال:

إن جميع خطايا الناس إذا قيست بمحبة الله، تشبه حفنة من الطين ألقيت فى المحيط، لا تستطيع أن تعكر مياهه. وإنما بكل هدوء يأخذها المحيط (إذا تابوا) ويفرشها فى أعماقه، ويقدم لهم ماءً رائقاً ...

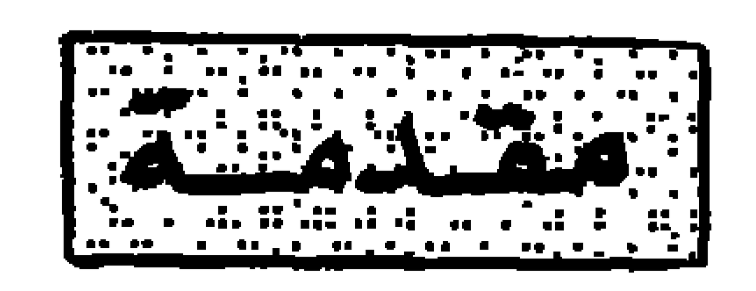
* * *



الفصل الثالث :

من محبّة الله
اهتمامه حتى بالأشياء الصغيرة

- محبته للأطفال .
- اهتمامه بصغار المواهب .
- « « النفوس .
- « بالصغار فى المركز .
- « بالصغار فى العدد والقيمة .
- « بالنفس الواحدة .
- « بالطير .
- « بالحيوان .
- تقديره الكبير للعمل الصغير .



كل شيء إلى جوار الله ، يعتبر صغيراً وضئيلاً .

أو كأنه لا شيء إلى جوار الله غير المحدود ...

فاهتمام الله بخليقته ، أو بالكون كله ، هو اهتمام منه بشيء صغير. ولعل هذا من مظاهر تواضع الله ومحبته لخليقته ...

حقاً ماذا تكون الكرة الأرضية سوى كوكب من كواكب عديدة جداً لا تُحصى! بل ماذا يكون الإنسان سوى حفنة من تراب أُخذت من هذه الأرض! ومع ذلك ففى موضوع اليوم سوف لا نتناول إهتمام الله بالكون كله ، أو بالبشرية جمعاء ، إنما اهتمامه بالصغير فى عالم الكون ، وبالصغير فى عالم الإنسان ، وفى غير عالم الإنسان ، أى اهتمامه بصغير الصغير... !!



ولنبدا بمحبة الرب للأطفال واهتمامه بهم .

إن الله يحب الأطفال . يحب فيهم البراءة والبساطة وعدم التعقيد وعدم الرياء... وهكذا يقول «الحق أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال ، فلن تدخلوا ملكوت السموات» (مت ١٨: ٣) . وفى ترجمة King James للإنجيل ، يقول عن الأطفال (Little Children) . وفى إنجيل معلمنا لوقا يقول «من لا يقبل ملكوت السموات مثل ولد (as a little child) ، فلن يدخله» (لو١٨ : ١٧) .

ويقول أيضاً من قبل ولداً (Child) واحداً مثل هذا ، فقد قبلنى» (مت ١٨ : ٥) (لو٩: ٤٨) .

وقد دافع الرب عن الأطفال .

فقال « من أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى ، فخير له أن يُعلق فى عنقه حجر الرحى ، و يغرق فى لجة البحر» (مت١٨: ٥) (لو١٧: ٢) وقال إنه ليست مشيئة أبيكم الذى فى السموات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار (مت١٨: ١٤) . ودافع الرب عن الأطفال يوم أحد الشعانين . وقال للمحتجين عليهم « أما قرأتم قط إنه من أفواه الأطفال والرضعان هيأت تسبيحاً » (مت ٢١: ١٦) (مز٨: ٢) .

* * *

كان الرب يحب الأطفال ويحتضنهم (مر ١٠ : ١٦) .

ولما كانوا يمنعونهم عنه استصغاراً لهم ، كان يقول « دعوا الأولاد يأتون إلىّ ولا تمنعوهم ، لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات » (مت ١٩: ١٤) (مر١٠: ١٤) . وكان الرب أيضاً يقول « انظروا ، لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار» .

* * *

وقد اختار الرب أطفالاً للنبوة والخدمة ولمسئوليات خطيرة :

اختار الطفل صموئيل ، وناداه باسمه ثلاث مرات ، وحمّله رسالة يبكت بها عالى الكاهن فى المرة الرابعة . نعم كلّمه الرب وقت قيل عنه « وكانت كلمة الرب عزيزة فى تلك الأيام » (١صم٣: ١- ١٤) . وجميل أنه قيل عن صموئيل « وكان صموئيل يخدم أمام الرب وهو صبى ، متمنطق بأفود من كتان . وعملت له أمه جبة صغيرة » (١صم٢: ١٨ ، ١٩) .

* * *

وكما اختار الرب صموئيل الطفل . اختار الرب أرميا الطفل أيضاً .

وقال له « قبلما صورتك فى البطن عرفتك . وقبلما خرجت من البطن قدستك . جعلتك نبياً للشعوب » (أر١: ٥) . ولما اعتذر ارميا الصغير بقوله « آه ، يا سيد الرب . إنى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد » ، شجعه الرب قائلاً « لا تقل إنى ولد... لا تخف من وجوههم ، لأنى أنا معك لأنقذك... ها قد جعلت كلامى فى فمك . انظر، قد وكلتك اليوم على الشعوب وعلى الممالك ، لتقلع وتهدم... وتبنى وتغرس » (أر١: ٧- ١٠) .

ويشجع الرب هذا الصبى الصغير، ويقول له «هأنذا قد جعلتك اليوم مدينة حصينة، وعمود حديد، وأسوار نحاس، على كل الأرض، لملوك يهوذا ورؤسائها وكهنتها ولشعب الأرض، فيحاربونك ولا يقدرون عليك. لأنى أنا معك- يقول الرب- لأنقذك» (أر١: ١٨، ١٩).

* * *

حقاً ما أعجب محبة الرب للصغار، وتشجيعه لهم.

كل هذه المسئوليات والوعود يقدمها للصبى الصغير ارمياء، الذى عرف الرب قلبه قبل أن يولد... حقاً، «سبحوا الرب أيها الفتيان، سبحوا الرب» (مز١١٣)... الرب يرفع معنويات الصغار، ويعينهم فى مسئوليات قد تبدو فوق مستواهم. ولكنه يضع إلى جوارها عبارة «لا تخف. أنا معك».

* * *

وإذا بالصغير- نتيجة لمحبة الله - يصبح أكبر من الكبار !!

يوسف الصديق كان أصغر اخوته. ولكن الله فى محبته له أظهر هذه المحبة فى أحلام، وفيها الدلالة على أن أخوته سوف يأتون ويسجدون له... (تك٣٧: ٥- ١٠). وتحققت هذه الأحلام بعد زمن (تك٤٢: ٦). ورفع الله هذا الصبى يوسف، حتى صار المتسلط على كل مصر، بل جعله الله أباً لفرعون وسيداً لكل بيته (تك٤٥: ٨)..

* * *

ومثل يوسف الصغير الذى أحبه الله وباركه، هكذا كان داود أصغر أخوته.

حدث أن يسى البيتلحمى قدّم أبناءه السبعة الكبار إلى صموئيل النبى، ليأخذ منهم من يختاره الرب. ولم يختر الرب واحداً من كل هؤلاء. وقال يسى «بقى بعد الصغير، وهوذا يرعى الغنم» (١صم١٦: ١١). هذا الصغير الذى لم يعفه أبوه من رعى الغنم فى ذلك اليوم، ليحضر معهم إلى الذبيحة ويرى النبى العظيم... نعم هذا الصغير هو الذى أمر الرب نبيه أن يمسحه ملكاً. «فمسحه وسط أخوته.. وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً» (١صم١٦: ١٣).

* * *

ولنذكر أيضاً فى محبة الله للصغار: عنايته بالطفل موسى، وبالطفل يوحنا :

موسى الطفل الذى كان معرضاً للموت مثل سائر الأطفال، حسب أمر فرعون للقابلتين (خر١: ١٦)... يرسل له الله ابنة فرعون، فتراه فى سفط على جانب النهر، فتحن عليه، وتأخذه إلى القصر الملكى وتتبناه، وتأتى بأمه لترضعه... و يكبر موسى و يصير نبياً.

كذلك يوحنا بن زكريا، كان معرضاً فى طفولته أن يقتل مثل سائر أطفال بيت لحم... كيف اعتنى به الله فعاش، وصار أعظم من نبى، بل أعظم من ولدته النساء، وصار أيضاً الملاك الذى يهيىء الطريق قدام السيد المسيح (مت ١١: ٩- ١١)... حقاً ما أعجب محبة الرب للأطفال...



ومن اهتمام الله بالصغار، نذكر أيضاً الصغار فى المواهب.

كان موسى صغيراً فى مواهبه، حسبما اعترف هو بهذا، واعتذر عن إرسال الرب له. فقال «أنا ثقيل الفم واللسان» «لست صاحب كلام منذ أمس، ولا أول من أمس» (خر٤: ١٠). وقال أيضاً «أنا أغلف الشفتين» (خر٦: ٣٠)... فإذا بهذا الأغلف الشفتين يصير كليم الرب. ومن محبة الرب له، اختار له هرون أخاه لمساعدته، وقال له عن هرون «هو يكون لك فماً. وأنت تكون له إلهاً» (خر٤: ١٦)... ونقص مواهبه الجسدية لم تمنع اختياره...!

* * *

وكما اختار الرب موسى الثقيل الفم واللسان، اختار أيضاً ليئة وكانت عيناها ضعيفتين (تك٢٩: ١٧).

وكانت مكروهة من زوجها يعقوب، الذى كان يحب أختها راحيل أكثر منها. فلما رأى الرب ذلك عوّضها بكثرة البنين. وما أجمل هذه الآية التى تدل على حنو الرب، إذ يقول الكتاب «ورأى الرب أن ليئة مكروهة، ففتح رحمها. وأما راحيل فكانت عاقراً» (تك٢٩: ٣١)... ووهب الله لليئة أن تلد ستة بنين ليعقوب وابنة هى

دينة (تك٢٩: ٢٠: ٢١).

وكان من بين أبنائها: لاوى، الذى صار منه سبط الكهنوت، و يهوذا الذى صار منه سبط الملوك. ومن نسله وُلد المسيح...

ومن الناحية الأخرى، لما تعبت راحيل بسبب عقمها، عاد الرب فتحنن عليها، وولدت يوسف وقالت «قد نزع الله عارى» (تك ٢٩: ٢٢- ٢٤).

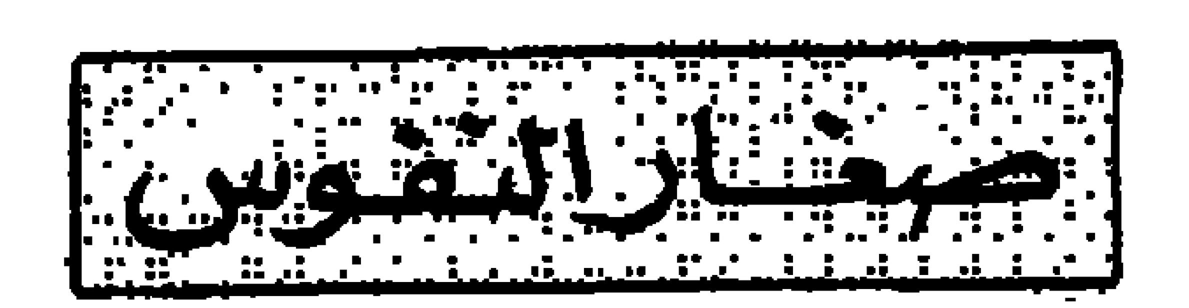
* * *

ولعل من محبة الله، وتحننه على صغار المواهب، اختاره لجهال العالم !!

وفى ذلك يقول القديس بولس الرسول «اختار الله جهال العالم ليخزى الحكماء. واختار الله ضعاف العالم ليخزى الأقوياء. واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود، ليبطل الموجود، لكى لا يفتخر كل ذى جسد أمامه» (١كو١: ٢٧- ٢٩)... ماذا كان الرسول سوى جماعة غالبيتهم من الصيادين...

واختار الرب الرعاة البدو ليبشرهم الملائكة بميلاد المسيح (لو٢: ٨- ١٤). واختار مريم المجدلية، التى سبق أن أخرج منها سبعة شياطين، لتكون مبشرة للرسل بالقيامة (مر١٦: ٩، ١٠) (يو٢٠: ١٧، ١٨).

إنها محبة الرب التى ترفع معنويات الصغير، فيصير كبيراً...



ومن محبة الله أيضاً: الاهتمام بصغار النفوس.

وهكذا ورد فى أقوال الوحى الإلهى «شجعوا صغار النفوس. اسندوا الضعفاء. تأنوا على الجميع» (١تس ٥: ١٤). و يقول أيضاً «قوّموا الأ يادى المسترخية والركب المخلعة» (عب١٢: ١٢).. كل هؤلاء محبة الله ومراحمه تدركهم حتى لا يدركهم اليأس. أليس هو الذى قيل عنه:

«قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يطفىء» (مت ١٢: ٢٠) (أش ٤٢: ٤).

إنه يهتم بالفتيلة المدخنة ، حتى لا تنهار من صغر النفس ، قد تهب عليها ريح بنعمته فتشعلها . وكذلك القصبة المرضوضة قد يعصبها فتستقيم .

* * *

ومن اهتمامه بصغار النفوس قوله « ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد » ... « لحيظة تركتك ، وبمراحم عظيمة سأجمعك » « أوسعى مكان خيمتك ... لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار. و يرث نسلك أمماً ، و يعمّر مدناً خربة » (أش ٥٤ : ١ - ٧) .

ومن اهتمامه بصغار النفوس قوله « لأن الرب مسحنى لأ بشر المساكين ، أرسلنى لأعصب منكسرى القلوب ، لأنادى للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالإطلاق » (أش ٦١ : ١) .

لعل البعض يقول : من أنا حتى أحشر نفسى وسط رجال الله القديسين ؟! نقول له : أحشر نفسك إذن مع الركب المخلعة ، والفتيلة المدخنة ، ومع منكسرى القلوب ...

* * *

حقاً ، ليس أحد منسياً أمام الله ، مهما كان صغيراً ومسكيناً ومنكسراً .

إنه رجاء من ليس له رجاء ، عزاء صغيرى القلوب ، ميناء الذين فى العاصف ... لقد عزى بطرس الذى صغرت نفسه بعد إنكاره ، و بكى بكاء مراً (مت ٢٦ : ٧٥) ... فظهر له بعد القيامة ورفع معنو ياته بقوله له « ارعَ غنمى . ارعَ خرافى » (يو ٢١ : ١٥ - ١٧) .

كذلك ظهر الرب لأ بينا يعقوب وهو خائف من أخيه عيسو وقد صغرت نفسه جداً فعزاه وقواه و باركه (تك ٢٨ : ٣٢) .



صغار المركز

من محبة الله أيضاً أنه يهتم بصغار المركز .

راعوث المؤآبية، وهى أرملة غريبة الجنس ، لا مركز لها ... اهتم بها الرب ، وأعطاها نعمة فى عينى بوعز، وصارت جدة لداود النبى . وحمل اسمها أحد أسفار العهد القديم ، ودخل اسمها فى سلسلة أنساب المسيح (مت ١) .

وراحاب الزانية ، اهتم بها الرب بعد توبتها وإيمانها ، وأدخلها أيضاً فى سلسلة الأنساب . حسبها الرسول فى قائمة المشهورين بالإيمان (عب ١١ : ٣١) . وسجل يشوع اسمها وأعطاها أماناً هى وأهل بيتها (يش ٢ : ١، ١٩) .

* * *

إن كان الرب قد أعطى أهمية لراعوث وراحاب ، فكذلك منح مركزاً لجدعون .

جدعون هذا لما دعاه الرب ليصنع به خلاصاً ، قال وهو شاعر بضآلة شأنه « ها عشيرتى هى الذلّى فى منسى ، وأنا الأصغر فى بيت أبى » (قض ٦ : ١٥) . ولكن الرب شدده ، وقوّى إيمانه ، ومنحه علامات لتقويته ، وأراه آيات ، وصنع به انتصاراً عظيماً ، وصار من قضاة الشعب ، وسجل اسمه فى سفر القضاة (قض ٦ - ٨) . وكتب القديس بولس الرسول اسمه ضمن أبطال الإيمان (عب ١١ : ٣٢)... هذا الذى عشيرته هى الذلّى فى منسى...

* * *

بل لننظر إلى بيت لحم ، القرية الصغيرة فى يهوذا .

على الرغم من صغرها وضآلة شأنها ، إلا أن الرب قد خاطبها قائلاً « وأنت يا بيت لحم ، لست الصغرى بين رؤساء يهوذا . لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبى إسرائيل » (مت ٢ : ٦) . وصارت بيت لحم هى مدينة داود النبى ، ثم المدينة التى وُلد فيها السيد المسيح له المجد... ومنحها الرب عظمة لم تنلها أمهات المدن وعواصم الممالك...

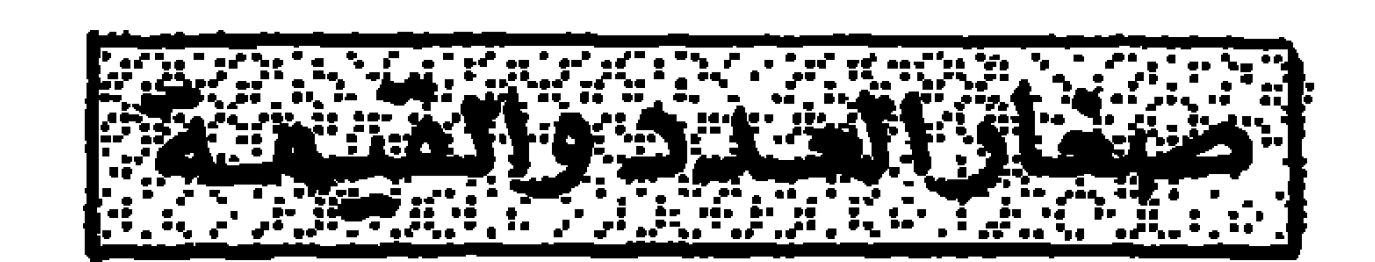
* * *

ومن اهتمام الرب بالصغار ، أنه أطلق هذا اللقب على المؤمنين به :

وقال فى ذلك « لا تخف أيها القطيع الصغير ، لأن أباكم قد سُرّ أن يعطيكم الملكوت » (لو ١٢ : ٣٢) . هذا القطيع الصغير- ربما فى عدده هو الذى سيدخل ملكوت السموات . لأن الباب المؤدى إلى الحياة الأبدية هو باب ضيق ، « وقليلون هم الذين يجدونه » (مت ٧ : ١٤) .

بودى أن أحدثك عن اهتمام الرب فى محبته بأمور كثيرة صغيرة :

كالأشياء الصغيرة فى عددها، أو فى قيمتها، أو فى حجمها، أو اهتمامه بالمخلوقات الصغيرة فى شأنها، أو اهتمامه بالعمل الصغير...



أهتمام الرب بالصغير فى القيمة، وفى العدد.

فى معجزة إشباع الجموع من الخمس خبزات والسمكتين، نرى أن الرب أمسك هذا القليل فى يده، وباركه فصار كثيراً يمكنه إشباع «خمسة آلاف رجل غير النساء والأطفال» (مت ١٤: ٢١). على أن العجيب أيضاً، هو قول الرب لتلاميذه «اجمعوا الكسر الفاضلة» (يو٦: ١٢)!! ما قيمة هذه الكسر يارب حتى تهتم بها ؟!

إنه شيء معز حقاً، أن يهتم الرب بهذه الكسر الملقاة.

و يأمر تلاميذه القديسين أن يجمعوها فى قفف ويحملوها !!

لذلك، قل له «يارب، إن كنت قد اهتممت بهذه الكسر، فعلى الأقل تهتم بإنسان مثلى، ملقى على الأرض مثلها، ليحمله لا رسول من رسلك، إنما واحد من تلاميذ تلاميذهم مهما صغر!!

نلاحظ بالنسبة إلى الخمس خبزات أنها كانت من شعير (يو٦: ٩).. وقيمته أقل من القمح بلا شك. ولكن الرب لم يحتقر هذه القيمة الأقل، بل منحها بركة إشباع الناس. كذلك تقبل هذه الأرغفة من فتى صغير (a lad). ليرينا فى كل ذلك اهتمامه بالصغار.

* * *

نفس مباركة العدد الصغير وردت فى معجزة أخرى لإشباع أربعة آلاف رجل غير النساء والأطفال من سبعة أرغفة «وقليل من صغار السمك» (مت ١٥: ٣٤-٣٨). وجميل هنا أن تجتمع كلمة (قليل) مع كلمة صغار، لنرى منهما كيف أن محبة الله لا تحتقر القليل ولا الصغير، بل تعمل بكليهما عملاً.

* * *

لعل هذا يذكرنا بانتصارات سمح بها الرب، بالقليل وبالصغير.

داود الفتى الصغير ، كان محتقراً أمام جليات الجبار. ولكنه لم يكن كذلك أمام الله المحب ، الذى قيل عنه « ليس عند الرب مانع من أن يخلص بالكثير أو بالقليل » (١صم ١٤ : ٦) . بل كثيراً ما يخلص الرب بالقليل ، كما فعل مع الفتى داود . ذلك لأن « الحرب للرب » (١صم ١٧ : ٤٧) . والرب يحب أن يختار الصغار... ويجعل من داود الصغير بطل الموقف ، أكثر من شاول الملك . و يهتف النسوة بالألوف لشاول ، و بالربوات لداود (١صم ١٨ : ٧) . ويمجد الرب هذا الفتى الصغير فى أعين الكل...

* * *

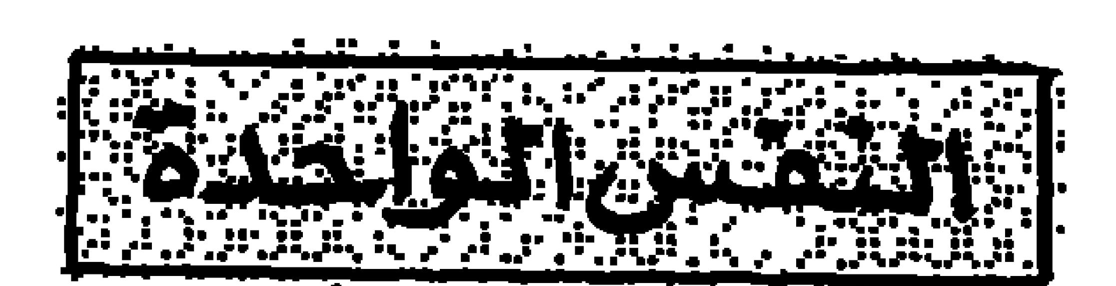
ولنا مثال آخر فى قصة انتصار جدعون على المديانيين .

كان مع جدعون جيش من ٣٢ ألفاً من الجند. ولكن الرب لم يشأ أن ينتصر جدعون بهذا الجيش الكبير، « لئلا يفتخر إسرائيل » (قض ٧: ٢، ٣) . وأمر بعمل تصفية للجيش ، حتى وصل العدد إلى ثلاثمائة فقط (أى ١٪ فقط من عدد الجيش) (قض ٧ : ٧) . و بهؤلاء فقط ، صنع الرب خلاصاً ، بهذا العدد الصغير...

* * *

اختار الرب اثنى عشر رسولاً ، لينشر بهم الإيمان .

نعم ، بهذا العدد القليل ، الذين قال لهم « تكونون لى شهوداً فى أورشليم ، وكل اليهودية ، والسامرة، وإلى أقصى الأرض » (أع ١: ٨) . وحتى لو أضفنا إليهم السبعين تلميذاً (لو ١٠) ، ماذا يكون هذا العدد الصغير، ليكرز بالإنجيل للخليقة كلها ؟! (مر ١٦: ١٥)، ولكى يتلمذوا جميع الأمم و يعلموهم و يعمدوهم (مت ٢٨ : ١٩، ٢٠) .



اهتمام الرب بالأشياء الصغيرة نجده أيضاً فى أمثلة التوبة :

الدرهم المفقود مثلاً ، ما قيمته ، حتى توقد صاحبته (أى الكنيسة) سراجاً ، وتفتش باجتهاد حتى تجده ! ومتى وجدته تدعو الصديقات والجارات ، قائلة افرحن

معى، لأنى وجدت الدرهم الذى أضعته (لو١٥ : ٨، ٩).

إنه ليس ديناراً ، ولا قطعة ذهبية ، ولا حتى فضية... بل هو مجرد درهم... ولكن محبة الله تشمل الصغار مهما كانت قيمتهم تبدو ضئيلة !

* * *

إن اهتمام الرب بالنفس الواحدة ، دليل على محبته الفائقة :

حتى لو كانت نفس زكا العشار (لو١٩) أو مريم المجدلية التى أخرج منها سبعة شياطين (لو٨)، أو حتى لو كانت نفس المرأة المضبوطة فى ذات الفعل (يو٨).. أو كانت نفس ذلك الخروف الواحد الضال، الذى من أجل إرجاعه ترك التسعة والتسعين، وبحث عنه حتى وجده، وحمله على منكبيه فرحاً، ودعا الأصدقاء والجيران، قائلاً افرحوا معى... لأنه يكون فرح قدام ملائكة الله بخاطىء واحد يتوب (لو١٥ : ٤- ١٠).

محبة الله تعطينا فكرة عن قيمة النفس الواحدة قدامه .

حتى لو كانت ضالة فوجدت، أو ميتة فعاشت (لو١٥: ٢٤، ٣٢).

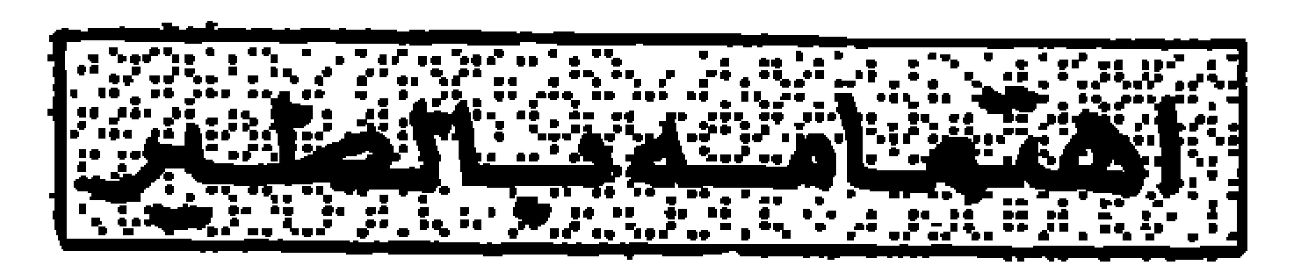
إنه لا يهتم بالنفس فقط ، بل أيضاً بكل ما يتعلق بها... انظروا كيف يطمئن تلاميذه قائلاً: أما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة. فلا تخافوا (مت ١٠: ٣٠، ٣١) (لو١٢: ٧).

* * *

إن الله لم يقصر محبته على الإنسان وحده، بل اهتم بالخليقة كلها .

هوذا يقول عن عنايته هذه «تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو: لا تتعب، ولا تغزل. ولكن أقول لكم ولا سليمان فى كل مجده، كان يلبس كواحدة منها» (مت٦ : ٢٨، ٢٩)... نعم، ما هذا الجمال كله الذى وهبه الله لهذه الزهور والورود، فى متنوع ألوانها وفى رائحتها، وفى مقدار العطر المخزون فيها، والشهد المأخوذ منها... !!

* * *



ثم ما أعجب إهتمام الرب بالطير ...

قال الرب « أليس عصفوران يباعان بفلس ، وواحد منها لا يسقط على الأرض بدون أبيكم » (مت ١٠ : ٢٩) . هذه العصافير التى ثمنها زهيد جداً ، لا يسقط واحد منها على الأرض بدون سماح من الله الآب ... فإن كان عصفوران بفلس ، يكون أربعة منها بفلسين . ولكنه يقول أليست خمسة عصافير تباع بفلسين ، وواحد منها ليس منسياً أمام الله » (لو١٢ : ٦) . أى أن الواحد الذى يمكن أن يوهب مجاناً فى سعر الجملة ، إذا اشترى منها الشارى بفلسين ... هذا الواحد الذى لا قيمة له ولا ثمن ، ليس منسياً أمام الله ... ما أعجب الله فى حنوه . فإن كانت هكذا عنايته بالعصافير ، فكم بالأولى البشر الذين هم أفضل من عصافير كثيرة (لو٢ : ٧) .

* * *

ونضرب هنا مثالين لعناية الله بالطير .

يقول الرب « أنظروا إلى طيور السماء : إنها لا تزرع ولا تحصد ، ولا تجمع إلى مخازن ، وأبوكم السماوى يقوتها . ألستم أنتم بالحرى أفضل منها » (مت٦ : ٢٦) (لو١٢ : ٢٤) . ويقول المزمور عن الرب « المعطى البهائم طعامها ، ولفراخ الغربان التى تدعوه » (مز١٤٧ : ٩) .

* * *

فى إحدى المرات وأنا فى الدير ، أخذت درساً عن إيمان وقناعة العصافير.

كنت واقفاً أمام قلايتى . وكانت حفنة أو أكثر من القمح قد وقعت على الأرض . وجاءت العصافير: كان كل عصفور يلتقط حبتين أو ثلاثاً ، ويطير تاركاً هذا الكنز من الطعام مكانه ، وله إيمان أن الله سيقوته حيثما طار . وهنا تذكرت قول الرب عن العصافير « ولا تجمع إلى مخازن » ... حقاً إن إيمان العصفور أعمق بكثير من اجتهاد النملة ... هذه العصافير التى لا تهتم بما للغد ، ولا بما لباقى اليوم ...

* * *

أما عن حماية الله للعصافير.

فيعجبنى جداً قول المزمور «نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين. الفخ انكسر ونحن نجونا. عوننا من عند الرب الذى صنع السماء والأرض» (مز٢٤: ٧، ٨).. حقاً، لا يسقط واحد منها بدون أبيكم...

وهناك لمسة حنان يقولها الرب بالنسبة إلى الطيور.

يقول فى سفر التثنية «إذا اتفق قدامك عش طائر فى الطريق، فى شجرة ما أو على الأرض، فيه فراخ أو بيض، والأم حاضنة الفراخ أو البيض. فلا تأخذ الأم مع الأولاد. اطلق الأم وخذ لنفسك الأولاد، لكى يكون لك خير وطول أيام» (تث٢٢: ٦، ٧). نلاحظ أن هنا وعداً بالبركة، لمن تكون له هذه اللمسة الإنسانية.

ولعل اهتمام الله الحنون بالمشاعر التى بين الأم والأولاد فى عالم الحيوان، قوله أيضاً «لا تطبخ جدياً بلبن أمه» (خر٢٣: ١٩).

اهتمامه بالحيوان

أما شفقة الله على الحيوان، فلها أمثلة عديدة جداً:

لعل من أقدم أمثلتها أنه أدخل جميع الحيوانات إلى الفلك، اثنين من كلٍ، ذكراً وأنثى، لاستبقائها، سواء من الحيوانات الطاهرة أو غير الطاهرة (تك٦: ١٩- ٢١) وأخذ نوح معه طعامها فى الفلك. ولكى لا تنقرض الحيوانات الطاهرة التى ستقدم منها الذبائح والمحرقات، أخذ منها سبعة، ذكراً وأنثى (تك٧: ٢، ٣).

ومن اهتمام الله بالحيوان شفقته على حمار بلعام (عد ٢٢).

* * *

ومن شفقة الله على الحيوان إراحته فى اليوم السابع.

وفى ذلك قال الرب فى الوصايا العشر «وأما اليوم السابع، فسبت للرب إلهك. لا تعمل فيه عملاً ما، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك، وثورك وحمارك وكل

بهائمك» (تث ٥: ١٤). كما أن الإنسان يتعب ويحتاج إلى يوم راحة فى الأسبوع، كذلك عبده، وبهائمه...

* * *

بل بلغ الأمر فى رحمة الله بخليقته أن يمنح الراحة للأرض أيضاً.

وهكذا قال «ست سنين تزرع أرضك وتجمع غلتها. أما فى السنة السابعة فتريحها، وتتركها ليأكل فقراء شعبك، وفضلتهم تأكلها وحوش البرية. كذلك تفعل بكرمك وزيتونك» «ستة أيام تعمل عملك. وأما اليوم السابع، ففيه تستريح، لكى يستريح ثورك وحمارك، ويتنفس إبن أمتك والغريب» (خر٢٣: ١٠-١٢).

وهنا نرى أن الرب فى محبته وحنانه، قد منح الراحة للإنسان والحيوان والأرض. وبالنسبة إلى الإنسان منحها لأهل البيت وللغريب وللعبيد.

* * *

ما أكثر الأمثلة التى تظهر حنو الله على الحيوان، نذكر منها قوله: «لا تحرث على ثور وحمار معاً» (تث ٢٢: ١٠).

الثور بلاشك أقوى من الحمار، وأشدّ. وأسرع منه حركة، فإن حرث معه، سيرهقه تماماً، لأن الحمار لا يستطيع أن يجاريه. والله لا يريد للحمار هذا الإرهاق، اشفاقاً عليه وحنواً.

ولذلك عندما دخل أورشليم يوم أحد الشعانين، قيل عنها «هوذا ملك يأتيك وديعاً، راكباً على أتان وجحش بن اتان» (مت ٢١: ٥). ذلك لكى يريح أحدهما الآخر. ربما يركب الأتان فى الطرق الصعبة، والجحش فى الطريق السهلة. وما أكثر تواضع الرب فى قوله عن هذين الحيوانين «قولا أن الرب محتاج إليهما» (مت ٢١: ٣).

* * *

ومن حنان الرب على الحيوان قوله «لا تكمّ ثوراً دارساً» (تث ٢٥: ٤).

الثور فى وقت دراسة الفول أو القمح أو الشعير، يجهد فيجوع، فيمد فمه إلى الحبوب ويأكل منها، ليأخذ طاقة تساعده على إكمال عمله. وهنا يأمر الله أن لا

تُوضع كمامة على فم الثور تمنعه من الأكل أثناء العمل وبذل الجهد... ! ما هذه المحبة والحنان !

* * *

ومن حنان الله ، لانقاذ الحيوان إن وقع .

وفى ذلك يقول « لا تنظر حمار أخيك أو ثوره واقعاً فى الطريق وتتغاضى عنه، بل تقيمه معه لا محاله» (تث ٢٢ : ٤). بل يقول أكثر من هذا: «إذا رأيت حمار مبغضيك واقعاً تحت حمله وعدلت عن حلّه ، فلابد أن تحلّ معه » (خر ٢٣ : ٥) . وهنا يأمر بمحبة الحيوان، وأيضاً بمحبة العدو.

بل من أجل انقاذ الحيوان ، يوجب العمل فى يوم السبت . فيقول «أى إنسان منكم يكون له خروف واحد. فإن سقط هذا فى حفرة فى يوم سبت ، أفما يمسكه ويقيمه ؟! (مت ١٢: ١١).

ويقول كذلك «لا تنظر ثور أخيك أو شاته شارداً وتتغاضى عنه ، بل ترده إلى أخيك لا محالة ... وهكذا تفعل بحماره» (تث ٢٢ : ١، ٣) .

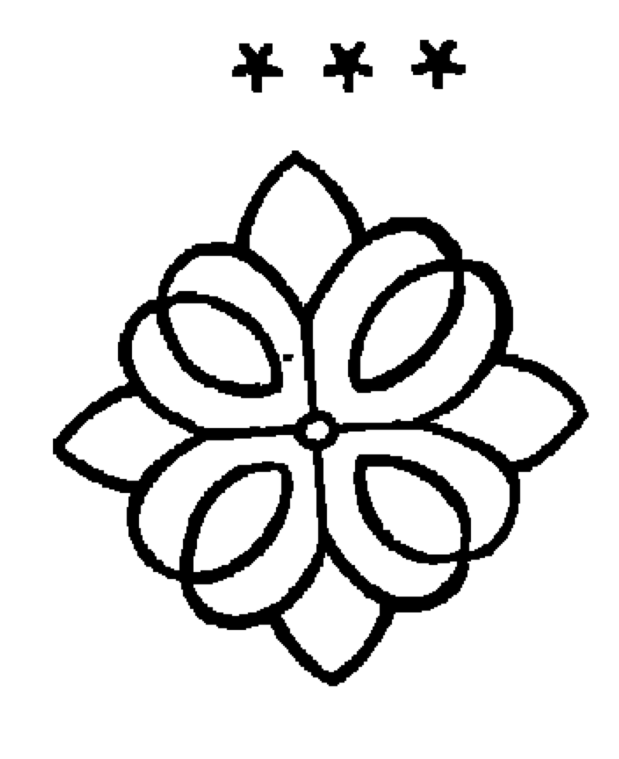
* * *

وقد امتدح الله بعض هذه الحيوانات، فيما تفعله أفضل من الإنسان .

فقال موبخاً اسرائيل « الثور يعرف قانيه ، والحمار معلف صاحبه . أما اسرائيل فلا يعرف . شعبى لا يفهم !!» (أش ١ : ٣) . وقال عن النملة « اذهب إلى النملة أيها الكسلان . تأمل طرقها وكن حكيماً ... تُعد فى الصيف طعامها ، وتجمع فى الحصاد أكلها ...» (أم ٦ : ٦) .

لا ننسى أيضاً المواهب العجيبة التى منحها الله للنحل ...

* * *



تقدير الكبير للعمل الصغير

الله يهتم بالعمل الصغير ، و يطوّبه ، ويجعل منه شيئاً كبيراً ، و يكافىء عليه . وهذا من فرط محبته للبشر. انظروا كيف يقول :

« من سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ ، فالحق أقول لكم إنه لا يضيع أجره » (مت ١٠ : ٤٢) .

★ وهكذا جعل الله أجراً فى ملكوته عن كأس الماء البارد .

مجرد كأس ماء بارد ، لم يتعب مقدمه فيه ، ولم يضف إليه شيئاً . يؤكد الأمر كلمة (فقط) . و يزيد العمق أيضاً أنه لأحد الصغار، وأنه باسم تلميذ . ولكن محبة الله لا تترك عملاً بدون أجر، مهما صغر شأنه .

★ ★ ★

★ كذلك جعل الله شأناً كبيراً للإيمان الذى فى قدر حبة الخردل .

فقال « الحق أقول لكم : لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل ، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل . ولا يكون شيء غير ممكن لكم » (مت ١٧ : ٢٠) ... إنه لم يطلب قدراً عظيماً من الايمان ، إنما طوّب حتى الإيمان الذى مثل حبة الخردل ، ومنحه قوة عجيبة وفاعلية .

★ ★ ★

★ وبالمثل طوّب الرب فلسى الأرملة .

لم يحتقر القليل الذى قدمته ، إنما نظر إلى مشاعر القلب الذى قدّم من أعوازه ، فقال «الحق أقول لكم إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت فى الخزانة أكثر من جميع الذين ألقوا . لأن الجميع من فضلتهم ألقوا . وأما هذه فمن أعوازها ألقت كل ما عندها ، كل معيشتها » (مر١٢: ٤٣، ٤٤) .

★ ونفس الوضع حدث مع أرملة صرفة صيدا التى قدمت لإيليا النبى فى فترة المجاعة ملء كف من الدقيق وقليلاً من الزيت... لم ينس الرب تقدمتها هذه،

وباركها قائلاً: إن كوار الدقيق لا يفرغ، وكوز الزيت لا ينقص، إلى اليوم الذى يعطى فيه الرب مطراً على وجه الأرض» (١مل١٧: ١٢- ١٦).

إن الله فى محبته للبشر، لا ينسى أبداً العمل الطيب الذى تعمله بنية مقدسة، مهما كان صغيراً فى نظر الناس. ولكنه ليس كذلك فى حكم الله...

* * *

* إنه لم ينس مطلقاً زيارة ملكة التيمن لسليمان.

واعتبر هذه الزيارة عملاً عظيماً وبخ به الجيل الذى رفضه. فقال إن «ملكة التيمن ستقوم فى الدين مع هذا الجيل وتدينه، لأنها أتت من أقاصى الأرض لتسمع حكمة سليمان. وهوذا أعظم من سليمان ههنا» (مت١٢: ٤٢).

* وطوّب الرب أيضاً وكيل الظلم، لاهتمامه بمستقبله.

على الرغم من أخطاء هذا الوكيل الذى أدت إلى فصله من وظيفته. وعلى الرغم من سلوكه الظالم لصاحب المال بالنسبة إلى مديونيه... ومع ذلك يقول الكتاب «فمدح السيد وكيل الظلم، إذ بحكمة فعل» (لو١٦: ١- ٨). وجد له وسط أخطائه الكثيرة شيئاً يمدحه عليه، وهو الحكمة فى تدبير أمور المستقبل. وقدمه لنا مثالاً فى الحكمة، لا فى الأخطاء...

* * *

* ومن محبة الله أن جملة واحدة جعلها سبباً فى خلاص خطاة.

عبارة واحدة قالها العشار «اللهم ارحمنى أنا الخاطىء» (لو١٨: ١٣)، جعلته يخرج من الهيكل مبرراً. إذ نظر الله إلى انسحاق وتوبة القلب، واعتبر هذه الجملة الواحدة كافية لأن ينال العشار المغفرة.

وبالمثل عبارة واحدة قالها اللص التائب «اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك» (لو٢٣: ٤٣)... أخذ الله ما فيها من إيمان وتوبة، ووعد هذا اللص بأنه سيكون معه فى نفس اليوم فى الفردوس... ولم يحاسبه على كل ماضيه الأثيم، كما لم يحاسب العشار أيضاً على ماضيه الظالم.

* * *

★ وبالمثل أيضاً قبل إليه زكا العشار.

ما الذى فعله زكا لكى ينال إعلاناً عجيباً من الرب قال عنه فيه «اليوم حصل خلاص لهذا البيت» (لو١٩ : ٩)؟! مجرد أن زكا «ركض متقدماً، وصعد إلى جميزة لكى يراه»... ولكن هذا العمل الذى يبدو صغيراً، رأى فيه الرب مشاعر عميقة وكثيرة تستحق الخلاص، فاعترف زكا وقدم توبة وتعويضاً عن أخطائه، واستحق أن يدخل السيد إلى بيته...

* * *

★ كذلك قد يبدو أن ما فعلته المرأة السامرية شيئاً ضئيلاً !!

الرب هو الذى قادها إلى الاعتراف والتوبة وإلى الإيمان. بل هو الذى ذكر لها خطاياها، دون أن تذكرها هى... ربما اكتفى بإيماءة منها، أو بمجرد قولها «ليس لى زوج» (يو٤ : ١٧). وأكمل لها ما لم تقله... وخلصت هذه المرأة، ولم يوبخها الرب على شىء من كل أخطائها القديمة !! ما أعمق حنوه!

* * *

★ بل ما أعجب عمل المحبة الذى عامل به الرب لوطاً وأسرته.

لم يطلب لوط أن يخرج من مدينة سادوم الخاطئة، وقد فقد هيبته فيها. بل أرسل الله ملاكين لإخراجه وانقاذه من أجل شفاعة ابينا ابراهيم. ويقول الكتاب فى خروج لوط «كان الملاكان يعجلان لوطاً قائلين: قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين، لئلا تهلك بإثم المدينة. ولما توانى، أمسكا بيده وبيد إمرأته وبيد ابنتيه، لشفقة الرب عليه. واخرجاه ووضعاه خارج المدينة» (تك١٩ : ١٥، ١٦)... وخلص لوط «لشفقة الرب عليه» على الرغم من توانيه فى الخروج... يكفى أنه أطاع ولو بدفعه دفعاً إلى الخارج.

* * *

★ ومن محبة الله فى قبوله للعمل الصغير، مثل الزرع الجيد.

قال فى مثل الزارع وبذاره «وسقط آخر على الأرض الجيدة، فأعطى ثمراً: بعضه مائة، وآخر ستين، وآخر ثلاثين» (مت١٣ : ٨)... حتى الذى أعطى ثلاثين فقط،

اعتبره من ثمر الأرض الجيدة... يكفى أن الأرض قد أعطت ثمراً، حتى لو كان قليلاً...

★ يذكرنا هذا بأنه أعطى نفس البركة لصاحب الوزنتين، كما أعطاها لصاحب الخمس وزنات. وقال لكليهما إنه عبد صالح وأمين، وأدخله إلى فرح سيده (مت ٢٥: ١٤- ٢٣).

* * *

★ يذكرنا هذا بقول الرب «كنت أميناً فى القليل» (مت ٢٥: ٢١، ٢٣).

إن الأمين فى القليل ينال نفس البركة و يدخل إلى الملكوت. إن الله لا ينظر إلى مقدار مسئوليتك، كبيرة وخطيرة أم صغيرة وضئيلة. إنما المهم أمانتك فيها- لاشك أن أمانة الشماس اسطفانوس أول الشهداء جعلته أمام الله فى رفعة قد لا تقل عن الرسل...

* * *

★ وتبدو محبة الرب وقبوله للعمل القليل، فى يوم الدينونة.

قال للذين أوقفهم على يمينه «تعالوا يا مباركى أبى، رثوا الملك المعد لكم منذ تأسيس العالم». لماذا؟ هل لعمل كرازى عظيم أوصلوا الإيمان به إلى كثيرين وأدخلوهم إلى عمق الروحيات؟! كلا، إنه يقول لهم «لأنى جعت فأطعمتمونى، عطشت فسقيتمونى. كنت غريباً فآويتمونى، عرياناً فكسوتمونى...» (مت ٢٥: ٣٤- ٣٦). وهل هذا القليل يارب يدخلهم ملكوتك مثل كبار الرسل وصانعى المعجزات؟! نعم، إن محبة الرب تسمح بهذا...

★ يذكرنا هذا أيضاً بأصحاب الساعة الحادية عشرة.

هؤلاء الذين جاءوا إلى كرمه فى آخر النهار، ولم يشتغلوا سوى ساعة واحدة. ومع ذلك أعطاهم نفس الأجر كالذين عملوا النهار كله، شفقة منه عليهم، إذ كانوا بطالين لأنه لم يستأجرهم أحد (مت ٢٠: ١- ١٥).

ونحن نذكر هؤلاء فى صلاة الغروب كل يوم، متذكرين شفقة الله على أولئك.

الذين أتوا إليه متأخرين، ونطلب إليه أن يحسبنا معهم ...

* * *

★ محبة الله للذين عملوا قليلاً، علمها الرب لتلاميذه أيضاً.

فعاملوا بها الأمم لما قبلوا الايمان وهكذا قالوا «لا يثقّل على الراجعين إلى الله من الأمم، بل يُرسل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنا والمخنوق والدم» وهكذا فعلوا (أع ١٥: ١٩، ٢٠، ٢٩).

وبالمثل قال معلمنا بولس لأهل كورنثوس «وأنا أيها الأخوة لم استطع أن أكلمكم كروحيين، بل كجسديين كأطفال فى المسيح. سقيتكم لبناً لا طعاماً، لأنكم لم تكونوا بعد تستطيعون ...» (١كو٣: ١، ٢).

إن الله فى محبته يرضى بالقليل الذى تبذله، على شرط أن يكون آخر جهدك، لا عن اهمال، بل عن ضعف ...

* * *

وهكذا نقول فى أوشية القرابين «أصحاب الكثير وأصحاب القليل».

بل نقول أكثر من هذا «والذين يريدون أن يقدموا لك، وليس لهم» ... ليس جميع الناس فى مستوى واحد من الروحيات. والله فى محبته للبشر يقبل كل المستويات، كل واحد حسب درجته. وفى الملكوت نجم يفوق نجماً فى المجد (١كو١٥: ٤١).

* * *

كل المستويات الروحية يقبلها فى ملكوته.

يقبل الذين عاشوا فى خياة الصلاة الدائمة وحياة النسك والزهد، كالسواح والمتوحدين. كما يقبل الذين عاشوا فى المجتمع ومشغولياته، وعلى قدر طاقتهم وإمكاناتهم يصلون ويصومون.. يقبل الرعية كما يقبل الرعاة. يقبل المخدومين كما يقبل الخدام ... فى جسده- أى الكنيسة- أعضاء كثيرون. والله يقبل العين، كما يقبل اليد والقدم. ومحبته تشمل الكل.

★ ★ ★

وفى لقائه مع الشاب الغنى ، نرى مثالاً لتعامل الرب .

لم يطلب منه أولاً حياة الكمال فى الزهد والتجرد . وإنما قال له « إن أردت أن تدخل الحياة ، احفظ الوصايا » . فلما أجاب « هذه كلها حفظتها منذ حداثتى » نقله الرب إلى الدرجة الأعلى وقال « إن أردت أن تكون كاملاً ، فاذهب وبع كل أملاكك واعط الفقراء ، فيكون كنز فى السماء » (مت ١٩ : ١٧ - ٢١) . هنا نرى الرب فى حنوه يتدرج مع النفس البشرية .

* * *

وهو فى حنوه أيضاً يقدر مشاعر الإنسان وحالته النفسية .

كان نيقوديموس أحد رؤساء اليهود ، وكان خائفاً منهم ، لذلك أتى إلى المسيح ليلاً (يو٣، ١، ٢) . وقبل الرب ذلك منه ، دون أن يسأله عن خوفه ... وتدرج معه ، إلى أن صار فيما بعد تلميذاً له ، واشترك مع يوسف الراعى فى تكفينه (يو١٩ : ٣٩-٤٠) .

* * *

نرى كذلك قبول الله للعمل الصغير فى حياة الملوك القديسين فى العهد القديم .

قيل عن سليمان الحكيم إن النساء الغريبات أغوينه فى زمن شيخوخته ، وأملن قلبه وراء آلهة آخرى . ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب كقلب داود أبيه » (١مل ١١ : ٤) . ونحن نعلم أن داود النبى كانت له أخطاؤه المعروفة والتى عاقبه الرب على بعضها (٢صم ١٢) (٢صم ٢٤ : ١٠ - ١٥) ... ومع ذلك يقول الكتاب إن قلبه كان كاملاً أمام الرب ... لعل الله كان يقصد مجرد إيمان داود ، وعدم اتباعه آلهة آخرى ... وهكذا قيل عن باقى الملوك القديسين فى العهد القديم . كانوا كاملين من حيث الإيمان . وقبل الله منهم ذلك . وكان يعفو عن أخطائهم بالتوبة .

* * *

وعبارة (كامل) قيلت أيضاً عن كثير من أنبياء العهد القديم ، وكانت لهم أخطاء ...

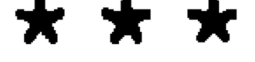
أيوب الصديق مثلاً ، قال عنه الرب أكثر من مرة أنه رجل كامل ومستقيم

(أى ١ : ٨) (أى ٢ : ٣) . وعلى الرغم من ذلك سجل الوحى الإلهى عنه إنه « كان باراً فى عينى نفسه » (أى ٣٢ : ١، ٢). وقد وبخه أليهو بن برخئيل البوزى (أى ٣٢) (أى ٣٥ : ١). بل وبخه الله نفسه، وسأله أسئلة ليثبت له جهله (أى ٣٨ : ١ ـ ٤)... إلى أن اعترف أخيراً بضعفه، وندم فى التراب والرماد (أى ٤٢ : ١ ـ ٦)... وحينئذ رفع الرب وجهه، وقال لأصحاب أيوب (.. لم تقولوا فىّ الصواب كعبدى أيوب » (أى ٤٢ : ٨).

إن الله يعاملنا بالكمال النسبى ، الذى يناسب ضعفنا البشرى .

لأنه « يعرف جبلتنا . يذكر أننا تراب نحن » (مز ١٠٣ : ١٤) .

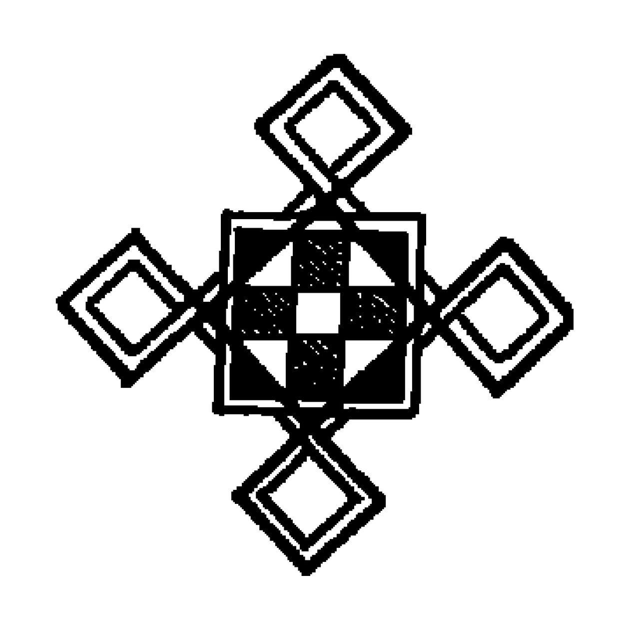
لذلك يقبل أى عمل صغير نعمله ، و يطوبنا عليه .... بل كما يقول القديس يوحنا ذهبى الفم « ... إن الله يجول ملتمساً سبباً لخلاصك . حتى ولو دمعة واحدة تسكبها ... يسرع الله لأخذها، قبل أن يخطفها منك شيطان المجد الباطل .



ولكن ليس معنى هذا أن نتهاون معتمدين على حنو الله ومحبته .

حقاً إن الله مستعد أن يقبل منا العمل الصغير . ولكن علينا نحن أن نبذل كل الجهد، وأن نقاوم حتى الدم، مجاهدين ضد الخطية (عب ١٢ : ٤) . وأن نسعى نحو القداسة التى بدونها لا يعاين أحد الرب . ونذكر باستمرار قوله « كونوا قديسين ، لأنى أنا قدوس » (١بط ١ : ١٦) (لا ١١ : ٤٤ ، ٤٥)... ونسير زمان غربتنا بخوف (١بط ١ : ١٧) « مكملين القداسة فى خوف الله » (٢كو ٧ : ١) .

* * *

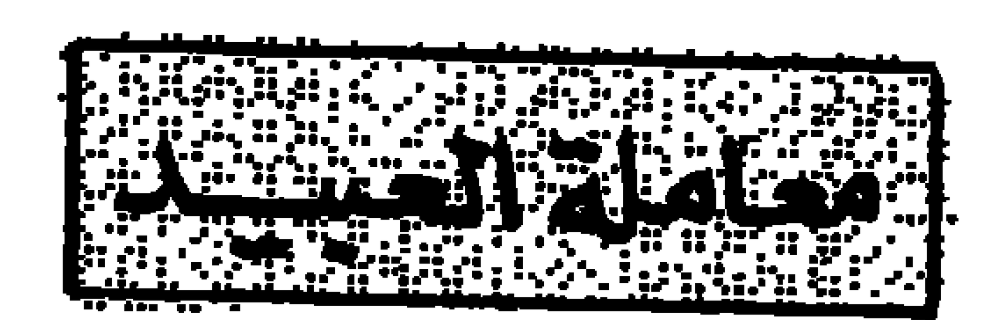


الفصل الرابع :

محبة الله فى شرائعه

١ - فى معاملة العبيد .
٢ - فى معاملة الغريب واليتيم والأرملة
٣ - فى معاملة الفقراء والمساكين .
٤ - شرائعه الخاصة بالرهن والقرض .
٥ - شرائعه فى منع الربا .
٦ - إنصاف المظلومين .
٧ - منع العنف .

شريعة الله مملوءة حباً لخليقته . كلها حنو وعطف ، على كل من هو محتاج إلى لمسة حنان ، يعلمنا بها كيف نعامل المساكين بالحب...



*** ومن ذلك : الشرائع الخاصة بالشفقة على العبيد .**

فقد شملت الوصايا العشر إراحة العبد فى اليوم السابع . إذ قال الرب فى تقديس هذا اليوم «لا تصنع عملاً ما : أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذى داخل أبوابك» (خر ٢٠: ١٠) . «لكى يستريح عبدك وأمتك مثلك . وأذكر أنك كنت عبداً فى أرض مصر...» (تث ٥ : ١٤، ١٥) .

* * *

وإلهنا المحب كما أراح العبد فى اليوم السابع ، أمر بتحريره فى العام السابع..

فقال «إذا اشتريت عبداً عبرانياً ، فست سنين يخدم، وفى السابعة يخرج حراً مجاناً... إن كان بعل إمرأة ، تخرج إمرأته معه..» (خر٢١: ٢، ٣) . «فى السنة السابعة، تطلقه حراً من عندك . وحين تطلقه حراً من عندك، لا تطلقه فارغاً . تزوده من غنمك ومن بيدرك ومن معصرتك ، كما باركك الرب إلهك تعطيه . واذكر أنك كنت عبداً فى أرض مصر..» (تث ١٥ : ١٢- ١٥) .

* * *

وفى معاملة العبد الهارب يقول الرب :

« عبداً أبَقَ إليك من مولاه ، لا تسلّم إلى مولاه . عندك يقيم فى وسطك فى المكان الذى يختاره فى أحد أبوابك حيث يطيب له . لا تظلمه» (تث٢٣: ١٥) . أى أن الله منح هذا العبد حق اللجوء إليك... فغالباً لا يهرب العبد من سيده إلا إذا كان فى خطر

منه، وكان السيد قاسياً عليه .

* * *

كذلك أعطى الرب العبيد والأجراء الاستفادة بغلة العام السابع .

فقال « وأما السنة السابعة ففيها يكون للأرض سبت عطلة، سبت للرب. لا تزرع حقلك، ولا تقضب كرمك. زريع حصيدك لا تحصد، وعنب كرمك المحول لا تقطف. سنة عطلة تكون للأرض، ويكون سبت الأرض لكم طعاماً : لك ولعبدك ولأمتك ولأجيرك ولمستوطنك النازلين عندك ولبهائمك » (لا ٢٥ : ٤ - ٧) .

* * *

وأمر الرب بالعتق لجميع العبيد فى سنة اليوبيل .

وهى السنة الخمسون فى العهد القديم، وتكون مقدسة وعيداً. وقال عنها الرب « وتقدسون السنة الخمسين. وتنادون بالعتق فى الأرض لجميع سكانها » (لا ٢٥ : ١٠) ... حتى الذى باع أرضه، يرد إلى ملكه فى سنة اليوبيل (لا ٢٥ : ١٠، ٢٨) .



* ظهرت محبة الرب أيضاً فى معاملة الغريب .

فقال « ولا تضايق الغريب. فإنكم عارفون نفس الغريب، لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر» (خر٢٣ : ٩) . وقال أيضاً « وإذا نزل عندك غريب فى أرضكم، فلا تظلموه. كالوطنى منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم. وتحبه كنفسك لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر» (لا ١٩ : ٣٣) . وقال الرب أيضاً عن معاملة الغرباء فى الأحكام «حكم واحد يكون لكم: الغريب يكون كالوطنى» (لا ٢٤: ٢٢) .

* * *

* وفى الشفقة على الغريب واليتيم والأرملة :

قال الرب «وإذا افتقر اخوك وقصرت يده عندك، فاعضده غريباً أو مستوطناً، فيعيش معك» (لا ٢٥ : ٣٥) ... «ولا تضطهد الغريب ولا تضايقه... ولا تسىء إلى أرملة ولا يتيم. إن أسأت إليه، فإنى إن صرخ إلىّ أسمع صراخه، فيحمى غضبى

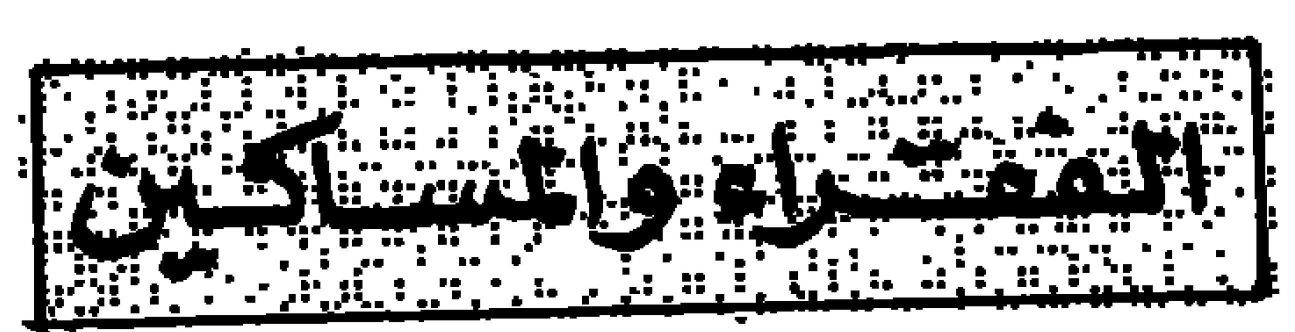
واقتلكم بالسيف . فتصير نساؤكم أرامل ، وأولادكم يتامى » (خر ٢٢: ٢١- ٢٤) .

* * *

وقال عن نصيب الغريب واليتيم والأرملة فى موسم الحصاد وفى العشور:

★ وعندما تحصدون حصيد أرضكم ، لا تكمل زوايا حقلك ، ولقاط حصيدك لا تلتقط . وكرمك لا تعلله ، وبثار كرمك لا تلتقط . للمسكين والغريب تتركه » (لا ١٩ : ٩، ١٠) . وقال أيضاً « إن حصدت حصيدك فى حقلك ، ونسيت حزمة فى الحقل ، فلا ترجع لتأخذها . للغريب واليتيم والأرملة تكون ، لكى يباركك الرب إلهك فى كل عمل يديك . وإذا خبطت زيتونك، فلا تراجع الأغصان وراءك . للغريب واليتيم والأرملة تكون » (تث ٢٤ : ١٩- ٢١) .

وقد أمر الرب أيضاً باعطاء اللاوى والغريب واليتيم والأرملة عند تعشير كل عشور المحصول ، لكى يأكلوا و يشبعوا (تث ٢٦ : ١٢) . وقال أيضاً « فى آخر ثلاث سنين ، تخرج كل عشر محصولك فى تلك السنة وتضعه فى أبوابك ، فيأتى اللاوى لأنه ليس له قسم ولا نصيب معك، والغريب واليتيم والأرملة الذين فى أبوابك، فيأكلون و يشبعون لكى يباركك الرب إلهك فى كل عمل يدك الذى تعمل » (تث ١٤ : ٢٨، ٢٩) .



★ **وما أكثر وصايا إلهنا المحب فى العطف على الفقراء :**

فقال « إن كان فيك فقير ، أحد من أخوتك فى أحد أبوابك فى أرضك ... فلا تقسّ قلبك ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير. بل افتح يدك له » (تك ١٥ : ٧ ، ٨) .

بل يقول الكتاب أيضاً « الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب هى هذه : افتقاد اليتامى والأرامل فى ضيقهم ، وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم» (يع ١ : ٢٧) . و يقول الكتاب أيضاً « من يسد أذنيه عن صراخ المسكين، فهو أيضاً يصرخ ولا يستجاب » (أم ٢١ : ١٣) .

* * *

بل الرب يعتبر من يقدم إلى المساكين ، كأنه يقدم له شخصياً .

فيقول للذين يقفون عن يمينه فى يوم الدين «تعالوا إلىّ يا مباركى أبى، رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم. لأنى جعت فأطعمتمونى. عطشت فسقيتمونى. كنت غريباً فآو يتمونى، عرياناً فكسوتمونى، مريضاً فزرتمونى، محبوساً فأتيتم إلىّ... الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتى هؤلاء الأصاغر، فبى قد فعلتم» (مت ٢٥ : ٣٤- ٤٠).

* * *

إن الشفقة على المساكين، جعلها الرب من أساسيات مسحته.

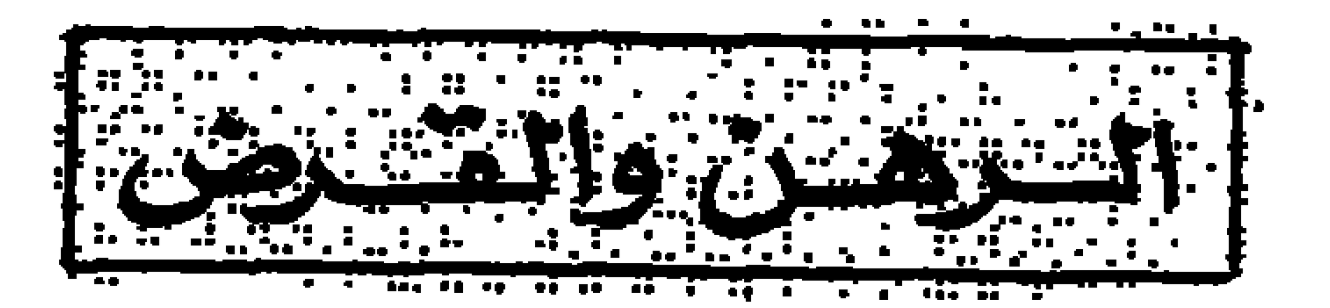
فقال « روح السيد الرب علىّ، لأن الرب مسحنى لأ بشر المساكين، أرسلنى لأعصب منكسرى القلب، لأنادى للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالإطلاق... لأعزى كل النائحين... لأعطيهم جمالاً عوضاً عن الرماد، ودهن فرح عوضاً عن النوح..» (أش ٦١ : ١- ٣).

* * *

★ وتظهر محبة الله أيضاً فى منع تأخير أجرة الأجير أو طلب الفقير:

فيقول فى ذلك «لا تظلم أجيراً مسكيناً وفقيراً من أخوتك أو من الغرباء الذين فى أرضك فى أبوابك. فى يومه تعطيه أجرته، ولا تغرب عليها الشمس، لأنه فقير وإليها حامل نفسه. لئلا يصرخ إلى الرب فتكون عليك خطية» (تث ٢٤ : ١٤، ١٥).

و يقول الكتاب أيضاً «لا تمنع الخير عن أهله، حين يكون فى طاقة يدك أن تفعله. لا تقل لصاحبك اذهب وعد فاعطيك غداً، وموجود عندك» (أم ٣ : ٢٧، ٢٨).


الرهن والقرض

★ وقد ظهرت محبة الرب أيضاً فى شريعة الرهن والقرض.

فمنع أن يسترهن شخص الأساسيات التى يحتاجها الفقير وتكون ضرورية له. فقال: «إن ارتهنت ثوب صاحبك، فإلى غروب الشمس ترده له. لأنه وحده غطاؤه. هو ثوبه لجلده. فى ماذا ينام؟! فيكون إذا صرخ، إلىّ، إنى أسمع. لأنى رؤوف» (خر ٢٢ : ٢٦، ٢٧).

وقال أيضاً «لا يسترهن أحد رحى أو مرداتها، لأنه إنما يسترهن حياة» (تث٢٤: ٦). ذلك لأن الرحى التى يطحن عليها صاحبها غذاءه، أو يستخدمها لرزقه، إنما تمثل حياة بالنسبة إليه.

و بالمثل قال « لا تسترهن ثوب الأرملة » (تث ٢٤ : ١٧) .

* * *

ومن الناحية النفسية أو الإنسانية فى مسألة القرض والرهن، قال الرب «إذا اقرضت صاحبك قرضاً، فلا تدخل بيته لكى ترتهن رهناً منه. فى الخارج تقف. والرجل الذى تقرضه، يخرج إليك الرهن إلى خارج. وإن كان رجلاً فقيراً، فلا تنم فى رهنه. ردّ إليه الرهن عند غروب الشمس، لكى ينام فى ثوبه و يباركك، فيكون لك برّ لدى الرب إلهك» (تث٢٤: ١٠-١٣).

* * *

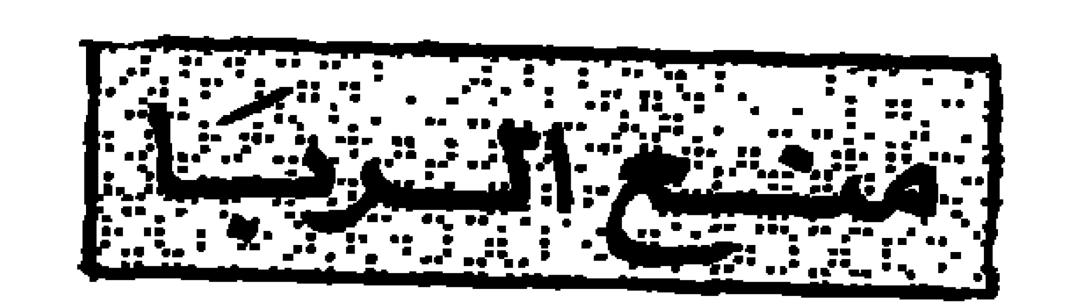
كل هذه كانت وصايا فى العهد القديم، التى تناسب مستوى روحيات الناس وقتذاك. أما فى العهد الجديد، فإن الرب يقول فى العظة على الجبل «من سألك فاعطه. ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده» (مت٥: ٤٢). وقال أيضاً «إن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم، فأى فضل لكم؟! فإن الخطاة أيضاً يفعلون هكذا. بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا واقرضوا و وأنتم لا ترجون شيئاً، فيكون أجركم عظيماً، وتكونوا بنى العلّى» (لو٦: ٣٤، ٣٥) «كل من سألك فاعطه. ومن أخذ الذى لك، فلا تطالبه» (لو٦: ٣٠). وقال كذلك على لسان المعمدان «من له ثوبان، فليعط من ليس له. ومن له طعام فليفعل هكذا» (لو٣: ١١).

* * *

ومن محبة الله تعليمه عن الديون فى سنة الإبراء.

إذ قال « فى آخر سبع سنين تعمل إبراء. وهذا هو حكم الإبراء: يبرىء كل صاحب دين يده مما أقرض صاحبه. لا يطالب صاحبه أو أخاه، لأنه قد نوى بإبراء للرب» (تث١٥: ١، ٢).

* * *

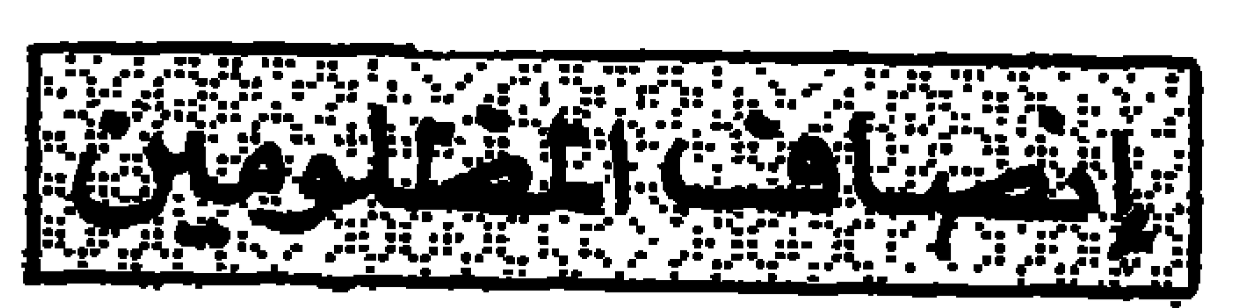


منع الربا

★ ومن محبة الله أيضاً تعليمه عن منع الربا :

إذ قال «لا تقرض أخاك بربا ، ربا فضة أو ربا طعام ، أو ربا شيء مما يقرض بربا» (تث٢٣ : ١٩) «لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة ، بل أخشَ الرب إلهك ، فيعيش أخوك معك . فضتك لا تعطه بالربا . وطعامك لا تعطه بالمرابحة» (لا ٢٥ : ٣٦ ، ٣٧) . «إذا أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك ، فلا تكن له كالمرابي . لا تضعوا عليه ربا» (خر٢٢ : ٢٥) .

لقد منع الله أخذ الربا من الفقير ، لأنه لا يملك ، ولأن أخذ الربا يزيده فقراً على فقر ، وهذا ضد الرحمة والمحبة . ويختلف الوضع بالنسبة إلى المصارف (البنوك) ، حيث أن المال الذي تضعه فيها ، تستخدمه في استثمار اقتصادي وتربح به . فتكون أنت شريكاً في هذا الربح ، باعتبار أنك شريك في رأس المال المستثمر...



إنصاف المظلومين

★ ومن محبة الله أيضاً الدفاع عن المظلومين والمساكين .

يقول المزمور عن الرب « الرب يحكم للمظلومين »(مز١٤٦ : ٧) . «الرب يقوّم المنحنين... الرب يحفظ الغرباء يعضد اليتيم والأرملة» (مز١٤٦ : ٨ ، ٩) . (مز١٤٥ : ١٤) . «الرب يجرى حكماً للمساكين وحقاً للبائسين» (مز١٤٠ : ١٢) .

ويقول الرب « من أجل شقاء المساكين وتنهد البائسين ، الآن أقوم - يقول الرب - أصنع الخلاص علانية » (مز١١ : ٥)

★ ★ ★

ويعطينا الكتاب مثلاً لدفاع الرب عن نابوت اليزرعيلي ، وعن أوريا الحثي .

فلما اغتصب أخاب الملك وزوجته إيزابل حقل نابوت اليزرعيلي ودبرا مؤامرة

فقتلاه، وإذا بالله يتدخل ويرسل إيليا النبى ليقول لآخاب الملك «فى المكان الذى لحست فيه الكلاب دم نابوت اليزرعيلى، تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً...» (١مل ٢١: ١٩). وقد كان. وانتقم الرب من آخاب وزوجته إيزابل، لدم نابوت اليزرعيلى الذى ظُلم منهما.

وبنفس الأسلوب، وبعقوبة أخرى، عاقب الرب داود الملك انتقاماً لدم أوريا الحثى الذى ظُلم منه وتم قتله (٢صم ١٢: ٧-١٢).

وبالمثل انتقم الرب لدم هابيل الصديق الذى قتله أخوه (تك ٤).

* * *

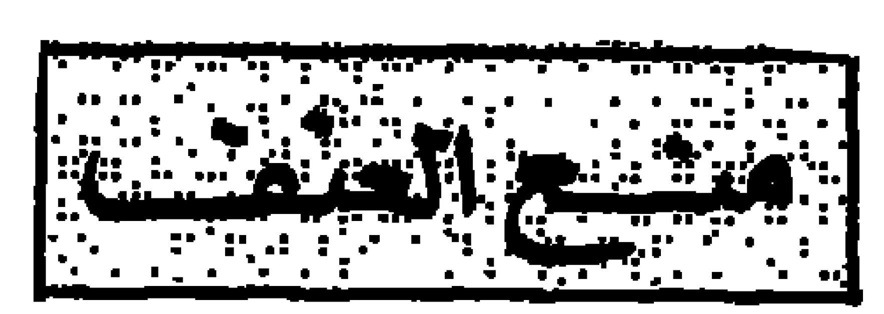
ولكى ينقذ الرب الذين قتلوا خطأ، أقام لهم مدن الملجأ.

فأمر موسى بتخصيص ست مدن تسمى (مدن الملجأ). وقال فى ذلك: «تعينون لأنفسكم مدناً تكون مدن ملجأ لكم، ليهرب إليها القاتل الذى قتل نفساً سهواً. فتكون لكم المدن ملجأ من الولى، لكى لا يموت القاتل، حتى يقف أمام الجماعة للقضاء...» (عد ٣٥: ١١، ١٢)... ما أعجب محبة الله وحنوه، إذ يشفق على هؤلاء، ويحميهم من ولى الدم...

* * *

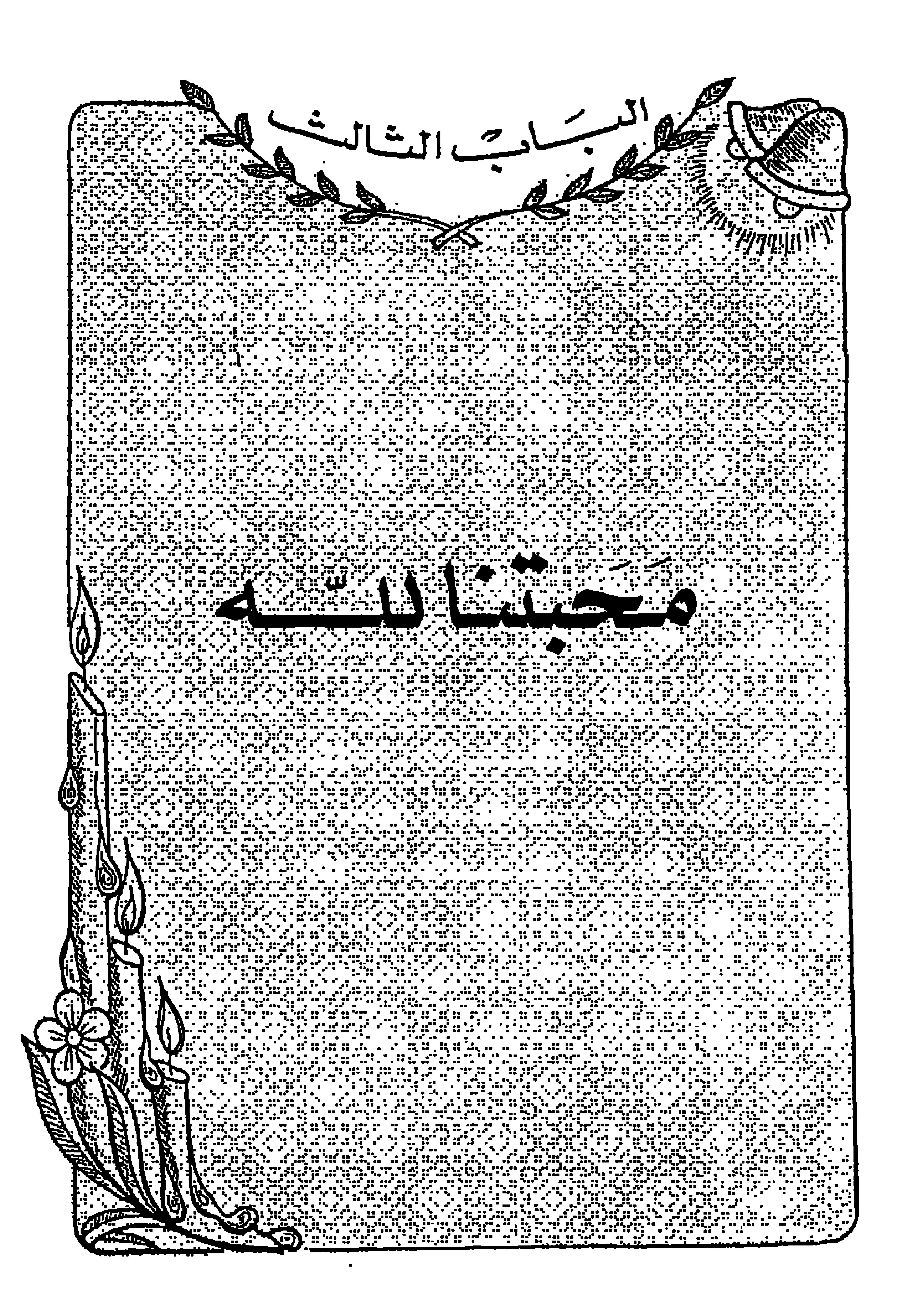
وتثبيتاً للعدل حتى لا يُظلم أحد، أمر أن لا تقبل شهادة رجل واحد.

وقال فى ذلك «لا يقوم شاهد واحد على إنسان فى ذنب ما أو خطية ما من جميع الخطايا التى يخطىء بها. على فم شاهدين أو فم ثلاثة شهود يقوم الأمر» (تث ١٩: ١٥)... مع معاقبة شهود الزور (تث ١٩: ١٦-٢١).



* ومن محبة الله أنه منع العنف والتسلط (لا ٢٥: ٤٣، ٤٦، ٥٣).

* ومن محبته أيضاً منع أن يرسلوا إلى الحرب الرجل الخائف، أو الذى خطب فتاة، أو المتزوج حديثاً. فقال «إذا اتخذ رجل إمرأة جديدة، فلا يخرج فى الجند، ولا يحمل عليه أمر ما. حراً يكون فى بيته سنة واحدة، ويسرّ إمرأته التى أخذها» (تث ٢٤: ٥). انظر أيضاً (تث ٢٠: ٥-٨).



الباب الثالث

مَحبتنا لله

فصول هذا الباب :

١- أهمية محبتنا لله ، ونتائجها .

٢- لماذا نحب الله ؟ وما هى عوائق المحبة .

٣- كيف نحب الله ؟

بعدم الاستغناء عنه . بطرد كل محبة مضادة .

٤- نحب الله بتذكار إحساناته إلينا .

٥- نحب الله بالتفكير فيه .

٦- نحبه باتخاذه صديقاً ، وبعشرته .

٧- نحبه بتأمل صفاته الجميلة وعلاقته بقديسيه .

٨- نحبه بتأمل سير القديسين الذين أحبهم وأحبوه .

٩- نحب الله ، بالصلاة ، صلاة الحب .

١٠- وسائل أخرى لمحبة الله :

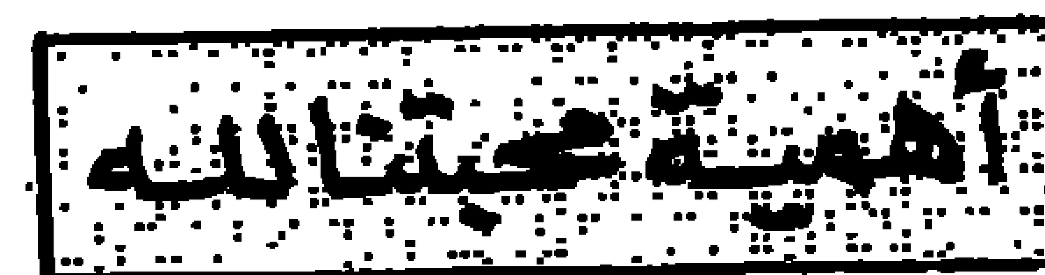
مخافة الله / محبة الخير / محبة الناس .

وسائط النعمة / تذكار الموت والأبدية .

١١- علامات محبتنا لله .

الفصل الأول :

أهمية محبتنا لله ونتائجها



أهمية محبتنا لله

إن الله لا يريد منك سوى شيء واحد ، فيه تكمن جميع الوصايا ، وهو المحبة . إن أحببت الله تكمل كل ما هو مطلوب منك . وإن لم تكن تحبه ، فباطل هو كل عملك .. !

فالله يريد قلبك ، وقلبك كله . وهكذا قيل فى شريعة موسى « تحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل فكرك ، ومن كل قدرتك » (تث ٦) . وقد أكد السيد المسيح هذه الوصية فى (مت ٢٢) . ويقول الرب فى سفر الأمثال « يا ابنى اعطنى قلبك » (أم ٢٣ : ٢٦) . واعطاؤه قلبك تعنى كل القلب ، وليس مجرد جزء منه . وإلا فما هو مصير باقى الأجزاء .

* * *

إن الدين يا أخوتى ، ليس هو مجرد حلال وحرام !

أو مجرد أوامر ونواهي ، وناموس ونعمة ، بقدر ما هو حب ، نحو الله والناس . ومن هذا الحب ينبع كل خير .

وإن كنت لا تحب الله والناس ، فلست إنساناً متديناً ، مهما كانت لك صلوات وأصوام وقراءات وتأملات ، ومنح وعشور وخدمة ووعظ ...

فالله يريد الحب ، وليس مجرد الممارسات .

لا تظن أن الله يطلب منك واجبات أو فروضاً ، أو مجرد وصايا ترغم نفسك عليها ، لكى تظهر مطيعاً لأوامره ، أو لتكون باراً فى عينى نفسك ... إن كل ما يريده هو أن تحبه كما أحبك . وهذا الحب الذى يريده ليس هو أمراً موجهاً إليك ، إنما هو متعة مقدمة منه لك . تشعر فيها بالفرح ، إن كان قلبك نقياً وحياتك روحية ...

إن كنت لا تحب الله ، فأنت لم تعرفه بعد .

على أن معرفة الله أمر من المفروض أن يكون للمبتدئين. أما عن الكاملين فالمطلوب منهم هو الثبات فى الله ، كما يقول «اثبتوا فىّ وأنا فيكم» تماماً «كما يثبت الغصن فى الكرمة» (يو١٥) . فهل تشعر أنك فى الله كالغصن فى الكرمة ، وعصارة الكرمة تسرى فيك ، وتصبح على صورتها .

* * *

أنت لست غريباً عن الله ، ومحبته ليست غريبة عليك .

فأنت ابن له . والمفروض أن الابن يحب أباه . وأنت هيكل لروحه القدوس ، وروح الله ساكن فيك (١كو٣، ٥) . هو الأصل وأنت فرع . هو الرأس وأنت عضو فى الجسد . حقاً كما قال بولس الرسول «هذا السر عظيم» (أف ٥) .

إن كان الحب الحقيقى لله ، هو الثبات فيه ، فماذا تكون الخطية إذن سوى انفصال عن الله ، إذ ليست هناك شركة بين النور والظلمة ... ما أصعب أن تتحول من الحب إلى الخصومة !!

* * *

أنت تحب الله ، وتحب كل الناس داخل محبة الله .

لا تسمح بوجود محبة فى قلبك تتعارض مع محبة الله ، فهذه خيانة لله الذى خلقك ورعاك وفداك... والكتاب يقول «محبة العالم عداوة لله» (يع ٤) . وقيل «إن أحب أحد العالم ، فليست فيه محبة الآب» (١يو٢) . ولذلك فإن الكنيسة تقول لنا فى كل قداس «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم . لأن العالم يبيد وشهوته معه» (١يو٢) .

* * *

كذلك لا نحب أحداً أو شيئاً أزيد من محبتنا لله .

فقد قال الرب «من أحب أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقنى . ومن أحب إبناً أو إبنة أو زوجة أكثر منى فلا يستحقنى» ... وهكذا قال الآباء الرسل «ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس» .. بل حتى نفسك ، لا تحبها أكثر من الله ، بل تضبطها وتقمعها فى طاعته . وتنكر ذاتك ، وتبغض نفسك من أجل الرب... وإذا أحببت الله من كل

القلب ، لا تسمح لأى شيء أن يفصلك عنه . فقد قال الرسول :

« من يفصلنى عن محبة المسيح ؟! ... » (رو ٨) .

لا شدة ولا ضيق ، ولا قوات حاضرة ولا مستقبلة ... ولا أية شهوة أو رغبة ... ما أعجب قصة ذلك القديس الذى كان سائراً فى البرية يصلى . فأتى ملاكان سار واحد عن يمينه ، والآخر عن يساره ، ولكنه لم يسمح لنفسه أن ينشغل بهما عن صلاته . بل قال فى فكره « من يفصلنى عن محبة المسيح ؟! لا ملائكة ولا رؤساء ملائكة » !! واستمر فى عمق صلاته ...

* * *

إن كل محبة تبعدك عن محبة الله هى محبة غريبة خاطئة .

وكل محبة تنافس الله فى قلبك ، اهرب منها .

ولكنك يمكنك أن تحب كل الناس من أجل الله ، وداخل محبة الله . تحبهم فى المسيح يسوع الذى أحبهم . ولا تحبهم أكثر من الله . وحتى العالم الخاطيء ، تحبه أيضاً لكى تقوده إلى محبة الله ، لا لكى يشغلك عنه ...

* * *

القلب كله ملك لله ، فلا تسلبه شيئاً من حقوقه .

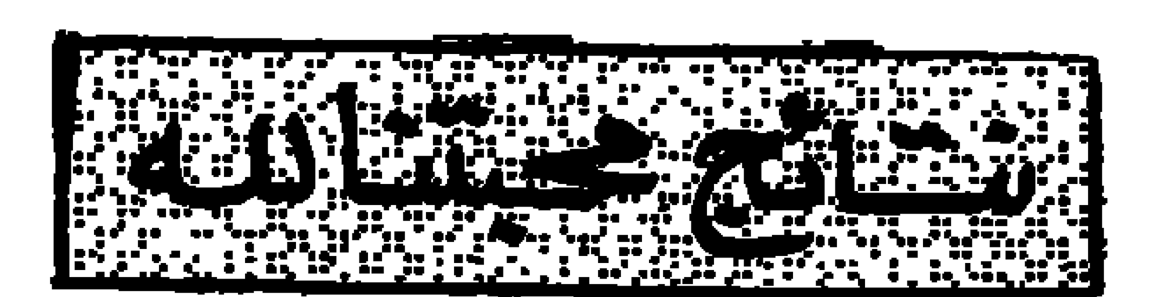
إن كان قد قال عن العشور « سلبتمونى ، قال الرب » (ملا ٤) ، فكم بالأكثر نسلبه ، إن أعطينا قلبنا لشيء ضده ، أو فضّلنا آخر عليه ؟! لذلك شبهت النفوس المحبة لله بالعذارى . وقيل فى سفر النشيد « أحبتك العذارى » (نش ١) . واللائى دخلن الملكوت شبهن بخمس عذارى حكيمات (مت ٢٥) . وقال بولس الرسول « خطبتكم لرجل واحد ، لأقدم عذراء عفيفة للمسيح ... » (فلماذا هذه التشبيهات كلها ؟

لأن العذراء لم تعطِ ذاتها لآخر ...

وينطبق الإسم على كل نفس لم تعطِ قلبها لغير الله . ويتساوى فى هذا المتزوجون وغير المتزوجين ، مادام القلب فى محبته مكرساً لله وحده ... وهكذا قالت عذراء النشيد « أنا لحبيبى ، وحبيبى لى » أنا لست لشيء آخر... ونلاحظ هنا استخدام كلمة « حبيبى » بدلاً من كلمة ربى وإلهى ، بسبب عاطفة الحب ، التى ندعوه بها أبانا ...

إنه حب متبادل بين الله والنفس البشرية .

بسببه قال بولس الرسول «خسرت كل الأشياء، وأنا أحسبها نفاية لكى أربح المسيح ... وأوجد فيه» (فى ٣) ... فإن كنا نتعلق بشىء فى العالم يشغلنا عن محبة الله، فهذا دليل على أن محبتنا لله ليست كاملة ... لقد استطاع القديسون أن يفرغوا قلوبهم من كل حب ، لكي يكون الله هو الكل فى الكل فى قلوبهم ... لكى يكون الفكر كله لله ، والعاطفة كلها لله . فالحاجة إلى واحد ...



فإن أحببت الله ، تحب أن تتكلم معه ، فتحب الصلاة .

وتجد لذة فى الحديث مع الله . وتكون صلاتك مشبعة بالاشتياق إلى الله، وإلى البقاء فى حضرته . وتقول مع داود النبى «باسمك ارفع يدىّ، فتشبع نفسى كما من شحم ودسم» . فهل لك هذا الشبع الروحى فى الصلاة؟ هل الصلاة تغذيك وتعزيك وتفرحك، وتسمو بك فى أجواء عليا أرفع من مستواك؟ وهل كل كلمة من الصلاة لها مذاقة حلوة فى فمك وفى ذهنك ومصدراً لتأملات ؟!

أم أنت تقاوم نفسك وتغصب نفسك ، لكى تصلى ! أو تلتمس أعذاراً كثيرة لكى لا تصلى ؟! محتجاً بالتعب وضيق الوقت . بينما السبب الوحيد لعدم صلاتك ، هو أنك لا تحب الله . فلو كنت تحب الله ، كنت تشتاق إلى الحديث معه . ولو أحببت الصلاة، تحب الله . فمتى إذن تحبه وتحبها ؟

* * *

الذى يحب الله لا يخطىء ، لأن محبته لله تمنعه من مخالفته .

وهذا واضح من الرسالة الأولى للقديس يوحنا الرسول ، حيث يقول و يكرر إن «المولود من الله لا يخطىء» «لأن زرعه ثابت فيه» «والشرير لا يمسه» . بل يقول عنه أكثر من هذا إنه : «لا يستطيع أن يخطىء» (١يو٣، ٥) . أصبحت طبيعته لا تقبل الخطية . المحبة رفعته فوق مستوى الخطية ، وفوق مستوى الوصية ، وفوق مستوى الجسد ...

فهو يمتنع عن الخطية ليس خوفاً من العقوبة ، ولا رعباً من جهنم ، إنما بسبب محبته لله ، و بالتالى محبته للخير. وهنا نقول :

* * *

الإنسان الذى يحب الله ، تتحد مشيئته مع مشيئة الله .

فهو فى محبته لله يقول له « لا تسمح يارب أن أشاء شيئاً لا تريده أنت . لتكن مشيئتى إذن هى مشيئتك . ولتكن مشيئتك هى مشيئتى . بل ليتنى لا تكون لى مشيئة على الاطلاق . بل ما تضعه أنت فى فكرى ، وفى قلبى ، هو الذى أعمله بكل رضا وحب .

* * *

لذلك فالذى يحب الله لا يجد صعوبة فى تنفيذ وصاياه .

« لأن وصاياه ليست ثقيلة » كما قال القديس يوحنا الرسول « والذى يحب الله ، يحب وصاياه أيضاً » ويجدها سراجاً لرجله ونوراً لسبيله ، و يكون « فى ناموس الرب مسرته ، وفى ناموسه يلهج نهاراً وليلاً » و يقول للرب « وجدت كلامك كالشهد فأكلته » إنه أحلى من العسل والشهد فى فمى فرحت به كمن وجد غنائم كثيرة (مز ١١٩) .

* * *

وصية الله ليست صعبة أمامه ، لأنه لا توجد فى قلبه النقى أية شهوة خاطئة تقاوم وصية الله .

ولأنه يعمل بمضمون هذه الوصية ، حتى دون أن يقرأ عنها . إن المحبة رفعته فوق مستوى الوصية . ولم يعد داخلاً تحت سيطرتها . الوصية لا تشكل عبئاً عليه ، وهى ليست مجرد أمر ، بل هى نور يضىء له الطريق إلى الله ، حتى لا يضل بحيل العدو أو بخطأ الأفكار . إنها الوسيلة التى بها ينقى الله قلبه ، فيصير حسب قلب الله . إنها الطريقة التى تجعل منه صورة لله ومثاله . حقاً إن الله من محبته لنا ، منحنا وصاياه . ونحن من محبتنا له نطيع هذه الوصايا ، بل ونفرح بها كرسالة إلينا من الله الذى نحبه .

* * *

الذى يحب الله لا يرى أن الوصية تقيده ، بل ترشده .

إنها ليست قيوداً على إرادته ، ولا هى حدّ لحريته ، لأن الخطية والعادات السيئة هى التى تقيد حرية الإنسان ، وكلمة الله هى التى تحرره والذى يحب الله لا يرى الوصايا ضغطاً على إرادته ، لأن إرادته المتحررة تفرح بالوصايا التى قررها الله لمنفعتنا ...

الذى يحب الله ، يسعده أن يدعو جميع الناس إلى محبته .

مثلما فرح يوحنا المعمدان إذ رأى الناس يلتفون حول المسيح . وقال « من له العروس فهو العريس . أما صديق العريس فيرى و يفرح . لذلك فرحى قد صار كاملاً » (يو٣) .

لذلك فهو يخدم ، لأنه يحب الله ، ويحب ملكوته ، ويحب أن ينتشر هذا الملكوت ، وتنتشر كلمة الله ، و يزداد عدد الذين يتبعون طريق الرب ويحبونه .

* * *

وهكذا ينجح فى حياة الخدمة ، من يرى الخدمة حباً .

حباً لله وللناس وللملكوت . حبه لله يقوده إلى خدمتهم ، لكى يذوقوا و ينظروا ما أطيب الرب ... وكلما يخدمهم يزداد محبة لهم . وكلما يحبهم تزداد خدمته لهم .

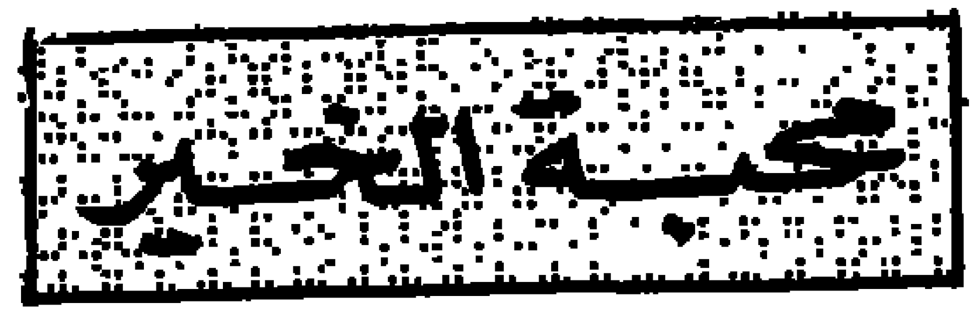
وهو حينما يعطى ، إنما يعطى عن حب ، لأنه مكتوب :

« المعطى المسرور يحبه الرب » .

لا عن طلب أجر من الله ، وإنما بسبب الاشفاق العجيب الذى فى قلبه من نحو المحتاجين . لذلك فإن عطاءه يرتفع فوق مستوى العشور والبكور والنذور ، و يرتفع فوق مستوى الأرقام . فيعطى بسخاء ولا يعير .

ولا يسأله الله كم أعطى ؟ وإنما كم أحب .

و يكافئه على الحب الموجود فى عطائه ، وليس عن الكمية ...



الذى يحب الله ، بالضرورة يحب الخير ، ويحب حياة القداسة .

محبة الإنسان لله توصله إلى محبة الفضيلة . كما أن محبة الفضيلة توصل أيضاً إلى محبة الله ، وتجعله يرتفع عن مستوى الصراع مع الخطية ، لأنه ما عاد يحبها ، بل أصبح يشمئز منها . لأنه ثبت فى الله ، والله نور ، والخطية ظلمة ، ولا شركة للنور مع الظلمة ...

الذى يحب الله ، يصبح هيكلاً للروح القدس ، والروح القدس يسكن فيه ، ويعمل به ومعه . وهو لا يمكن أن يسمح لنفسه بأن يحزن روح الله الذى فيه بخطية من الخطايا ، لذلك لا يخطىء ...

وهو يعرف تماماً أنه لو أخطأ ، يقول له الرب كما قال لملاك كنيسة أفسس «عندى عليك أنك تركت محبتك الأولى» (رؤ٢) .

ولكن الإنسان المحب لله حقاً ، هو ثابت فى محبته ، وثابت فى حياة القداسة التى بدونها لا يعاين أحد الرب .

وفى محبته للخير ، لا يجاهد للوصول إلى التوبة ، لأنه قد اجتاز هذه المرحلة ، إنما كل جهاده هو للنمو فى حياة البر وعمل الخير . إنه جهاد إيجابى ، وليس جهاداً سلبياً . هو انتقال فى حياة القداسة من درجة إلى درجة أعلى . إنه جهاد لذيذ بلا تعب داخلى .

فهو فى محبته للرب ، قد دخل إلى راحة الرب ، واستراحت روحه فيه . دخل إلى سبته الروحى الذى لا ينتهى ، يتدرج فيه من خير إلى خير أكبر ، بلا تغصب ، بل فى متعة روحية ، يفعل الخير تلقائياً بلا تغصب ...

* * *

هذا الذى يحب الخير لا يحتاج إلى الوصية التى تدعو إلى الخير . بل يصنع الخير بطبيعته الخيرة ، إذ صار الخير من مكونات طبيعته كصورة لله .

الذى يحب الله ويحب الخير ، يفعل الخير كشىء عادى طبيعى ، كالنفس الذى يتنفسه ، دون أن يشعر فى داخله أنه يعمل شيئاً زائداً أو عجيباً ، ودون أن يأخذه الزهو بما فعل . ولهذا فهو لا يفتخر مطلقاً بشىء من فضائله ، لأنه يراها شيئاً عادياً . وثانياً لأنه من محبته لله ، ينسب كل شىء حسن يعمله إلى عمل الله . كما قال بولس الرسول «لا أنا ، بل نعمة الله العاملة معى» (١كو١٥) .

* * *

الفصل الثانى :

لماذا نحب الله ؟

وما العوائق التى تمنع محبتنا له ؟

لماذا نحب الله ؟

فلنأخذ سفر النشيد الذى يعطينا مثالاً عن محبة النفس لله . فلماذا كانت تحبه ؟

١ ـ أول كل شىء ، هو أن حب الله متعتها ولذتها :

تقول له « حبك أطيب من الخمر» (نش ١ : ٢) . إنها محبة تسكر. تنتشى بها النفس . بل تقول «إنى مريضة حباً» (نش ٢: ٥) . أى أن محبة الله قد دغدغت جسمها ، فلم تعد تحتمل تلك الطاقة الجبارة من الحب الإلهى .

جسدها أضعف من طاقات الروح . فلم تعد طاقة الجسد تحتمل الحب الإلهى ، فأصبحت مريضة حباً ...

إنسان ترتفع درجة حرارة جسده ، إذ هو مريض جسدياً . وإنسان آخر ترتفع بالحب درجة حرارة روحه ، فإذا هو مريض حباً ... (مدروخ) من الحب الإلهى . مثلما قيل لبولس الرسول « كثرة الكتب حوّلتك إلى الهذيان يا بولس» (أع ٢٦: ٢٤) .

هذا الهذيان البولسى المقدس ، نشتهى نحن جميعاً أن نصاب به ...

إنسان من فرط الحب الإلهى الذى فيه ، يتكلم كلاماً لا يفهمه الناس ، ويشعر بشعور لا يدركه الناس ، فيحسبونه يهذى ... !

★ ★ ★

مشكلة أهل العالم ، أن محبة العالم تتصارع فيهم مع محبة الله . فالجسد يشتهى ضد الروح التى تشتهى الله (غل ٥ : ١٧) . فهم يلتذون بالعالم، فيما يريدون أن

يحبوا الله !! وهكذا يوجد فى حياتهم شىء من التضاد ومن التناقض، ومن الصراع، بغير استقرار.

أما الإنسان الذى يحب الله حقاً ، ومحبة الله هى متعته ، فليس فيه صراع ولا تضاد . ولا يتعب فى تنفيذ وصية الله ، لأنها لذته ...

إنه يتغنى بوصايا الله ، كما تغنى بها داود فى مزاميره « وصاياك هى لهجى » « سراج لرجلى كلامك ، ونور لسبيلى » « محبوب هو اسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتى » (مز ١١٩) ... أو كما تقول عذراء النشيد « اسمك دهن مهراق » ونترجمها فى القداس الإلهى « طيب مسكوب هو اسمك القدوس » ...

« طيب مسكوب هو اسمك ، لذلك أحبتك العذارى » (نش ١ : ٣) . ونعنى بالعذارى النفوس التى لم تعطِ ذاتها لآخر، إذ أحبت الرب من كل القلب . سواء أكانت هذه النفوس من البتوليين ، أو المتزوجين . لذلك فإن الكتاب . لقبّ كل الذين يخلصون بخمس عذارى حكيمات ...

* * *

٢ ـ النفس تحب الله ، لأنها لا تجد له شبيهاً ...

كما نغني له فى التسبحة ونقول « من فى الآلهة ، يشبهك يارب ؟! أنت الإله الحقيقى ، صانع العجائب .. » .

إن الله ، إذا قارنا محبته بكل مشتهيات العالم ، وكل آلهته ، نجده يفوقها جميعاً ، لذلك تقول عذراء النشيد :

« حبيبى أبيض وأحمر، معلم بين ربوة » (نش ٥ : ١٠) .

أبيض فى نقاوة قلبه ، وفى أنه النور الحقيقى ... وأحمر فى الدم المسفوك لأجلنا ولأجل خلاصنا ... وهو مميز بين ربوة . أى إن وضعت حبيبى بين عشرة آلاف ، أجده مميزاً بينهم .... متى إذن يتميز الله فى قلبك عن كل مشتهيات الدنيا وكل سكانها ، وتجده يفوقهم جميعاً ... ؟

كل شهوات العالم زائلة ، تنتهى بعد حين ، أما محبة الله ، فتبقى إلى الأبد . شهوات العالم سطحية ، أما محبة الله فلها عمق ، ولها قدسية ، وترفع مستوى الإنسان ،

فى حين أن شهوات العالم تهبط بمستواه...

كلما أحبك يارب، ترفعنى إليك، لأعيش فى السماويات. أما إن أحببت العالم، فإنه يهبطنى معه إلى الأرض، إلى التراب والأرضيات...

* * *

٣ ـ نحن أيضاً نحب الله من أجل بهائه.

إنه « أبرع جمالاً من بنى البشر » (مز ٤٥ : ٢).

تناديه عذراء النشيد فتقول « ها أنت جميل يا حبيبى » (نش ١ : ١٦). فهل حقاً ترى الله كذلك؟

ربما إنسان يسير فى طريق الله، فيجد أن الباب ضيق، والطريق كرب (مت٧: ١٤). ويجد أن الوصية ثقيلة، ولولا خوف الأبدية ما كان يستمر. فيقول للرب: من أول معرفتى لك، عرفت التجارب والضيقات (يو١٦: ٣٣). وعرفت الصليب وجثسيمانى، وعرفت البكاء والدموع (مت ٥: ٤).

وهكذا لا يرى الحياة مع الله جميلة !!

أما الذى يحب الله، فكل شىء جميل فى عينيه: الله وصليبه، وتجاربه، ووصاياه.

ويرى طريق الرب حلواً، مهما كان ضيقاً ... يكفى أنه يوصل إلى الملكوت... ولاتحزنه التجارب، إذ يرى فيها بركاتها، فيغنى مع يعقوب الرسول « احسبوه كل فرح يا أخوتى، حينما تقعون فى تجارب متنوعة » (يع ١: ٢). وينشد مع بولس الرسول « افرحوا فى الرب كل حين، وأقول أيضاً افرحوا » (فى ٤: ٤) ومن أجل محبته لوصايا الله، يقول مع يوحنا الرسول إن « وصاياه ليست ثقيلة » (١يو٥: ٣).

عذراء النشيد تغنى بجمال الرب فتقول:

« حلقه حلاوة. كله مشتهيات » (نش ٥ : ١٦) « فتى كالأرز، طلعته كلبنان » (نش٥: ١٥)... وتشرح باقى صفاته. حقاً إن الوجود مع الله، هو شهوة نشتهيها. وكما قال بعض الآباء إن القداسة هى استبدال شهوة بشهوة، إذ نترك شهوة

العالم ، لنحظى بشهوة التمتع بعشرة الله... نشتهى الله وكل ما يتعلق به ، وكل ما يوصلنا إليه . ونجد فيه لذتنا وفرحنا ومعه لا يعوزنا شىء...

ما أجمل التأمل فى صفات الله . إنها تغرس محبته فى القلب .

الله المحب ، الطويل الروح ، الكثير الرحمة ، الجزيل التحنن ، الذى لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا (مز١٠٣) . الله الكلى القداسة ، الكلى الحكمة ، الكلى القدرة ، المخبأة فيه كل كنوز الحكمة والعلم (كو٢ : ٣)... الله الذى نتغنى بصفاته فى القداس الغريغورى وفى تحليل آخر كل ساعة ، وفى صلوات المزامير.

* * *

٤ ـ نحب الله ، لأنه أحبنا قبلاً (١يو ٤ : ١٩) .

هو الذى أحبنا وفدانا . لأنه « هكذا أحب الله العالم ، حتى بذل ابنه الوحيد ، لكى لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية » (يو٣ : ١٦)... « هذه هى المحبة . ليس أننا نحن أحببنا الله . بل أنه هو أحبنا ، وأرسل ابنه كفارة لخطايانا » (١يو٤ : ١٠) .

نحبه لأنه نقشنا على كفه (أش ٤٩ : ١٦) . ووعدنا بأن « كل آلة صُورّت ضدنا لا تنجح » (اش٥٤ : ١٧) ، وأن أبواب الجحيم لن تقوى علينا (مت١٦ : ١٨) . وما أكثر وعوده المعزية ...

* * *

٥ ـ نحب الله ، لأنه أبونا ، وراعى نفوسنا .

هو الذى تغنى داود برعايته فقال « الرب يرعانى فلا يعوزنى شىء . فى مراع خضر يربضنى . إلى ماء الراحة يوردنى . يرد نفسى ، يهدينى إلى سبل البر..» (مز٢٣) . هو الراعى الصالح الذى يبذل نفسه عن الخراف (يو١٠ : ١١ ، ١٤) . وهو الذى قال « أنا أرعى غنمى وأربضها... وأطلب الضال ، وأسترد المطرود ، وأجبر الكسير ، واعصب الجريح » (حز٣٤ : ١٦) . وعذراء النشيد تسميه « الراعى بين السوسن » (نش٢ : ١٦) .

هو الأب الحانى على أولاده ، الذين يعطيهم خيراته بكل سخاء ، و يهتم بهم ، و يغدق عليهم من عطاياه ، حتى أن داود النبى يقول فى المزمور «باركى يا نفسى الرب ، ولا تنسى كل احساناته ، الذى يغفر جميع ذنوبك ، الذى يشفى كل أمراضك ، الذى يفدى من الحفرة حياتك ، الذى يكللك بالرحمة والرأفة ، الذى يشبع بالخير عمرك ، فيتجدد مثل النسر شبابك» (مز١٠٣: ١-٥).

* * *

٦ - إننا نحب الله ، لأنه قوى ، يحرس و يسند .

تشعر النفس المحبة له ، أنها فى حمايته ، محاطة بقوة عجيبة . ينقذها بذراع قوية ، و بيد حصينة . فلا تخشى من خوف الليل ، ولا من سهم يطير بالنهار. فهو يعزيها بقوله «وإليك لا يقتربون ، بل بعينيك تنظر وترى مجازاة الأشرار» لذلك فهى تغنى قائلة «الساكن فى ستر العلى ، فى ظل القدير يبيت» (مز٩١: ١-٨).. «إن لم يحرس الرب المدينة ، فباطلاً يسهر الحارس» (مز١٢٧: ١).

* * *

٧ - إننا نحب الله لأسباب عديدة لا تحصى .

إذ أنه بمحبة الله ، يعيش الإنسان فى فرح دائم : يفرح بالرب الذى يقوده فى موكب نصرته (٢كو٢: ١٤)... و ينقله من خير إلى خير. و يفرح لتمتعه بالرب ، ولأن الخطية لا مكان لها فى قلبه ولا مكانة . لأن محبة الله طردتها . حقاً قد تحدث له حروب ومقاومات من الشيطان ، ولكنها مقاومات من الخارج فقط ، وأما قلبه من الداخل فيملك عليه السلام . وهكذا تجتمع فى القلب المحبة والفرح والسلام ، التى هى أولى ثمار الروح (غل٥: ٢٢).

نحن نحب الله ، لأن محبته تطرح الخوف إلى خارج قلوبنا (١يو٤: ١٨). فلو ملكت المحبة على قلوبنا ، لا نعود نخاف الله ولا الدينونة ، ولا نخاف الناس ، ولا الخطية ولا الشيطان...

نحب الله ، لأنه بمقدار محبتنا له سيكون فرحنا به فى الأبدية وستكون سعادتنا . لأن فى الأبدية «نجماً يمتاز عن نجم فى المجد» (١كو١٥: ٤١). وهذا الامتياز تحدده المحبة . فحسب مقدار محبتنا يكون امتياز درجتنا ومتعتنا فى الأبدية .

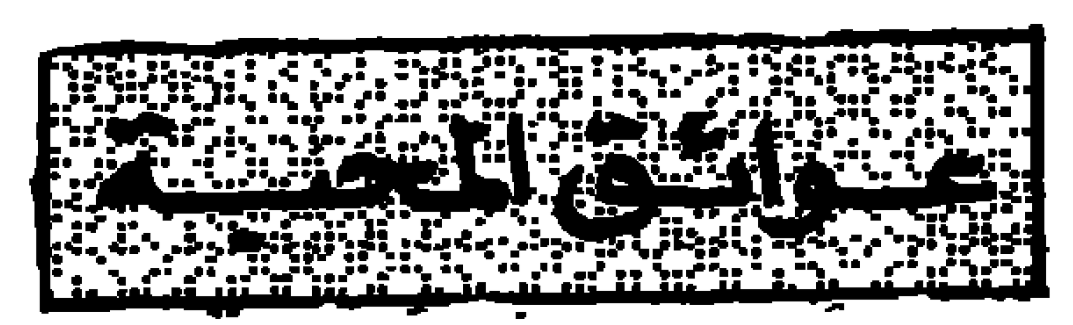
يا اخوتى ، أريدكم أن تدربوا أنفسكم على محبة الله . أخرجوا من مظاهر الحياة الروحية ، وادخلوا إلى عمق الحب .

واعلموا أن محبتكم لله ، هى التى تعطى روحياتكم عمقاً ...

لقد أنكر بطرس سيده ومعلمه ، وسب ولعن وقال لا اعرف الرجل (مت٢٦ : ٧٤). ولكن الرب لما عاتبه بعد القيامة ، لم يذكر له موضوع الإنكار، وإنما سأله قائلاً «يا سمعان بن يونا ، أتحبنى أكثر من هؤلاء ؟» (يو٢١: ١٥) . فأجاب بطرس «أنت تعلم يارب كل شيء. أنت تعلم أنى أحبك» ... وبهذه المحبة نال المغفرة ، ورجع إلى رتبته الرسولية ...

إن كانت محبة الله لها كل هذه الأهمية ، فلعلنا نسأل :

ما الذى يعوق محبتنا لله ؟



أول عائق ضد محبة الله هو الذات .

كثير من الناس يحبون ذواتهم أكثر من محبتهم لله !! ذاتهم هى الصنم الذى يتعبدون له : فيبحثون باستمرار عن رغبات هذه الذات وشهواتها ، ورفعة الذات ومجدها ، وكرامة الذات وانتقامها لنفسها ، ومجد هذه الذات ومديح الناس لها ، وشهرة الذات وعظمتها وظهورها... وفى سبيل ذلك ما أكثر الخطايا التى يقترفونها ، و يبعدون بها عن الله وعن محبته !! ولذلك قال الرب :

« من أراد أن يتبعني ، فلينكر ذاته ... » (مت ١٦ : ٢٤) .

وقال أيضاً « من وجد ذاته يضيعها . ومن أضاع حياته من أجلى يجدها» (مت١٦ : ٣٩) (مر٨: ٣٤، ٣٥) . ودعانا أن نبغض حتى أنفسنا من أجل محبته .. أى نبغض انحرافاتها التى تبعدنا عنه .. وليس فقط الذات ومحبتها وإنما أيضاً :

اسأل نفسك : هل هناك محبة أخرى تنافس الله فى قلبك ؟

حاول أن تطرد من قلبك كل محبة أخرى ضد محبة الله ، أو تزيد على محبة الله ...

لقد أحب شمشون دليلة أكثر من محبته لله . ومن أجلها فقد نذره (قض ١٦) . وأحب لوط الأرض العشبة فى سادوم ، أكثر من عشرة ابرام ومذبح الله ، فوقع فى سبى سادوم . «وكان البار بالنظر والسمع ... يعذب يوماً فيوماً نفسه البارة بالأفعال الاثيمة» (٢بط ٢: ٨) .

حتى المحبة المقدسة الطبيعية للأقرباء لا تجعلها تزيد عن محبتك لله . وفى ذلك قال الرب «من أحب أباً أو أماً أكثر مني فلا يستحقنى ، ومن أحب إبناً أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى» (مت ١٠: ٣٧) . فكثيراً ما يكون «أعداء الإنسان أهل بيته» (مت ١٠: ٣٦) ، إن كانوا يمنعونه عن محبة الله ، أو تكريس نفسه له ، أو يقودونه فى طرق مخالفة...

* * *

يمنعنا عن محبة الله أيضاً : محبة العالم والجسد والمادة .

وصدق الكتاب حينما قال « محبة العالم عداوة لله (يع ٤ : ٤) . «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم . إن أحب أحد العالم ، فليست فيه محبة الآب» (١يو٢: ١٥) . لذلك هرب آباؤنا من العالم ليتمتعوا بمحبة الله... فإن كنت أنت تعيش فى العالم ، فعلى الأقل تذكر قول الرسول «و يكون الذين يستعملون العالم كأنهم لا يستعملونه ، لأن هيئة هذا العالم تزول» (١كو١٧ : ٣١) .

وما أكثر ما تقف المادة ضد محبة الله ، كالمال مثلاً .

وقد أمرنا الرب بأن نبعد عنه كمنافس لله ، فقال «لا تقدرون أن تخدموا الله والمال» (مت٦: ٢٤) . وفى قصة الشاب الغنى ، نرى أنه مضى حزيناً ، لأنه كان ذا أموال كثيرة (مت ١٩ : ٢٢) . فإن كنت تملك مالاً ، فلا تجعل المال يملكك . أنفقه فى محبة الله والناس ، فيكون لك كنز فى السماء (مت ١٩ : ٢١) .

بقى الجسد ، الذى تقف شهواته عقبة ضد محبة الله .

وهكذا يقول الرسول « إن اهتمام الجسد هو موت . ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام . لأن اهتمام الجسد هو عداوة لله » (رو٨: ٦، ٧) . و يقول أيضاً «لأنه إن عشتم حسب الجسد فستموتون . ولكن إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو٨: ١٣) .

ابحث إذن هل جسدك يعوقك عن محبة الله ؟

ليس فقط شهوات الجسد فى الزنى ، وفى شهوة الطعام والشراب ، وإنما أيضاً فى محبة الراحة التى قد تعطلك عن الصلاة وعن الخدمة وإعانة الآخرين ...

* * *

قد تعوقك عن محبة الله أيضاً : المشغوليات .

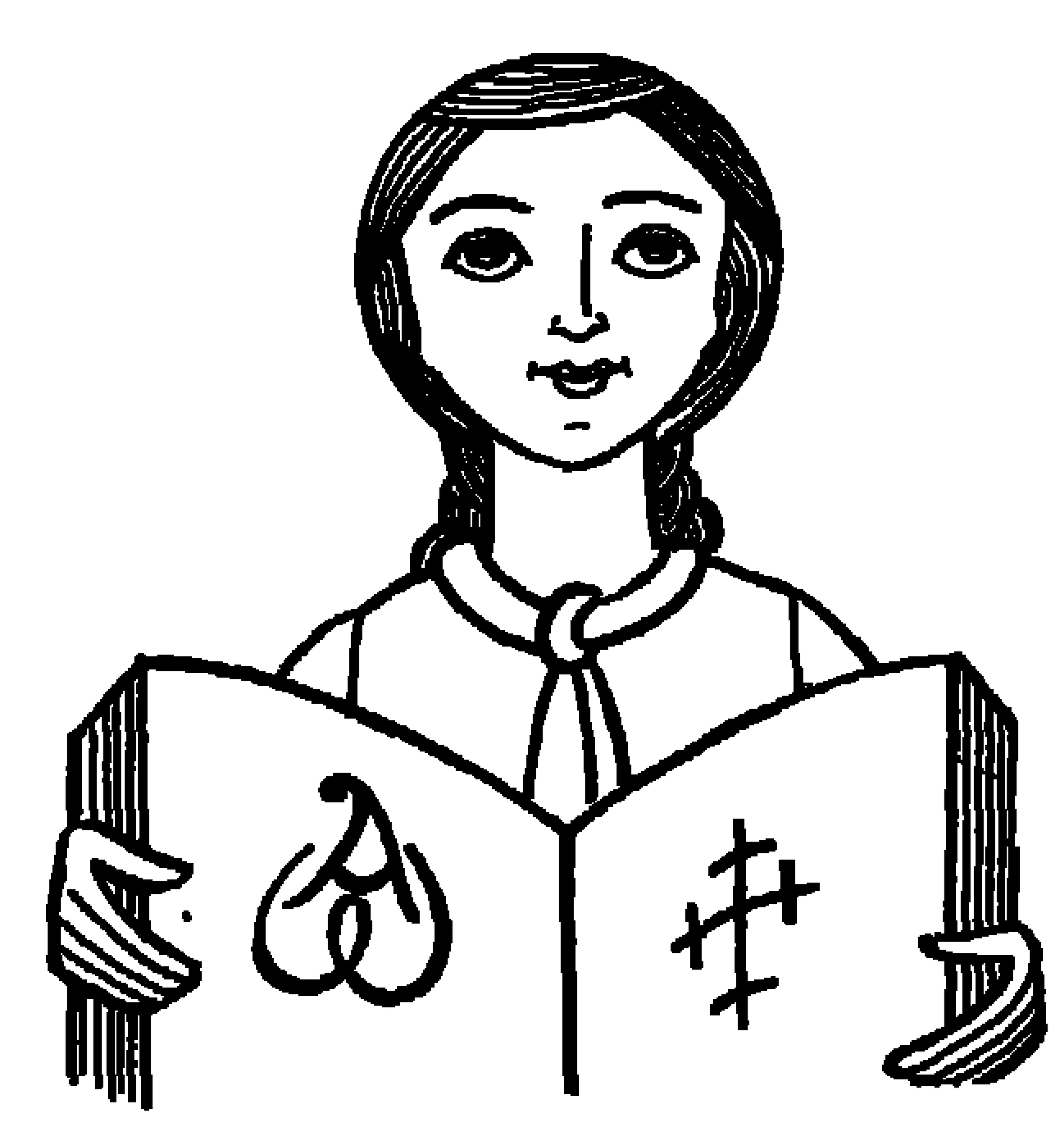
التى تستولى على كل وقتك وكل اهتمامك ، وتشغل فكرك وعواطفك ، ولا تبقى لك وقتاً تقضيه فى الصلاة أو التأمل ، أو قراءة كلمة الله ، أو حضور الاجتماعات الروحية ... وهكذا تبعدك المشغوليات عن الوسائط الروحية التى تعمق محبة الله فى قلبك ...

نصيحتى لك أن تمسك بميزان دقيق ، وتجعل لكل مشغولياتك حداً لا تتعداه ، فلا تطغى كفتها على حياتك الروحية ، لأن الرب يقول «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه» (مر٨: ٣٦) .

واهتم بمحبة الله والوسائط التى تؤدى إليها ، ولتكن لها المكانة الأولى فى قلبك . وقل مع داود النبى :

« وأما أنا فخير لى الالتصاق بالرب » (مز ٧٣ : ٢٨) .

لقد حدثتك عن محبة الله وأهميتها ودوافعها وموانعها . وبقى أن أتكلم معك بتفصيل عن كيف نحب الله ؟ وكيف نصل إلى محبته ؟ ...



الفصل الثالث:

كيف نحبّ الله ؟

كل إنسان متدين ، يهمه بالضرورة أن يرقى إلى محبة الله . ولعل الكل يسألون : كيف يمكننا أن نصل إلى محبة الله ؟ وسنضع أمامنا هنا بعض الوسائل .



* أنه ينبغى أولاً أن تتأكد من هذه الحقيقة :

إن الله هو الكائن الوحيد الذى لا يمكنك أن تستغنى عنه ...

سواء فى هذه الحياة ، أو فى الحياة الأخرى ...

كل خطوة من خطواتك تحتاج إلى حفظ الله وعنايته . كل طريق تسلك فيه يحتاج إلى معونة إلهية ، وما أكثر ما تحتاج إلى إرشاد إلهى ، وبخاصة حينما ترى الطرق قد تشعبت أمامك ، والأمور قد تعقدت . هنا تذكّر قول الرب فى الإنجيل «بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يو١٥: ٥).

إن الحياة مع الله ، تغرس سلاماً فى القلب ، وتبعد الإنسان عن الخوف ، وتمنحه ثقة فى وجوده.

* * *

فإن كنت لا تستغنى عن الله ، وهو لازم لك ولحياتك ، فلتكن لك إذن علاقة معه .

وإن وصلتْ هذه العلاقة إلى درجة الحب ، ستكون لك دالة أمامه حين تطلبه . وحتى دون أن تطلب ، ستجده يدبر أمورك حسب مشيئته الصالحة . وأنت نفسك ستكون مطمئناً جداً فى تسليم حياتك بين يديه .

لا تظن فى يوم ما أنك تستطيع أن تستقل بنفسك، مستغنياً عن الله، مكتفياً بعقليتك وما وصلت إليه من معرفة وخبرة وقوة!! فإن هذا سيقطع الصلة بينك وبين الله. وربما تشعر أيضاً فى تلك الحالة أنك لست فى حاجة إلى الصلاة.

ويأتى وقت وتقع فى ضيقة، فتستيقظ ...

وتعود إلى الله لتقول له: لست أستطيع يارب أن أستغنى عنك. إننى محتاج إليك فى مشاكلى. بل أنا محتاج أولاً إلى الصلح معك، وإلى عودة علاقتى بك، أو إلى تكوين علاقة جديدة معك... ويسمع الرب ويتحنن ويستجيب، لكى يقودك إلى محبته... أتراك إذن فى حاجة إلى ضيقات وتجارب لكى توصلك إلى محبة الله؟!

اترك المحبة المضادة

★ للوصول إلى محبة الله، ينبغى أن تبعد عن كل محبة مضادة، وبالتالى تبعد عن شهوات العالم ...

وقد ركز الرسول محبة العالم فى «شهوة الجسد، وشهوة العين، وتعظم المعيشة» (١يو٢: ١٦). وقال «إن أحب أحد العالم، فليست فيه محبة الآب... والعالم يبيد وشهوته معه...» (١يو١٥: ١٧). ومن أجل أهمية هذا الأمر، فإن الكنيسة فى كل قداس بعد قراءة الكاثوليكون، تردد على أسماعنا قول الرسول «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم» (١يو٢: ١٥). وقد قال القديس يعقوب الرسول «إن محبة العالم عداوة لله» (يع٤: ٤).

* * *

إنك لا تستطيع أن تعبد ربين، أو تخدم سيدين (مت ٦: ٢٤). فإما محبة الله، أو محبة العالم.

كلما ازدادت محبة العالم فى قلبك، فإن محبتك لله تقل. وكلما إزدادت محبتك لله، فعلى نفس القياس تقل محبتك للعالم وكل ما فيه، وتصبح كل شهواته تافهة فى نظرك، كما قال القديس بولس الرسول «خسرت كل الأشياء، وأنا أحسبها نفاية، لكى أربح المسيح، وأوجد فيه» (فى٣: ٨، ٩).

إن الكنيسة بلغت قمة محبتها لله فى عصر الاستشهاد ، وارتبط ذلك أيضاً بقمة زهدها فى العالم .

فالذى يشتهى شيئاً فى العالم ، لابد أن يشتهى أيضاً البقاء فيه . أما الذى يزهد العالم وشهواته ، فإنه يشتهى الانطلاق منه ليكون مع المسيح ، فذاك أفضل جداً (فى ١: ٢٣) ... وهكذا من أجل محبة الله ، كانوا يشتهون الاستشهاد ... وكانت أصوات التسابيح والصلوات تملأ سجونهم ، كما حدث مع بولس وسيلا وهما فى سجن فيلبى (أع ١٦: ٢٥) .

ونسمع فى قصة استشهاد القديس أغناطيوس الأنطاكى ، أنه حينما أرسله الحكام إلى رومه لإلقائه إلى الأسود الجائعة ، وأراد أهل رومه المسيحيون أن ينقذوه من الموت ، أرسل إليهم القديس أغناطيوس رسالة يقول لهم فيها «أخشى أن محبتكم تسبب لى ضرراً ...» .

كانت فى قلبه شهوة الموت ، للالتقاء بالله ...

أما الذى شهواته تكون فى العالم ، فإنه سيقول مع الغنى الغبى « أهدم مخازنى وابنى أعظم منها ، وأجمع هناك جميع غلاتى وخيراتى . وأقول لنفسى : يا نفسى ، لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين عديدة . فاستريحى وكلى واشربى وافرحى» (لو١٢: ١٨ ، ١٩) ... ولم يفكر ذلك الغنى فى الله ، ولم يرد اسمه على لسانه ولا فى فكره ، لأن قلبه متعلق بماله ومخازنه وخيراته الأرضية .

* * *

حقاً كما قال الرب : حيث يكون كنزك ، هناك يكون قلبك أيضاً (مت ٦ : ٢١) (لو١٢: ٣٤) .

فأين هو كنزك يا أخى ؟ هل هو على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ ، وينقب السارقون ويسرقون (مت٦: ١٩) ؟ هل كل كنوزك هى شهوات العالم وألقابه وأمجاده وألوان المتع التى فيه . وهناك قلبك أيضاً !! إذن فقلبك خالٍ من الله . والمحبة التى فى قلبك ، قد تحولت إلى العالم ، ولم يعد لله فيها نصيب ...

أتراك تستطيع أن تستمتع بالعالم ، كما فعل سليمان ؟!

الذى كانت له جنات وفراديس ، وعبيد وجوارى ، ومغنين ومغنيات ، وخصوصيات الملوك ، ومئات من النساء . ومهما اشتهته عيناه لم يمسكه عنهما (جا ٢ : ٤- ١٠) . وفى كل ذلك ابتعد عن الله « ولم يكن كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه » (١مل ١١ : ٤)... بل أنه استحق منه العقوبة التى استمرت مع نسله .

وكل ما تمتع به سليمان من متع العالم ، قال عنه أخيراً « ثم التفت أنا إلى كل أعمالى التى عملتها يداى ، وإلى التعب الذى تعبته فى عمله ، فإذا الكل باطل وقبض الريح ، ولا منفعة تحت الشمس » (جا ٢ : ١١) .

* * *

إذن ، لا تجعل قلبك فى شهوات العالم ، فإن الباب الواسع لا يوصل إلى الملكوت (مت ٧ : ١٣) .

متع العالم لن توصلك إلى الله ، بل هى تبعدك عنه ... وإن دخلت محبة العالم إلى قلبك ، فسوف ترى أن أفكارك ومثلك بدأت تهتز... وحينئذ ستناقش المثاليات التى كنت تؤمن بها ، وتقول : وما المانع أن أفعل كذا وكذا ؟! وما الخطأ وما الحرام فى أن أتمتع بكذا وكذا . وتبدأ فى سلسلة مساومات مع المبادىء والقيم !! والسبب فى كل هذه الأسئلة والمساومات والمناقشات ، هو أن محبتك لله قد قلت ...

* * *

إن بدأت محبة العالم تدخل إلى قلبك ، فبالضرورة محبتك لله ستقل ...

فهذه هى مأساة ديماس ، التى سجلها بولس الرسول بقوله « ديماس تركنى ، لأنه أحب العالم الحاضر » (٢تى ٤ : ٩) . وهذه هى أيضاً مأساة كثيرين كان يذكرهم القديس بولس فى رسائله ، ثم تحدث عنهم فى رسالته إلى فيلبى وهو باك وقال « الذين نهايتهم الهلاك ، ومجدهم فى خزيهم ، الذين يفتكرون فى الأرضيات » (فى ٣ : ١٨ ، ١٩) .

لعلك تقول : ولكنى أعيش فى العالم ...

نعم ، أنت تعيش فى العالم ، ولكن لا تجعل العالم يعيش فيك . كما قال

القديس بولس «والذين يستعملون هذا العالم، كأنهم لا يستعملون، لأن هيئة هذا العالم تزول» (١كو٧: ٣١)... عش فى العالم كغريب عنه كما عاش آباؤنا القديسون الذين «أقروا أنهم غرباء ونزلاء على الأرض... يبتغون وطناً أفضل أى سماوياً» (عب١١: ١٣، ١٦). كان بعضهم يملكون المال، ولكن المال لم يكن يملكهم لأن قلبهم كان كله لله.

* * *

ينبغى إذن أن تشعر بأن الله هو الوحيد الذى يملأ قلبك.

هو الذى يسكن فى أعماقك، فى أعماق الفكر والقلب. أما باقى ألوان المحبة فهى سطحية أو عابرة. ويكون لها عمق، كلما تكون نابعة من محبة الله، وليست متعارضة معه. إذن تحب كل ما يزيدك محبة لله وكل ما يقربك إليه. وإن كنت تريد محبة الله حقاً، كن حريصاً على كل المشاعر التى تدخل إلى قلبك، كرقيب عليها، تختبرها جيداً هل متفقة مع محبة الله أم لا... ولا تحاول أن تخدع نفسك أو أن تغيّر موازينك.

ناقش إذن مدى علاقتك بالماديات والجسدانيات.

فمحبتك لله تتناسب عكسياً مع هذه الأمور جميعها. وتذكر أن خطية الإنسان الأول، بدأت حينما اشتهى شهوة أخرى تتعارض مع محبة الله ووصيته.

ناقش أيضاً فى داخلك، ما هى المحبات الأخرى التى تنافس محبة الله فى قلبك؟ وكيف يمكنك التخلص منها؟ وهنا لابد أن يواجهنا سؤال هام وهو:

* * *

هل نحارب المحبات الأخرى، لتدخل محبة الله إلى قلوبنا؟ أم نبدأ بمحبة الله وهى التى تطرد المحبات الأخرى.

أتسأل بأيها تبدأ؟ إبدأ بأيها. وثق أن كلاً من الطريقين يوصل إلى الآخر.

إن شعرت أن كل محبة تتعارض مع محبة الله، هى محبة زائلة وخاطئة وشريرة ولا تملأ قلبك، فحينئذ ستزهدها، وتملك محبة الله على قلبك.. وإن حدث أن بدأت نعمة الله معك، وانسكبت محبته فى قلبك بالروح القدس (رو٥: ٥)، فستجد أن محبة الله قد طردت من قلبك كل محبة معارضة....

تذكر عبارة « تحب الله من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل قوتك » (تث ٦ : ٥) .

وأسأل نفسك : هل حقاً كل قلبى لله ؟ أم أن جزءاً بعيد عنه ؟ وضع فى نفسك أنك لا تستطيع أن تجمع بين محبتين متعارضتين ، لأنه كما قال الكتاب : « أية خلطة للبر والإثم ؟! وأية شركة للنور مع الظلمة ؟! » (٢كو٦ : ١٤) .

ليتك إذن تشعر ببطلان العالم وزواله وتفاهته . ونصيحتى لك أن تركز على قراءة سفر الجامعة بعمق وفهم . وليكن الله معك...



الفصل الرابع :

نحب الله بتذكار إحساناته إلينا وإلى غيرنا

من الأشياء التي تملأ قلبك بمحبة الله ، أن تذكر باستمرار إحساناته إليك . وهذا أمر طبيعي جداً . فإنك إن تذكرت جمايل إنسان عليك ، أو إنقاذه لك ، أو وقوفه إلى جوارك في ضيقاتك ، لابد ستحبه . فكم بالأولى الله الذي إحساناته لا تعد ؟!

* * *

هذا الأمر عرفه واختبره داود النبي فقال :

« باركي يا نفسي الرب ، وكل ما في باطني ليبارك اسمه القدوس . باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل إحساناته » .

ويدخل في تفاصيل هذه الإحسانات فيقول لنفسه : « الذي يغفر جميع ذنوبك ، الذي يشفي كل أمراضك ، الذي يفدي من الحفرة حياتك ، الذي يكللك بالرحمة والرأفة ، الذي يشبع بالخير عمرك ، فيتجدد مثل النسر شبابك » (مز١٠٣ : ١ - ٥)... ويستمر في تذكر إحسانات الله فيقول :

« لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا ... كبعد المشرق عن المغرب ، أبعد عنا معاصينا . كما يتراءف الآب على البنين ، يتراءف الرب على خائفيه .. » .

* * *

لذلك اجلس إلى نفسك ، وتذكر إحسانات الله إليك ، منذ ولادتك وإلى الآن ..

اذكر ستره عليك من خطايا لو عرفها الناس ، ما كانوا يقبلون أن يسلموا عليك ، ولا يدخلوا بيتك ، ولا يدخلوك إلى بيوتهم ، ولا يتعاملون معك على الإطلاق ... ولكن الله يعرف خطاياك كلها ، التي لا يعرفها أحد غيره ... ومع ذلك يستر ، بل ويغفر .

ويجعل الناس يحبونك ، على الرغم من كل تلك الخطايا التى سترها ، وربما يطلبون صلواتك ، ويمدحونك .. !! والله نفسه يدعوك ابناً له ، ويجعلك تقول له فى الصلاة « أبانا الذى فى السموات » ..

تذكر إلى جوار ستره ، انقاذه لك من مشاكل عديدة :

تذكر إنقاذه لك من أمراض أصبت بها ، ومن أمراض أبعدها عنك ، كان يمكن أن تصاب بها ... انقاذه لك من مشاكل ومن ضيقات ، ومن أناس أشرار ومؤامرات دبروها ضدك ... اذكر كل هذه الأمور فى مطانيات شكر أمام الله . وقل له : أنا يارب لا أستحق كل ما قدمته لى من معونة وحب . ليتنى أحبك كما أحببتنى .

* * *

اذكر أيضاً عطايا الله لك ومواهبه ...

إن كان لك عقل أو ذكاء أو حكمة ، أو جمال وجه أو جمال صوت ، أو مواهب فنية ، أو حتى جمال خط ... مع مواهب أخرى روحية .. أو موهبة فى الخدمة وما أعطاك إياه من نعمة فى أعين الناس ، ومحبة فى قلوب الآخرين ... وقل له : كم أحبك يارب من أجل كل تلك النعم ، أو كم ينبغى أن أحبك ؟!

بل أيضاً تحبه من أجل احساناته إلى أحبائك .

سواء من أقربائك بالجسد ، أو أصدقائك أو زملائك ، بل من أجل إحسانات الله إلى الكنيسة وإلى وطننا وبلادنا ... من العجيب إننا فى الكوارث ، نذكر من حلّت بهم المصائب فنحزن ونتضايق . وفى نفس الوقت لا نذكر أحباءنا ومعارفنا الذين أنقذهم الرب وخلصهم ، بوسائل تكاد تكون ضمن المعجزات !

* * *

إذا أردت أن يمتلىء قلبك بمحبة الله ، لا تنسب إحساناته إلى غيره . لا تنسبها إلى الناس أو إلى نفسك .

كثيراً ما أنجح الله عملك ، فكنت تنسب النجاح إلى ذكائك وقدراتك ، وتنسى الله الذى ساعدك وأعانك . وتفقد سبباً يقربك إلى محبته .... وكثيراً ما كان الله يرسل إليك إنساناً ينقذك ، فتنسب كل الفضل إلى ذلك الإنسان ، وتنسى الله الذى أرسله إليك .. !

تمرض وتحتاج إلى عملية جراحية خطيرة، ويجريها لك أحد الأطباء المشهورين، وتنجح العملية وتشفى. وتعزو نجاتك إلى نبوغ الطبيب وعقله الجبار، وتنسى الله شافيك، وتنسى أن الله هو الذى وهب الطبيب ما له من نبوغ وعقل جبار.. وفى نسيانك لله وعمله، تفقد الشعور بإحسانه إليك، وتفقد سبباً تحبه به ... !

* * *

يكفى أننا لا نزال أحياء حتى هذه الساعة ...

من محبة الله لنا، أنه أبقانا حتى الآن... ألا نشكره ونحبه لأجل هذا الأمر... كم اجتاحت العالم أوبئة وأمراض، ونحن نجونا ولا نزال أحياء... كم كانت البلاد مهددة بجفاف، والرب أرسل المطر ونجىّ. ولا يزال الله يعطينا فرصة لنعمل عملاً من أجل أبديتنا.

يجب أن تحب الله، لأنه لم يأخذك من العالم، وأنت فى حالة غفلة، أو وأنت متلبس بخطية !!

إذن لكنت قد هلكت فى هذا العالم، وفى العالم الآتى، وأتاك الموت بدون توبة، كما حدث لحنانيا وسفيرا (أع ٥). ولهيرودس الملك (أع ١٢) ولآخرين ماتوا فى خطاياهم، دون أن يتوبوا ...! و يطيل باله، لعل طول أناته تقودك إلى التوبة (رو ٢: ٤).

قل له: أنا أحبك يا الله، من أجل طول أناتك علىّ، وصبرك وإحساناتك، على الرغم من كثرة إساءاتى إليك... حقاً إنك تستحق كل حب. لأن كثيرين من البشر الذين هم مثلى تراب ورماد، لم يحتملوا منى ولو إساءة واحدة بسيطة. أما أنت فحنون ومحب...

* * *

والعجيب أننا فيما ننسب إلى غير الله، الخير الذى نناله، فإننا ننسب كل مشاكلنا إلى الله !!

كيف نصل إلى محبة الله، إن كانت كل مصيبة تصيبنا ننسبها إلى الله، ونعاتب الله عليها، ونهدده بالانفصال عنه بسببها. ونظل نشكو لكل أحد من (قسوة) الله علينا، ومن (اهماله) لنا !! ونقول: لماذا يارب تفعل معنا كل هذا ؟! أين رحمتك التى

نسمع عنها ؟!

وقد تكون المشكلة بسبب الناس الأشرار، ولكننا ننسبها إلى عدم محبة الله ؟! وقد تكون بسبب إهمالنا نحن أو أخطائنا ، ولكننا ننسبها أيضاً إلى الله !! وبهذا كله نبعد عن محبته ... !

* * *

أما أنت ، فكل بركة تأتيك، أنسبها إلى الله، لا إلى الناس أو نفسك. وكل مشكلة تصيبك ارجعها إلى أسبابها الطبيعية الحقيقية .

لأن الله هو مصدر كل خير، ولا يأتي شر من جهة الله إطلاقاً ... بهذا تصل إلى محبة الله ...

والعجيب أن الله هو هو ... فعلى الرغم من أننا ننسب احساناته إلى غيره ، لا يزال يحسن إلينا ، وكأننا لم ننكر جميله، ولم ننس إحساناته... !! أليس هذا وحده سبباً يدعونا إلى محبته ؟...

* * *

هناك حقيقة ليس من صالحنا أن ننساها ، وهى :

كل من ينسى احسانات الله ، يتقسى قلبه كناكر للجميل .

مثل فرعون الذى كان يتقسى قلبه ، إذ ينسى كيف أن الله استجاب له، ورفع عنه ضربات وضربات ... ومثل دليلة التى تقسى قلبها على شمشون، فخانته إذ نسيت كل محبته لها، وسلمته إلى أعدائه (قض١٦) . ومثل سليمان الذى نسى كل احسانات الله إليه ، وكل ما وهبه الله من ملك وجلال وحكمة ، وأحب نساءه أكثر من الله ، ولم يكن قلبه كاملاً أمام الله (١مل ١١) .

أما المرأة الخاطئة ، التائبة ، فقد أحبت الله كثيراً، إذ تذكرت أنه غفر لها الكثير...

« والذى يغفر له قليل ، يحب قليلاً » (لو٧ : ٤٧) .

ويقصد الرب بهذه العبارة أن الذى يشعر أن الذى غفر له قليل ، أو يظن أن الذى غفر له هو قليل، يحب قليلاً... أما أنت فلا تكن هكذا وإنما تذكر كل خطاياك،

واذكر أن الله - من فرط احساناته إليك - قد غفر لك الكثير. فبهذا ستحب كثيراً.
واذكر أن عطاياه لك كثيرة جداً ، فتحب كثيراً ...

* * *

لا شك أن الله قد عمل لأجلك الكثير ، ولكنك أنت تنسى !! لذلك نبّه داود نفسه فى علاقتها مع الله قائلاً :

« ولا تنسى كل احساناته » (مز ١٠٣ : ٢) .

إنك تنسى احسانات الله ، لأنك مشغول بإحسانات أخرى تطلبها ، غير واضع فى ذاكرتك كل الإحسانات السابقة . حياتك كلها طلب لا شكر.

إن حياة الشكر ترتبط بحياة الحب . فاقرأ عنها ، وعش فيها ، تجد قلبك قد امتلأ بمحبة الله... وثق أن حياتك كلها لا تكفى لشكر الله على رعايته لك وعنايته بك ، طول عمرك منذ ولادتك .

* * *

بل إن احسانات الله سبقت ولادتك أيضاً .

كان من الممكن أنك لا تولد ، ولا تأتى إلى عالم الوجود ، لأى سبب يتعلق بأبيك أو بأمك. وكان ممكناً أن ترث وأنت جنين بعض الأمراض ، أو بعض النقائص ، ولكن الله حفظك منها جميعاً ، ومنحك أن تولد إنساناً سوياً جسداً وعقلاً ونفساً ... أيجوز لك أن تنسى كل هذا ؟! إنك لو ذكرت جميل الله عليك فى تلك الفترة ، لإزدادت حباً له .

أذكر حفظ الله لك أيضاً أثناء طفولتك .

كما يقول المزمور « حافظ الأطفال هو الرب » . إن أى إهمال للطفل فى غذائه أو علاجه أو حراسته ، يمكن أن يضيعه أو يصيبه بسوء... كذلك الإهمال فى تربيته وتعليمه ، أو غرس اشياء ضارة فى عقله الباطن ...

اشكر الله لأنه جعل تلك الفترة التأسيسية تمر عليك بسلام ... وقل له : أحبك يارب من كل قلبى ، لأنك حفظت طفولتى ، وأتيت بى إلى هذه الساعة ، واعطيتنى أن اقرأ عن محبتك ...

على إنى أريد أن أضع هنا ملاحظة هامة وهى :

كثيرون يقابلون احسانات الله إليهم بالفرح والبهجة. ويكتفون بهذا، دون أن يجعلوها سبباً لمحبة الله!

هم يفرحون بالخير الذى يأتيهم من عند الله : يفرحون باستجابة الله لصلواتهم، و يفرحون بعطاياه ونعمه ومواهبه، و يفرحون بستره وانقاذه. و يتهللون وقد يقف الأمر عند حدود الفرح والتهليل. وربما يتعداه إلى عبارة شكر قصيرة، أو صلاة شكر وعرفان بالجميل، وكفى...

أما الروحيون فيحولون عرفانهم بجميل الله إلى حب. يذكرونه ويخلطونه بمشاعرهم، ويحولونه إلى حب.

إحسانات الله لهم، دليل على محبته لهم. إذن يجب أن يبادلوه حباً بحب.

ليس الأمر مجرد فرح وشكر. فهذه مشاعر خاصة بك. ولكن يجب أن تعمقها فى داخلك لتكوين علاقة حب بينك و بين الله. وحاول أنك لا تنسى بل تتذكرها مرتبطة بمشاعر الحب، والشعور الداخلى بأبوة الله لك ومحبته ورعايته.

وأنت كابن محب، تقابل حبه بحب ...



الفصل الخامس :

نحب الله بالتفكير فيه والانشغال به

فكر فيه

لكى تحب الله ، ينبغى أن تنشغل به كثيراً ، وأن تفكر فيه كثيراً . لأنه هكذا أيضاً علاقتنا مع كل أحد .

كلما تفكر فيه تحبه . وكما تحبه تفكر فيه .

الفكر والعاطفة يتمشيان معاً ، يقوى أحدهما الآخر . وهذا هو شأننا مع كل شيء : إن أحببنا العالم ، نفكر فيه باستمرار . وكلما يزداد تفكيرنا فيه ، يزداد حبنا له . ومن يحب هواية ، يفكر فيها . وباستمرار تفكيره فيها ، يزداد حبه لها .. ولهذا ليس غريباً قول الكتاب :

« تحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل فكرك » (مت ٢٢ : ٣٧) ـ القلب والفكر معاً ...

* * *

الذى يشتهى شيئاً ، تراه دائماً يفكر فيه ، ودائماً ينشغل به . والعكس صحيح : إن بردت محبته له ، قل تفكيره فيه ... لذلك اجعل الرب فى فكرك باستمرار . وعلامة حبك له ، أن يكون الله دواماً فى فكرك . وتذكر داود النبى ، وكيف أنه ـ على الرغم من كثرة مشغولياته كملك وقائد ... نراه يقول :

« محبوب هو اسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتى » (مز ١١٩) .

ونحن نقول للرب فى التسبحة « اسمك حلو ومبارك ، فى أفواه قديسيك » .. فأسأل نفسك ما هو مركز الله فى فكرك ؟ وما مقدار انشغالك به ؟ هل العالم جرفك بعيداً عن

الإنشغال بالله ؟... إن كان الله لا يخطر على فكرك طول النهار، ولا يأتى ذكره على لسانك وفى حديثك مع غيرك ، فإنك تخدع نفسك إن قلت إنك تحبه... !!

ألست ترى أنك إذا أحببت شخصاً، تكون دائم التحدث عنه؟ فما مدى تحدثك عن الله؟

ما أكثر حديث عذراء النشيد عن حبيبها وعن صفاته... «أنا لحبيبى، وحبيبى لى، الراعى بين السوسن» (نش٦: ٣) (نش٢: ١٦) «حبيبى أبيض وأحمر، معلم بين ربوة... حلقه حلاوة، وكله مشتهيات» (نش٥: ١٠، ١٦).. «شبهتك يا حبيبى بفرس فى مركبات فرعون» (نش ١: ٩).

* * *

ليكن الله فى فكرك وأنت تتكلم مع الناس ، وأنت تتعامل معهم .

كان الرب فى فكر يوسف الصديق ، حينما حورب من امرأة سيده ، فقال لها «كيف أصنع هذا الشر العظيم، واخطىء إلى الله» (تك٣٩: ٩)؟!... إذن كان الله فى فكره وعلى لسانه، لما حاربته الخطية. ولذلك كانت محبة الله فى قلبه ، لتنزع محبة الخطية ، وتمنعها من الدخول إلى فكره وإلى قلبه...

إن كان الله فى فكر إنسان ، فسينقى هذا الفكر .

ويقدسه ، ويحل فيه ، ويمنحه محبته - ولا نقصد أن يخطر الله على فكر إنسان ، إنما أن ينشغل هذا الفكر بالله ، ويلتصق به، ويجد لذته فيه . وبهذا يكون قدارتبط بالحب الإلهى. فيقدس الله هذا الفكر، ولا يسمح بأية خطية تدخل إليه . لأن الفكر يكون فى سمو لا يقبلها . ويكون قد ارتبط بمحبة الله...

* * *

ومحبة الله كلما تزداد ، لا تسمح للعقل أن يفكر فى شىء آخر .

أو على الأقل لا يجد لذته فى فكر آخر . بل تكون كل الأفكار العالمية غريبة عليه لا يقبلها كما قال انبا أور لتلميذه «انظر يا ابنى، لا تُدخل هذه القلاية كلمة غريبة»...

هكذا عاش آباؤنا القديسون فى البرارى، وقد ارتبط عقلهم بالله. يفكرون فيه

باستمرار. و ينقون آذهانهم من كل فكر آخر، لكى يصبح الله فى فكرهم هو الكل فى الكل.

لأنهم من فرط محبتهم له ، لم يقبلوا أن يفكروا فى غيره .

واستطاعوا عملياً أن ينفذوا تلك الوصية العجيبة : «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل فكرك » ... وانشغلوا بالله كل الوقت وكل الحياة ، من فرط محبتهم له ...

* * *

إن الذى يجعل الله فى فكره دائماً ، يصل إلى تكريس الفكر لله .

يصبح فكره ملكاً كاملاً للرب ، ويمتلىء قلبه بمحبة الله ، و ينجو من كل أخطاء الفكر والقلب .

هناك تدريب سلك فيه القديس مكاريوس الاسكندرانى، وهو صلب الفكر، بحيث استمر ثلاثة أيام فى البرية الجوانية، وقد سمّر فكره فى الله لا ينزل من عنده... ولم يكن هذا الأمر سهلاً .

والذى يكرس فكره لله ، يصل إلى الصلاة الدائمة ، أو على الأقل إلى التأمل الدائم فى الله .

يشغل الله فكره ، و يثبت فى عقله الباطن. حتى إذا نام ، يحلم به فى أحلام مقدسة . أو يقول مع عذراء النشيد «أنا نائمة وقلبى مستيقظ» (نش ٥: ٢). أى قلبى معك، منصت إليك...

* * *

انشغال الفكر على الدوام بالله ، سندركه حتماً فى الأبدية . أما الآن فأمامنا بعض التداريب :

* لا تجعل ساعة تمر عليك ، بدون أن يكون الله فى فكرك ، ولو فى صلاة قصيرة ، أو فى تأمل .

* كلما تعرض لك خطية ما ، تذكر الله ، واشعر أنه أمامك يرى كل تصرف تعمله ، و يسمع كل كلمة تقولها ، و يلاحظ حواسك أيضاً .

* فى أحاديثك مع الناس ، احرص أن يأتى اسم الله أو وصاياه ضمن الحديث

بطريقة غير مصطنعة . أو على الأقل تذكر أن الله يسمع هذا الحديث .

★ فى كل عمل تعمله ، قل لنفسك : هل إلهنا الصالح مشترك فيه ؟ أو على الأقل هل هو موافق عليه ؟

★ يمكن أن تدرب نفسك على صلاة يارب يسوع ، أو على ترديد أية صلاة قصيرة تناسبك ، فى مرات عديدة حتى تلصق تماماً فى عقلك الباطن ، فيرددها دون أن تقصد ...

★ ★ ★

ولكى تحب الله ، وتجعله دواماً فى فكرك ، حاول أن تجعل كل شىء يذكرك بالله .

فإن نظرت إلى السماء ، تقول فى فكرك « السموات تحدث بمجد الله ، والفلك يخبر بعمل يديه » (مز١٩: ١) . وإن نزل نظرك من السماء إلى الأرض ، تقول « السماء هى عرش الله ، والأرض هى موطىء قدميه » (مت٥: ٢٤ ، ٢٥) . وتقول للرب «السماء والأرض تزولان ، وحرف واحد من كلامك لا يزول» (مت٥: ١٨) «أنت يارب فى البدء أسست الأرض ، والسموات هى عمل يديك ، هى تبيد ولكن أنت تبقى . وكلها كثوب تبلى ... ولكن أنت أنت ، وسنوك لن تفنى» (عب١: ١٠-١٢) .

وإن رأيت الطيور فى الجو أو على الأشجار، تقول « إنها لا تزرع ولا تحصد ، ولا تجمع إلى مخازن . وأبى السماوى يقوتها » (مت٦: ٢٦)... ما أحن هذا الأب السماوى ... وإن نظرت إلى الطبيعة الجميلة ، تقول فى فكرك : إن كانت الطبيعة هكذا جميلة ، فكم وكم يكون خالقها الذى منحها هذا الجمال ..!

ولكى يستقيم فكرك فى محبة الله ، لتكن علاقتك به تدخلها العاطفة ، ولا تكون مجرد علاقة عقل ...

★ ★ ★

وهنا نرى إلى جوار التفكير فيه ، التأمل فى صفاته الجميلة ... فهل هكذا تفعل مع الله ؟

هوذا الأب الكاهن يطمئن على هذه النقطة بالذات فى بداية القداس الإلهى. فيسأل الشعب قائلاً «أين هى قلوبكم ؟» فيجيبون «هى عند الرب» ... فهل هم حقاً كما يقولون، أم هم يقولون ما ينبغى أن يكون ؟ ...

كثيرون يقولون إنهم يحبون الله، ومع ذلك فهم لا يعطونه من وقتهم ولا من فكرهم !! فكيف إذن ينفذون وصية «من كل فكرك» (مت ٢٢ : ٣٧) ؟!

* * *

البعض ينشغلون بالخدمة، وأيضاً لا يكون الله فى فكرهم !!

فكرهم فى العظات وفى الدروس، أو فى النشاط، أو فى عمارة الكنيسة. أو فى ترتيبات وإداريات ... وما أشبه ... ولكن ليس فكرهم فى الله !! وقد يقضون ساعات فى أمور الخدمة، دون أن يأتى اسم الله على ألسنتهم ! إنهم يذكروننى بعتاب ذلك الأديب الذى قال :

« قضيت عمرك فى خدمة بيت الرب . فمتى تخدم رب البيت ؟! »

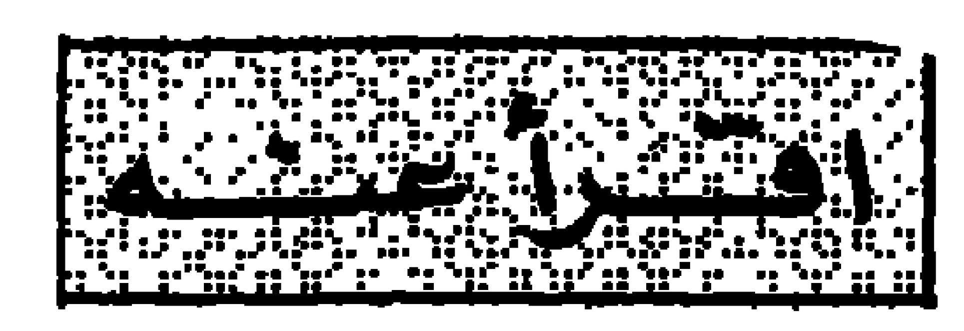
لذلك تجد هؤلاء الأشخاص وأمثالهم فى منتهى النشاط، وفى منتهى الحيوية، وفى عمل دائم فى الخدمة، ولهم فيها انتاج وانجازات ... ولكن بعيداً عن الله !! الله ليس فى مركز الخدمة ! ليس هو هدفها، ولا سببها، ولا وسيلتها ! وكثيراً ما تُكسر فى الخدمة وصاياه !! لذلك يا أخى، ضع فى خدمتك نصب عينيك، قول داود النبى :

« جعلت الرب أمامى فى كل حين ... » (أع ٢ : ٢٥) .

أو ضع أمامك قول إيليا النبى «حىّ هو رب الجنود، الذى أنا واقف قدامه» (١مل١٨: ١٥).

أشعر إذن بوجودك فى حضرة الله، وأنك واقف قدامه فى كل حين، لكى يكون الله فى فكرك ...

لا تجعل فكرك يغيب عنه، لئلا يتيهك العالم، وتبرد محبة الله فى قلبك ...



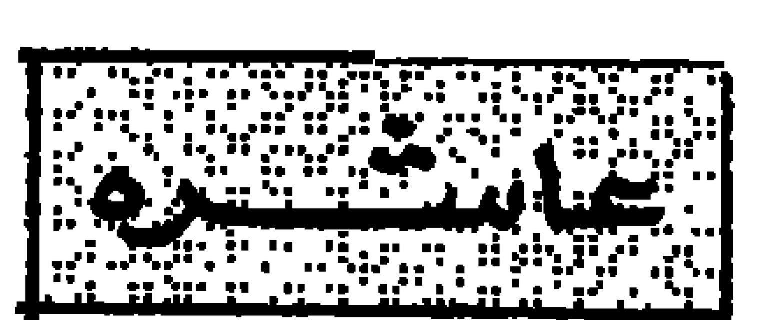
ولكى يكون الله فى فكرك ، اقرأ عنه كثيراً ...

إقرأ عنه لكى تعرفه . لأنك كيف تحبه وأنت تجهله ؟!

اقرأ عنه لا بأسلوب علمى أو فلسفى ، ولا لكى تكتب عنه بحثاً ، أو تلقى عنه درساً ... إنما لكى تدخل إلى أعماقه ، ولكى تدخله إلى أعماقك ... اقرأ عنه لكى تعرف صفاته المحببة إلى النفس ، التى تجعل عقلك يتعلق به ، وقلبك يرتبط بمحبته ، اقرأ عنه معاملاته : عن علاقته بمحبيه ، وموقفه من أعدائه . اقرأ عنه القراءة التى تدرك بها أنه «أبرع جمالاً من بنى البشر» (مز٤٥ : ٢) . اقرأ لكى تذوق وتنظر ما أطيب الرب (مز٣٤ : ٨) ... ولتكن قراءتك غذاء لقلبك ، وليس لمجرد المعرفة .

إن قرأت عن الله كثيراً ، ستجد كل الكمالات فيه . وستحبه ، وتقول مع النشيد «كله مشتهيات» .

وإن أحببته ، ستداوم القراءة عنه . فالذى يحب شخصاً ، يحب أن يقرأ عنه ، ويتقصى أخباره ، ويتشوق أن يعرف قصة من قصصه ، كما يفعل محبو الأبطال فى كل ميدان ... اقرأ عنه سواء فى الكتاب المقدس أو فى أقوال الآباء ، أو فى تاريخ الكنيسة والقديسين . وحاول أن تلمس يد الله فى الأحداث ، وستجد أنك تحبه : فى حكمته ، فى قوته ، فى حنانه ...



ولكى تعرف الله وتحبه ، ينبغى أن تعاشره .

مجرد القراءة وحدها لا تكفى . فعملها هو أن تفتح الباب ، فتدخل أنت وتعيش مع الرب ، وتختبر بنفسك حلاوة العشرة مع الله .

لذلك جرّب الحياة مع الله ، جرّب العمل مع الله ، وأن تشركه معك فى كل شىء . جرّب كيف تتخذه لك صديقاً ، تشرح له أسرارك وأفكارك وكل أمورك ، وترى

ماذا يعمل معك ولأجلك. اختبر أيضاً كيف تعتمد عليه، أكثر مما تعتمد على فكرك ومواهبك ...

لا تأخذ من الله موقفاً سلبياً أو منعزلاً .

لأن هذا لا يمكن أن يوصلك إليه وإلى محبته ... ولا يمكن أن تذوق الرب وحلاوته بهذه السلبية ... تقدم إذن إلى الرب، وكوّن معه علاقة. وحاول أن تعمق هذه العلاقة يوماً بعد يوم.

إن كنت لم تجرّب بعد عشرة الله ومحبته على هذه الأرض، فكيف ستعيش معه إذن فى الأبدية ؟!

محبتك لله هنا، هى مذاقة الملكوت ... فإن ذقت ما أطيب الرب، ستشتاق إلى الحياة الأبدية، التى يقول عنها الرسول «نكون كل حين مع الرب» (١تس٤: ١٧). بل إن الرب نفسه يقول «آتى وآخذكم إلىّ، حتى حيث أكون أنا، تكونون أنتم أيضاً» (يو١٤: ٣). فكيف تكون كل حين مع الرب، إن لم تحبه هنا وتجرّب عشرته ؟! فتشتاق إلى الوجود الدائم معه فى الأبدية ...

* * *

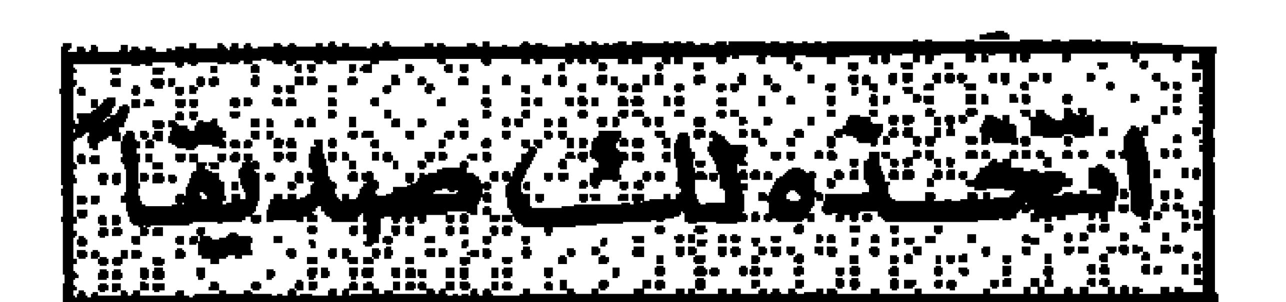
ولتكن علاقة مباشرة معه لأجل ذاته هو ...

فإن أخطأت، اخجل منه أكثر مما تخجل من أب الاعتراف، وقل له «لك وحدك أخطأت، والشر قدامك صنعت» (مز٥٠). اشعر أنك أخطأت إليه قبل أن تخطىء إلى الناس. حاول أن تكوّن علاقة مع الله نفسه، وليست فقط علاقة مع وصاياه.

ليكن لك شركة معه (١يو١: ٦). وهذه الشركة تقودنا إلى حفظ وصاياه. فنحفظها عن حب، إذ أن الله يملأ كل فكرنا. ولهذا نضم صوتنا إلى صوت الرسول ونقول «وأما نحن فلنا فكر المسيح» (١كو٢: ١٦).

الفصل السادس :

محبة الله لعشرته واتخاذه صديقاً



★ إن أردت أن تحب الله ، اتخذه لك صديقاً .

بل ليكن صديقك الأول ، الذى تهرع إليه قبل كل أحد . تكشف له أسرارك ، وتحكى له كل شيء ، وتشعر بعمق الراحة فى الوجود معه . تحكى له كل أفكارك ، وتكشف له أعماقك ، بكل صراحة ، وبكل صدق ، وبكل ثقة . بقلب مفتوح . ولا تسأم من الحديث إليه . بل تقول :

عندى كلام كثير يارب لأقوله لك ...

أنا يارب أثق بمحبتك لى ، وبأنك تريد لى الخير ، وتقدر على ذلك . لماذا لا أحكى لك كما أحكى لأحبائى من البشر!! أترانى أجد لذة فى أن أفتح قلبى لهؤلاء « التراب والرماد » (تك ١٨ : ٢٧) ، وفى نفس الوقت أبعد عنك أنت يا خالق الكل ؟! وكلما تدعونى إليك ، انشغل بأمور أخرى ، وأحتج بضيق الوقت .. !!

لاشك أننا بالحديث مع الله ننفّس عن أنفسنا .

ونجد راحة ، إذ نلقى عليه كل همومنا ، كأب محب لنا ، نبادله الحب ، ولا نخفى عليه شيئاً . بل نجعله يشترك معنا فى كل ما نفعل . وفى حب نسلّمه افكارنا ليقودها . و يصحح مسارها إن كان فى مسلكها خطأ ...

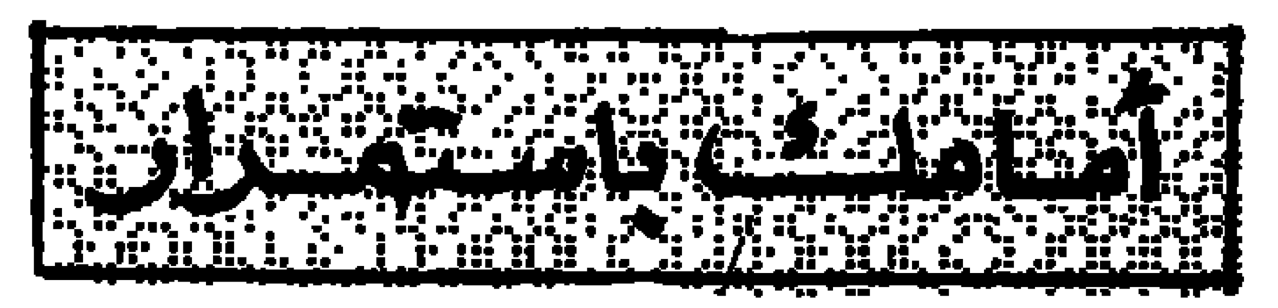
★ ★ ★

حاول أيضاً أن تشرك الرب معك فى كل عمل ...

فمثلاً ، إن كنت ذاهباً إلى عملك ، أو إلى مكان دراستك، أو حيثما أردت أن تذهب، قل له ـ قبل أن تخرج من بيتك ـ أنا يارب ذاهب إلى هذا المكان، فكن معى فيه . وسأقابل فلاناً من الناس ، وفقنى فى لقائه وفى الكلام معه ، وضع فى فمى الكلام الذى سأقوله ... وهكذا تتحدث مع الله خلال اليوم ...

أو قبل أن تخرج من منزلك ، قل له : أنا تارك يارب هذا البيت فى رعايتك ... وتمشى فى الطريق وأنت شاعر أن الرب إلى جوارك . وقبل أن تبدأ العمل ، مهما كنت ذكياً وصاحب خبرة، قل له : يارب، اشترك فى العمل معى . فأنا بدونك لا أقدر أن أعمل شيئاً (يو١٥ : ٥) . وإن نجحت فى عملك، قل له : لقد كانت يدك معى فى العمل . فأشكرك واطلب دوام معونتك ...

وإن أجريت لك أو لأحد أحبائك عملية جراحية ونجحت ، قل له : لقد كانت يدك مع الطبيب ومع المستشفى ... وهكذا ظهرت محبتك لنا . ونحن نحبك كما أحببتنا .



أمامك باستمرار

ولكى تحب الله ، اجعل الرب أمامك باستمرار ...

مثلما كان يقول داود النبى «جعلت الرب أمامى فى كل حين . لأنه عن يمينى فلا أتزعزع» (مز١٦ : ٨) (أع ٢ : ٢٥) .

لاشك أن هذا الشعور يمنح القلب إيماناً وثقة وسلاماً . ولهذا يقول داود بعد هذه العبارة «من أجل هذا ، فرح قلبى وابتهجت روحى ...»

أو اجعل الرب أمامك ، كما كان يقول إيليا النبى :

« حىّ هو رب الجنود الذى أنا واقف أمامه » (١مل ١٨ : ١٥) .

وهكذا يملأ الرب حواسك ، وبالتالى يملأ فكرك وقلبك، وتجد نفسك تحترس وتفعل كل ما يرضيه . بل أيضاً تشعر بصحبته لك. ليس فقط ليعرف أعمالك (رؤ٢ : ٢-٩)

بل بالحرى ليشترك معك فيها ، أو يدعوك لأن تشترك معه فيما يريده لأجلك أو لأجل ملكوته .

* * *

وشعورك بوجود الله أمامك يمنحك قوة فلا تخطىء ...

ومثال ذلك يوسف الصديق ، الذى قال « كيف أصنع هذا الشر العظيم واخطىء إلى الله » (تك ٣٩ : ٩) ... لقد كان يرى الله أمامه فى ذلك الوقت ، ولم يغب الله عن ذهنه لحظة واحدة . ومن محبته لله ، لم يقل كيف أخطىء أمامه » وإنما قال « كيف اخطىء إليه » ؟!

* * *

إنك تضع صوراً كثيرة فى بيتك ، تراها أمامك ...

فلماذا لا تضع الله أمامك ، مثل باقى الصور ، بل قبلها ؟

تراه أمامك فى كل حين : حين تمشى فى الطريق ، وحين تكون فى بيتك ، وحين تجلس مع الناس ... لاشك أن بطرس الرسول حينما أنكر الرب ، لم تكن صورة الرب أمامه . ولكنه حينما صاح الديك ، وتذكّر الرب وما سبق أن قاله له . حينذاك خرج إلى خارج وبكى بكاءً مراً (مت ٢٦ : ٧٥) .

إنك فى محبتك لله ، لست فقط ترى الله أمامك ، بل بالأكثر ترى نفسك فى حضنه .

وتقول كما فى سفر النشيد « شماله تحت رأسى ، ويمينه تعانقنى » (نش ٢ : ٦) إنك ابنه الذى أحبك ، ومن أجلك فعل الكثير . وإن تذكرت كل حبه لك ، لابد ستبادله الحب ، ولا يمكن أن تخطىء ، بل تغنى له كل يوم تسبيحاً جديداً . وتقول مع عذراء النشيد « حبيبى لى ، وأنا له ، الراعى بين السوسن » (نش ٦ : ٣) « تحت ظله اشتهيت أن أجلس ، وثمرته حلوة لحلقى » (نش ٢ : ٣) .

معك وأنت معه

ما أجمل أن تشعر أن الله معك ، وأنه ممسك بيدك ، وهو أمامك ، وعن يمينك ، ومحيط بك ...

أنت فى يده اليمنى (رؤ ٢ : ١) . وقد نقشك على كفه (أش ٤٩ : ١٦) . ولا يستطيع أحد أن يخطف من يده شيئاً (يو ١٠ : ٢٨). بل حتى جميع شعور رأسك محصاة (لو ١٢ : ٧) . إن تذكرت هذا الإله المحب لك ، وجعلته أمامك ، فإنك لابد ستحبه . وتشعر بالأمان والاطمئنان لوجودك فى حضرته .

أتستطيع أن تحبه ، وأنت لا تشعر بوجوده معك ؟!

تحبه غيابياً ، وأنت لا تشعر بوجوده ؟! ليس هذا الأمر معقولاً ... إننا يا أخى لسنا نحب إلهاً مجهولاً . بل هوذا الرسول يقول « الذى سمعناه ، الذى رأيناه بعيوننا ، الذى شاهدناه ولمسته أيدينا » (١يو ١ : ١) . فإن كان الرسل قد رأوه عياناً ، فإننا نراه بالإيمان ، مثلما قال داود النبى « .. الرب أمامى فى كل حين » (مز ١٦ : ٨) .

* * *

إذن ما هو مركز الله عملياً فى حياتك ، لكيما تحبه ؟

هل تجعله أمامك فى كل حين ؟ هل ترى عمله فى حياتك باستمرار ؟ أم تمر عليك أيام ، لا يأتى فيها ذكر الله على قلبك وذهنك ، إلى أن يذكّرك به يوم الرب حين تدخل الكنيسة !! أم تراك تنسى أن يوم الأحد هو يوم الرب ، وتسميه الـ Week End !!

حاول إذن أن تشعر باستمرار بوجودك فى حضرة الله . وأن الله موجود معك ، و يعمل معك ولأجلك ..

على أن القديس أوغسطينوس ، وهو يرى حياته فى فترة ما قبل التوبة ، يقول للرب عن تلك الفترة :

كنت يارب معى . ولكننى من فرط شقاوتى لم أكن معك !

كما ظهر لتلميذى عمواس بعد القيامة ، وتكلم معهما ولم يعرفاه (لو ٢٤) . وكما ظهر لمريم المجدلية ولم تعرفه وظنته البستانى (يو ٢٠) . ليتك إذن تشعر بوجودك فى حضرته . تشعر أن عينى الرب ناظرتان إليك باستمرار . وأن يده تمسك بك ، وأنه يرعاك بحيث لا يعوزك شىء (مز ٢٣ : ١) . هذه المشاعر تغرس الحب فى قلبك .

* * *

★ وليس فقط تجعل الله أمامك أو معك ، بل يكون الله فيك وأنت فيه ...

تكون فيه ، كما يكون الغصن ثابتاً فى الكرمة ، لكيما يستطيع أن يأتى بثمر (يو١٥: ٤، ٥).

وهو فيك ، لأنك هيكل الله ، وروح الله ساكن فيك (١كو٣: ١٦). وكما قال الرب «إن أحبنى أحد يحفظ كلامى ، ويحبه أبى. وإليه نأتى ، وعنده نصنع منزلاً» (يو١٤: ٢٣).

* * *

اسأل نفسك : هل مازلت تحتفظ بالله داخلك ؟

هل الله فى قلبك ، وفى ذهنك ، وعلى لسانك ، وفى حياتك كلها... فى بيتك وفى عملك. تحس وجوده، وتسعد بوجوده معك ، ويشترك معك فى كل شىء؟ أم أنت قد ابتعدت عنه، وأحزنت روح الله القدوس، أو قد انفصلت عن الله بأنواع وطرق شتى ؟!

حينما تكون إمرأة حبلى ، وتشعر بأن داخلها جنيناً حياً يتحرك، يمتص حياته من دمها ويتغذى، فإنها تشعر بشعور خاص، وبكل حب تقول «أتغذى لكى أغذيه»... وأنت فى داخلك جنين روحى، وُلد فيك من الروح القدس حينما عرفت الله... فهل تتغذى لكى تغذيه؟ وغذاؤه هو الحب الإلهى، وبه يحيا ويتحرك... كما يقول المرتل للرب فى المزمور «باسمك ارفع يدى، فتشبع نفسى كما من شحم ودسم» (مز٦٣: ٤، ٥).

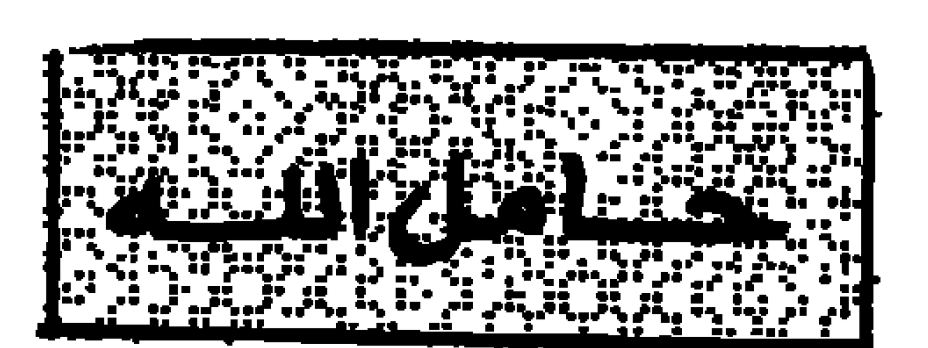
* * *

إن كنا نتغذى بمحبة الله ، سننمو روحياً ...

وحينما نتغذى بمحبته ، نقول أيضاً لغيرنا « ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» (مز٣٤: ٨). كذلك حينما نتغذى بكل كلمة تخرج من فم الله (مت٤: ٤)، وتكون لنا حياة فيه بتناولنا من سر الافخارستيا. ونشعر بحياته فينا، فنقول مع القديس بولس الرسول :

« لى الحياة هى المسيح ... » (فى ١ : ٢١) «فأحيا لا أنا ، بل المسيح يحيا فىّ» (غل٢: ٢٠).

أتراك تشعر بحياة المسيح فيك ، وبنصرته فيك ، وبمجده فى حياتك ؟ وهل تشعر بشركة الروح القدس (٢كو١٣: ١٤) فى كل عمل تعمله ؟ هل أنت لا تدخل مكاناً ، أو لا تعمل عملاً ، إلا إذا كان يمجد إسم الله .



وهل أنت تحمل اسم الله وعمله فى كل مكان تحلّ فيه ؟

حينما دخل داود إلى ميدان الجيش وقت تهديدات جليات ، أدخل اسم الله معه . فقال « الحرب للرب وهو يدفعكم ليدنا » (١صم١٧ : ٤٧) . وقال لجليات الجبار: أنت تأتى إلىّ بسيف ورمح . وأنا آتى إليك باسم رب الجنود... فى هذا اليوم يحبسك الرب فى يدى...» (١صم١٧: ٤٥، ٤٦) . وهكذا كان اسم الرب على فم داود . وكانت قوة الرب فى ذراع داود . وكان اسم الرب سبب اطمئنان ونصر وفرح لكل الجيش .

* * *

يعجبنى أن القديس أغناطيوس الأنطاكى ، كان لقبه (الثيئوفورس) أى حامل الله .

فإن كنت تحب الله ، فلابد أنك ستحمل اسم الله معك إلى كل شخص يقابلك ، وإلى كل مكان تذهب إليه . حينما تحمل اسم الله ، يعمل الله معك ، فينجح عملك ، ويفرح قلبك بهذا النجاح ، وتحب الله الذى أنجح طريقك . كما قيل عن يوسف الصديق إن «الرب معه» وأن كل ما كان يصنعه ، كان الرب ينجحه بيده» (تك٣٩ : ٣) .

إن الله يمكنه أن يعمل كل شىء وحده ، فكل شىء به كان (يو١) ولكنه يحب أن يعمل بنا ، كأدوات فى يديه . لكى نفرح بعمل الرب فينا ، ونحبه لأنه قد اختارنا لعمله . فهل أنت تعمل عمل الرب . وهل تقول له :

فى كل مكان أذهب إليه ، سأوجد لك يارب موضعاً تسند فيه رأسك (لو٩: ٥٨) .

وهكذا يكون الحب متبادلاً بينك وبين الله : هو يعمل فيك، وأنت تعمل لأجله. هو من فرط حبه لك، يرسلك لتعمل فى كرمه. وأنت فى حبك له تقول «ينبغى أن ذاك يزيد، وأنى أنا أنقص» (يو٣: ٣٠). ولكن الله لا يريدك أبداً أن تنقص، بل بمحبته يجعلك منارة تنير لكل من فى البيت (مت٥: ١٥). ويقول لك «أباركك وتكون بركة» (تك١٢: ٢).

أما أنت ففى محبتك لله تقول مع المرتل فى المزمور «ليس لنا يارب ليس لنا، لكن لاسمك القدوس إعطِ مجداً» (مز١٠٥: ١).

* * *

الذى يحب الله، يختفى ويظهر الله.

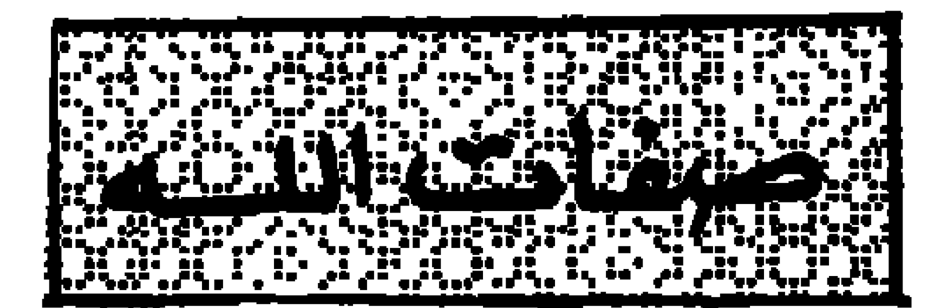
كما كان يفعل يوحنا المعمدان فى كل كرازته. لذلك انكر ذاتك، تصل إلى محبة الله. لإنك إن كنت تركز على محبة ذاتك، فسوف تنشغل بها وليس بالله. أما إذا أنكرت ذاتك، فسوف يكون الله هو شغلك الشاغل، وهو الذى يملأ القلب والفكر، فتصل إلى محبته.

* * *



الفصل السابع

نحب الله بتأمل صفاته الجميلة وعلاقته بقداسته



أحياناً تحب إنساناً لأن صفة معينة فيه تجذبك إليه . كأن يكون إنساناً شهماً ، أو خفيف الظل مرحاً ، أو يكون إنساناً خدوماً ، أو قوى الشخصية ، أو ذكياً ... إنها صفة واحدة تجذبك ...

فكم بالأولى الله الذى تجتمع فيه كل الصفات الجميلة ، وعلى درجة غير محدودة من الكمال ... !!

لاشك أنك كلما تأملت صفة من صفات الله الفائقة الوصف ، ستجد نفسك تحبه ...

ولست أقصد صفات الله التى يتميز بها وحده، ولا يشترك فيها معه أى كائن آخر... مثل أنه أزلى ، وخالق ، وواجب الوجود ، وحاضر فى كل مكان ، وفوق مستوى الزمن ، وغير محدود ، وغير مدرك ، وعارف بالخفيات ، وفاحص القلوب والأفكار... وما إلى ذلك من الصفات التى يختص بها جوهر اللاهوت ...

إنما أقصد حتى الصفات التى يتصف بها بعض البشر أيضاً، ولكنها عند الله كاملة وغير محدودة ...

مثل جمال الله ، وقوته ، وحكمته ، ومحبته ورحمته ، وطول أناته ... فقد يتصف بعض البشر بالجمال والقوة والحكمة والمحبة والرحمة وطول الأناة . ولكن هذه الصفات عند الله مطلقة ، وفوق مستوى ما ندركه ...

* * *

ولهذا فإن الكنيسة فى صلواتها تعلمنا التأمل فى صفات الله ...

تجد هذا كثيراً فى صلوات القداس الإلهى ، وبخاصة القداس الغريغورى مثل «أيها الكائن الذى كان الدائم إلى الأبد ... غير المرئى ، غير المحوى ، غير المبتدى ، الأبدى ... الذى لا يحد ... الذى يسبحك غير المرئيين ، والذى يسجد لك الظاهرون ... ألوف ألوف وقوف قدامك ، وربوات ربوات يقدمون لك الخدمة .

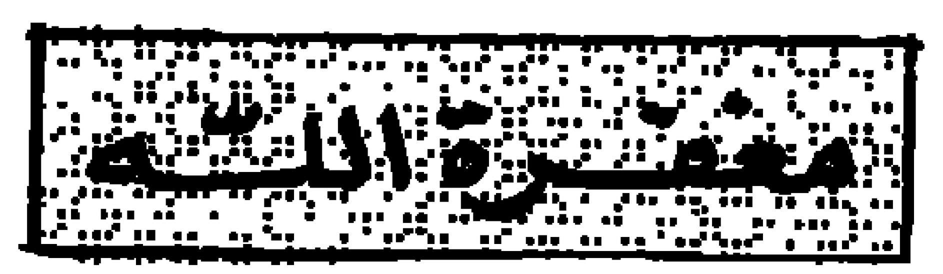
التأمل فى عظمة الله ، يجعلك تمجده ، وحينما تتأمل كيف أنه على الرغم من كل مجده ، ينظر إليك ، ويوليك اهتماماً خاصاً ... حينئذ تحبه .

ونرى التأمل فى صفات الله ، فى المزامير والأجبية .

كأن يقول المرنم فى المزمور « الرب رحيم ورؤوف ، طويل الروح وكثير الرحمة » «الرب مجرى العدل والقضاء لجميع المظلومين» ... (مز١٠٣ : ٨ ، ٦) . وما أكثر التأملات فى صفات الله وأعماله ، التى غنى بها داود فى مزاميره ، وأخذناها نحن عنه فى التسبحة ... نسبح الرب فى كل صباح ، فتزداد حباً له .
حباً له .

وفى الأجبية نقول فى ختام كل ساعة من ساعات الصلوات السبع «... يا من فى كل وقت وفى كل ساعة ، فى السماء وعلى الأرض مسجود له وممجد . المسيح إلهنا الصالح ، الطويل الروح الكثير الرحمة ، الجزيل التحنن . الذى يحب الصديقين ، ويرحم الخطاة الذين أولهم أنا . الذى لا يشاء موت الخاطىء مثلما يرجع ويحيا ..» .

ونجد نفس التأمل فى صفات الله عنصراً بارزاً فى صلوات الآباء والأنبياء التى وردت فى الكتاب المقدس ، ولنترك هذا الأمر لقراءتك الخاصة ...



أما أنت فخذ أية صفة من صفات الله - بالتتابع - واجعلها مجالاً لتأملك ...

خذ مغفرة الله مثلاً ، وستره للخطايا ... كيف أنه على الرغم من العقوبة التى أراد أن يوقعها بأهل نينوى ، ما أن صاموا وتابوا حتى غفر لهم ... بل قال ليونان «أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثر من إثنتى عشرة ربوة من

الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم» (يون٤: ١١). وعجيب أنه فى محبته ومغفرته دعاها مدينة عظيمة، مع أن أهلها لا يعرفون يمينهم من شمالهم. وقد سبق فأمر النبى أن ينادى عليها بالهلاك (يون٣: ٤).

إنك ستحب الله، إن تأملت قلبه المحب الذى يغفر.

الذى فى لحظات بسيطة، غفر للمرأة الخاطئة التى بللت قدميه بدموعها (لو٧: ٤٧). كما غفر أيضاً للمرأة التى ضبطوها فى ذات الفعل (يو٨: ١١). وقال لها «ولا أنا أيضاً أدينك». وكذلك غفر للمرأة السامرية التى كان لها خمسة أزواج (يو٤: ١٨)، ومدحها وقال لها «حسناً قلتِ... هذا قلتِ بالصدق»... وغفر لزكا العشار، بل دخل بيته ولم يبالِ بتذمر الجمع على أنه دخل ليبيت عند رجل خاطىء. بل دافع عنه وقال «اليوم حصل خلاص لهذا البيت، إذ هو أيضاً ابن لابراهيم» (لو١٩: ٥-١٠).

★ ★ ★

ويعوزنا الوقت إن تحدثنا عن مغفرة الله فى التاريخ.

مغفرته مثلاً لأوغسطينوس، وموسى الأسود، ومريم القبطية، وبيلاجية، ومرثا، ويوستينوس الساحر، وأريانوس والى أنصنا. والجندى الذى طعنه بالحربة.

ولم يكتفِ الرب بمغفرته لكل هؤلاء وغيرهم، بل رفع من ذكرهم جداً. وجعل أوغسطينوس اسقفاً جليلاً، وعالماً فى اللاهوت والتفسير، ورجل تأملات. وجعل موسى الأسود قديساً عظيماً، وكاهناً وأباً للرهبان. وكذلك جعل مريم القبطية سائحة طلب بركتها القس سوزيما. وجعل يوستينوس الساحر أسقفاً عظيماً. وجعل أريانوس مضطهد المسيحية شهيداً...

ألا نحبه إذن، ونحب أسلوبه فى المغفرة؟!

إذ يقول عن الخطايا التى غفرها: أمحوها، لا أعود أذكرها، لا تحسب عليهم...

انظر ما أسرع مغفرته للص اليمين التائب... وكيف قال له «اليوم تكون معى فى الفردوس» (لو٢٣: ٤٣). ومغفرته لشاول الطرسوسى، ودعوته له أن يكون إناء مختاراً ورسولاً للأمم (أع ٩)...

وكذلك قوله فى مغفرة الخطايا «أصفح عن إثمهم ، ولا أعود أذكر خطيتهم بعد» (أر٣١: ٣٤). ويقول عن الإنسان الخاطىء التائب «كل معاصيه التى فعلها لا تذكر عليه» (حز١٨: ٢٢). ويتغنى المرنم بهذا فى المزمور ويقول «طوبى للذين غفرت آثامهم وسُترت خطاياهم. طوبى للرجل الذى لا يحسب له الرب خطية» (مز٣٢: ١، ٢) (رو٤: ٧، ٨).

هنا نرى الرب يستر على الخطية ، ويغفرها ، ولا يحسبها على الإنسان، ولا يعود يذكرها بعد...

أى حنان هذا الذى يذيب قلب الإنسان التائب . وكلما يغفر له الرب أكثر يحب الرب أكثر (لو٧: ٤٧). فهل هناك أكثر من هذا فى معاملة الرب للخاطىء وعدم حسبانه أو تذكره لخطاياه؟ نعم هناك ما يقوله الكتاب «توبوا وارجعوا فتمحى خطاياكم» (أع٣: ١٩). وهذا ما يقوله المرتل فى مزمور التوبة «ومثل كثرة رأفاتك تمحو إثمى» (مز٥١: ١).

* * *

نعم من محبة الله العظيمة أنه يمحو خطية التائب .

يمحوها ، كأن لم تكن ، كأن لم تحدث . وهكذا يحيا فى بهجة الخلاص، الخلاص من الخطية ومن عقوبتها. ويشعر التائب بهذا فيفرح بالرب جداً، لأنه محا عنه هذا العار، بل أكثر من هذا أيضاً منحه أن يقول «تغسلنى فأبيضّ أكثر من الثلج» (مز٥١)... حقاً ما أعجب هذا الأمر الذى يجعل التائب يذوب حباً لله الذى عامله هذه المعاملة...

حقاً ، إنه يستحق كل الحب ، هذا الإله الحنون الغفور.

الذى نسىء إليه ، فيمحو إساءاتنا ، ولا يعود يذكرها . بل يغسلها فنبيض أكثر من الثلج. هذا الذى فى رأفاته «كبعد المشرق عن المغرب، أبعد عنا معاصينا» (مز١٠٣: ١٢). بل حملها بدلاً عنا، ودفع ثمنها (أش٥٣: ٦)... إنه إله طيب يستحق كل حب «لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا» (مز١٠٣: ١٠). إنه لا يحسب علينا الماضى الأثيم كله، من أجل حاضر مستقيم...

* * *

دفاع الرب عن أولاده

وعجيب فى هذا الأمر أيضاً دفاع الرب عن أولاده .

★ لقد أخطأ أبونا ابراهيم . ومن خوفه قال عن سارة إنها اخته ، وإخفى أنها زوجته ، فأخذها أبيمالك ملك جرار . وإذا بالرب يتدخل ليدافع عن ابراهيم وسارة ، ويقول لأ بيمالك فى حلم « ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها ، لأنها متزوجة ببعل ... والآن ، ردّ إمرأة الرجل . فإنه نبى ، فيصلى لأجلك فتحيا » (تك ٢٠ : ٢-٧) .

يخطىء إبراهيم ، الرب يدافع عنه ، ويطلب من الملك أن يرد المرأة ، ويصلى ابراهيم عنه لكى يحيا ... !

ولعلك تسأل الرب فى هذا ، فيقول : ابراهيم هذا حبيبى . لقد أخطأ عن ضعف وليس عن إنحراف . أنا واثق من نقاوة قلبه . لذلك أدافع عنه .

* * *

★ ويخطىء داود ، ويعاقبه الرب . ولكن بنفس الحب تظل ثقته فيه فى حياته . وحتى بعد موته ، نراه يقول لسليمان عندما عاقبه وقرر تمزيق مملكته : « إلا أنى لا أفعل ذلك فى أيامك ، من أجل داود أبيك ... على أنى لا أمزق منك المملكة كلها ، بل أعطى سبطاً واحداً لا بنك ، لأجل داود عبدى » (١مل ١١ : ١٢ ، ١٣) . وهكذا حفظ كرامة لداود بعد موته .

★ وبنفس الأسلوب دافع عن أيوب ... على الرغم من كلام أيوب السابق الذى وبخه عليه اليهو ، والذى وبخه فيه الرب قائلاً له « من هذا الذى يظلم القضاء بكلام بلا معرفة ؟! » (أى ٣٨ : ١ ، ٢) . إلا أنه حينما اتضع أيوب فى التراب والرماد (أى ٤٢ : ٦) ، نرى الله يدافع عنه ، وينذر أصحاب أيوب الثلاثة الذين جرحوا مشاعره ، ويقول لهم « لم تقولوا فىّ الصواب كعبدى أيوب ... اذهبوا إلى عبدى أيوب ، وأصعدوا محرقة لأجل أنفسكم . وعبدى أيوب يصلى عنكم ، لأنى أرفع وجهه . لئلا أصنع معكم حسب حماقتكم » (أى ٤٢ : ٧ ، ٨) .

★ كما دافع الرب عن إبراهيم وداود وأيوب ، دافع أيضاً عن موسى لما تزوج بامرأة كوشية .

لقد تقوّل عليه هرون ومريم . فإذ بالرب ينتهرهما و يظهر لهما كرامة موسى عنده ، فيقول لهما «إن كان فيكم نبى، فبالرؤيا استعلن له، فى الحلم أكلمه . أما موسى فليس هكذا . بل هو أمين فى كل بيتى . فماً إلى فم وعياناً أتكلم معه... فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدى موسى» (عد ١٢ : ١ - ٨) . وضرب الرب مريم بالبرص عقاباً لها . فأخرجوها خارج المحلة ...

* * *

★ ولم يدافع الرب فقط عن هؤلاء الأنبياء ، بل أيضاً عن المرأة التى سكبت الطيب على رأسه .

فلما اغتاظ التلاميذ قائلين «لماذا هذا الاتلاف ؟!» ، قال لهم الرب «لماذا تزعجون المرأة ، فإنها قد عملت بى عملاً حسناً... لأجل تكفينى . الحق أقول لكم حيثما يكرز بهذا الإنجيل فى العالم كله ، يُخبر أيضاً بما فعلته هذه تذكاراً لها» (مت ٢٦ : ٧- ١٣) .

* * *

كان الرب يدافع عن الذين ليس لهم أحد يدافع عنهم .

لقد دافع عن زكا العشار (لو ١٩) وعن كثير من العشارين والخطاة . ودافع عن السامريين، وذكر مثل السامرى الصالح (لو١٠) . وأظهر فى مثل آخر أن العشار أفضل من الفريسى (لو١٨ : ١٤) . ودافع الرب عن الأطفال فى يوم أحد الشعانين . وقال «لو سكت هؤلاء ، فالحجارة تنطق» ... ولا ننسى أيضاً أنه دافع عن صالبيه (لو٢٣ : ٣٤)... وبعد ، أترانى استطيع فى مقال كهذا، أن أذكر صفات الله الجميلة والتأمل فيها ؟!

إنما ذكرنا ما ذكرناه كمجرد مثال ...

وأنت أيها القارىء العزيز تناول هذا المنهج . وتأمل على التتابع صفات الله الجميلة ، وخذها غذاء لروحك، وسبباً يوصلك إلى محبة الله... وليرشد الله تأملاتك فيه ...

الفصل الثامن :

نحب الله بتأمل سير القديسين الذين أحبهم وأحبوه

سير القديسين

إذا تأملت حياةالقديسين الذين أحبوا الله ، لابد ستحبه مثلهم. وبخاصة إذا تأملت الدالة العجيبة التى كانت بينهم وبين الله ، وكيف منحهم الرب مكانة سامية ، واعتبرهم كأصدقاء الله ، ويأتمنهم حتى على أسراره .

سير القديسين ترفع القارىء إلى مستوى روحى عالٍ .

مستوى أعلى من المادة ومن العالم ، وأسمى من الجسد ومن الخطية . فتطرح العالم خارج القلب ، لكى يسكن الله فيه . وهى غذاء روحى للنفس ، كما قال ماراسحق « شهية هى أخبار القديسين ، مثل المياه للغروس الجدد » .

تؤثر سير القديسين فى النفس ، وتدعو إلى التمثل بهم .

إن سيرة القديس الأنبا أنطونيوس التى كتبها القديس أثناسيوس لأهل رومه ، تركت تأثيراً عميقاً جداً ، لدرجة أن كثيرين زهدوا العالم ، وأحبوا أن يعيشوا فى حياة الوحدة مع الله . بل أن هذه السيرة كان لها تأثير عجيب جداً فى حياة أوغسطينوس ، إذ قادته إلى التوبة والزهد ، وحوّلته إلى قديس عظيم ، أحب الله جداً ، وظهرت هذه المحبة فى تأملاته التى تناقلها جيل بعد جيل .

كذلك فإن سير قديسى البرية التى كتبها السائحون الذين زاروا رهبان مصر فى القرن الرابع وبداية الخامس ، ما أعظم الذى تركته فى النفوس ، حتى قادت عشرات

الآلاف إلى حياة الرهبنة، متفرغين لمناجاة الله فى صلواتهم، حيث عاشوا فى البرية، بلا أنيس، بلا معزّ، تكفيهم متعتهم الروحية بعشرة الله ومحبته.

* * *

تأملوا أيضاً ما قيل عن القديسين:

« العالم لم يكن مستحقاً لهم » (عب ١١ : ٣٨).

قيل إن الأرض لم تكن مستحقة أن يدوسوها بأقدامهم ومن أجل صلواتهم كان الله يُنزل المطر على الأرض...

كانوا صورة لله على الأرض، أو أنهم عادوا إلى الصورة الإلهية التى خلق بها الإنسان الأول. فكان كل من يراهم، يحب أن يبقى معهم، لكى يتمتع بنفوسهم الشفافة التى تظهر حياة الله داخلهم (غل ١٢: ٢٠).

* * *

فلنتأمل سير أولئك القديسين، ونرى كيف أحبوه ...

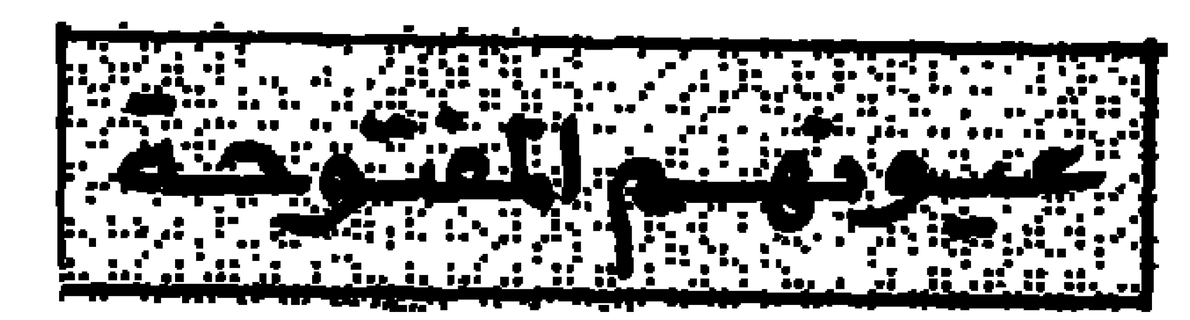
من أجله فضّل دانيال أن يلقى فى جب الأسود، عن أن ينكره. وبهذا دخل فى اختبار عجيب قال فيه « إلهى أرسل ملاكه، فسدّ أفواه الأسود » (دا ٦ : ٢٢).

والثلاثة فتية، من أجله فضلوا أن يلقوا فى أتون النار الملتهبة، عن أن ينكروه، فتمتعوا بأمرين عجيبين جداً: ابن الله يسير معهم وسط النار، والنار لم تؤذهم بشيء، وشعرة من رؤوسهم لم تحترق» (دا ٣ : ٢٤ - ٢٨).

وأبونا ابراهيم، من أجل إيمانه بالرب وطاعته له، رفع يده بالسكين ليقدم ابنه وحيده محرقة للرب، لأن محبته للرب كانت أعمق بما لا يقاس من محبة الابن الوحيد، لذلك تمتع ببركة الرب، وبأن نسله كنجوم السماء ورمل البحر فى الكثرة، ويتبارك فى نسله جميع أمم الأرض (تك ٢٢ : ١٦ - ١٨).

ويعوزنا الوقت أن تحدثنا عن قصص الشهداء والمعترفين والكارزين وكل محبى الرب، وبركة الرب لهم، وما وهبهم من معجزات وظهورات وشفاعات سواء فى حياتهم أو بعد وفاتهم.

* * *



عيونهم المفتوحة

هؤلاء القديسين وهبهم الله عيوناً مفتوحة، ترى ما لا يُرى.

كما طوّب السيد المسيح تلاميذه قائلاً «طوبى لعيونكم لأنها تبصر» (مت١٣: ١٦). وهكذا كان اليشع النبى يرى ما لا يستطيع تلميذه أن يراه. وهكذا صلّى لكى يفتح الرب عينى ذلك الغلام لكى يرى (٢مل٦: ١٧)... فرأى قوات الرب محيطة بالمدينة لتنقذها...

حقاً ما أعجب عينى يوحنا الحبيب اللتين رأتا كل ما سجله فى سفر الرؤيا.

ما أجمل قوله «نظرت وإذا باب مفتوح فى السماء» (رؤ٤: ١). ثم يقول «وللوقت صرت فى الروح. وإذا عرش موضوع فى السماء، وعلى العرش جالس»... ثم شرح ما رآه من القوات السمائية، وعلاقتها بالله، وتسبيحها، ومنظرها، وكرامتها...

وماذا نقول أيضاً عن بولس الرسول، وصعوده إلى السماء الثالثة، حيث سمع أموراً لا يُنطق بها (٢كو١٢: ٢، ٤).

* * *

وماذا عن الرؤى التى رآها قديسو الله عبر العصور، سواء ما سجلها الكتاب مثل رؤى دانيال وحزقيال، أو ما وردت فى تاريخ الكنيسة وهى لا تدخل تحت حصر، يعلن بها الرب إرادته لمحبيه، ويكشف لهم عن أمور مستقبلة، ويقويهم بها ويعزيهم... اسأل عن ذلك أيها القارىء العزيز: القديس الأنبا أنطونيوس، والقديس الأنبا بيشوى، والقديس الأنبا بولس البسيط، وغيرهم كثير...

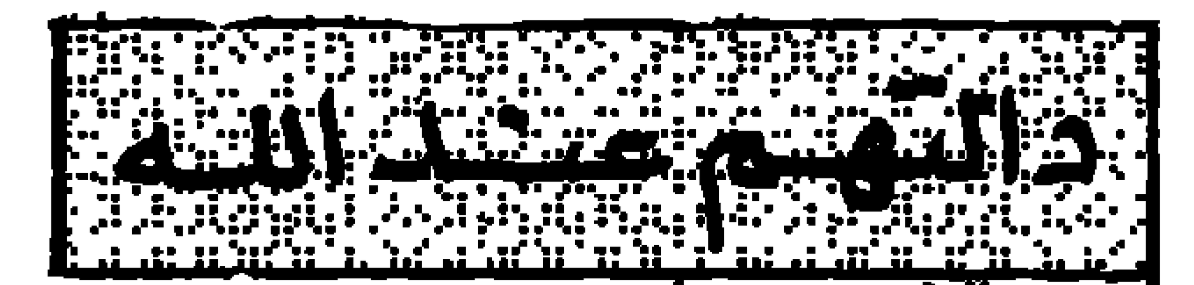
حينما تقرأ عن كل هذا، ألا تشتاق أن يعلن لك الله مثلهم؟ وكيف يعلن لك إن لم تحبه وتحيا فى نقاوة القلب. وحينئذ لا ترى فقط رؤى، إنما كما يقول الرب فى التطويبات:

* * *

«طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله» (مت٥: ٨).

« يعاينون الله ... » ؟! هذا مجد عظيم يارب لا نستحقه ... ليتك إذن تمنحنا نقاوة القلب هذه ، مثلما منحتها لمحبيك ...

يوحنا الحبيب أبصر الرب فى شيء من مجده ، والأنبا بيشوى رآه وغسل قدميه . وكثيرون رأوه فى رؤى أو فى أحلام ، وسمعوا صوته ... ولا أريد هنا أن أتحدث عن قديسى العهد القديم الذين رأوه ، وسلّمهم رسائل ورسالات ليبلغوها للناس ...



هؤلاء القديسون كانت لهم دالة عند الله ...

اعتبرهم الله أصدقاء له . يكشف لهم خططه ومشيئته ، و يأخذ رأيهم ، و يسمح لهم أن يناقشوه فيما يقول ...

كما حدث مع أبينا ابراهيم قبل حرق سادوم ، إذ قال الله « هل أخفى عن ابراهيم ، ما أنا فاعله ؟! » (تك٤٨ : ١٧) . وكشف له الرب الأمر. ودخل ابراهيم فى حوار معه . بل إن ابراهيم فى دالته مع الرب قال له « أفتهلك البار مع الأثيم ؟! .. حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر، أن تميت البار مع الأثيم ! حاشا لك . أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً .. » . وظل فى حوار مع الله ، حتى قال الله له إن وجد فى المدينة عشرة من الأبرار « لا أهلك من أجل العشرة » (تك١٨ : ٢٣- ٣٢) .

* * *

وبالمثل حدث مع موسى النبى ، لما أراد الرب إهلاك الشعب بعد عبادتهم للعجل الذهبى ...

لم يشأ الرب أن يفعل ذلك دون أن يخبر عبده موسى أولاً . فقال الرب لموسى « رأيت هذا الشعب ، وإذا هو شعب صلب الرقبة . فالآن أتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم » (خر٣٢ : ٩) . ولكن موسى لم يتركه يفعل هكذا . بل قال له فى دالة « لماذا يارب يحمى غضبك على شعبك ... ارجع يارب عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك . اذكر ابراهيم واسحق واسرائيل الذين حلفت لهم ... » . و يسمع الرب لكلام موسى ، و يقول الكتاب « فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه »

(خر٣٢: ١٤).

إن قرأت كل هذا ، ألا يتأثر قلبك بهذه الدالة ، وتحب أن يكون لك شيء منها فى محبة متبادلة بينك و بين الله ؟!

* * *

على أن هؤلاء القديسين كانت لهم دالة مع الله ومكانة عنده، حتى بعد وفاتهم.

فنرى أن الله لم يعاقب سليمان فى حياته وابقى العقوبة إلى أيام ابنه رحبعام. وقال تعليلاً لذلك «من أجل داود عبدى» (١مل ١١: ١٣). وظل الرب يحتفظ بهذه المكانة لعبده داود، حتى أن المرتل يقول للرب فى المزمور «من أجل داود عبدك، لا ترد وجهك عن مسيحك» «اذكر يارب داود وكل دعته» (مز ١٣١).

* * *

بل أكثر من هذا ، تسمّى الرب بأسماء أحبائه .

فقال لموسى لما ظهر له فى العليقة «أنا... إله ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب» (خر٣: ٦). واستخدم الرب هذه الآية فى الرد على الصدوقيين من جهة القيامة (مت ٢٢: ٣٢).

ومن جهة الشريعة - مع أنها شريعة الله - إلا أنه ينسبها لموسى. فيقول «اذكروا شريعة موسى عبدى التى أمرته بها فى-حوريب» (ملا ٤: ٤). و يقال عن العذراء «ولما تمت أيام تطهيرها حسب شريعة موسى...» (لو٢: ٢٢). وتتكرر عبارة شريعة موسى مراراً، كما فى (١مل ٢: ٣) (نح ٨: ١) (دا ٩: ١١) وكذلك أيضاً عبارة «ناموس موسى» (يو٧: ٢٣) (أع ١٣: ٣٩) (أع ١٥: ٥) (عب ١٠: ٢٨). وبالمثل أسفار الكتاب، تسمت أيضاً بأسماء محبيه. كما نقرأ سفر صموئيل، وسفر نحميا، وسفر استير...

كل هذه الكرامة التى يمنحها الرب لأولاده، ألا تؤثر فيك لكى تحيا معه، وتنال بركته ؟

* * *

أولاده أيضاً منحهم مفاتيح السموات والأرض (مت ٢٦ : ١٩).

« ما يربطونه على الأرض، يكون مربوطاً فى السماء. وما يحلونه على الأرض يكون محلولاً فى السماء» (مت١٨: ١٨). ويقول لهم «من غفرتم خطاياه غفرت له. ومن أمسكتموها عليه أمسكت» (يو٢٠: ٢٣). أى سلطان هذا ؟! ... وهكذا أيضاً فى العطايا ، وفى صنع المعجزات. بل قال لهم عبارة عجيبة مذهلة وهى: «من يؤمن بى، فالأعمال التى أعملها يعملها هو أيضاً، ويعمل أعظم منها» (يو١٤: ١٢) ... إلى هذه الدرجة يارب؟! من ذا الذى لا يحبك ؟!

لقد أستأمن الرب أولاده على مخازنه.

يعطون منها كما يشاءون. وتوافق مشيئتهم مشيئته ..

* * *

ما أجمل قول الرب عن موسى النبى «وأما عبدى موسى ... فهو أمين على كل بيتى. فماً إلى فم وعياناً أتكلم معه ... وشبه الرب يعاين» (عد١٢: ٧، ٨) ... بل ما أعجب قوله لذلك الابن «يا ابنى، أنت معى فى كل حين. وكل مالى فهو لك» (لو١٥: ٣١) !! بل يقول الرب عن تلاميذه لله الآب «وأنا قد أعطيتهم المجد الذى أعطيتنى ..» (يو١٧: ٢٢).

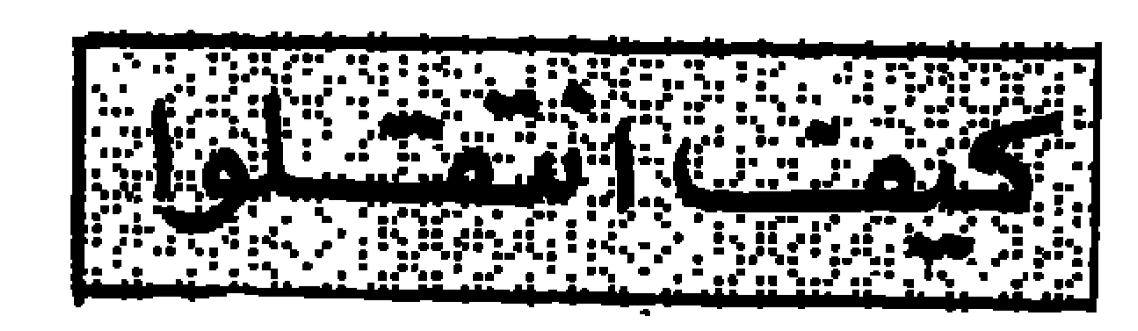
إننى أقف فى حيرة ، مبهوتاً أمام هذه العبارات الثلاث، أغوص فى أعماقها، لعلنى أفهمها كما ينبغى ...

« أمين على كل بيتى» ... « كل مالى فهو لك » ... « أعطيهم المجد الذى أعطيتنى » .

حقاً ما أعمق محبة الله الفائقة الوصف! وما أعجب كرمه وجوده حينما يعطى! ليس فقط لبنيه ولتلاميذه، بل حتى لذلك الابن الذى كان فى موقف جحود (لو١٥).

ألا نحبه من أعماقنا ، وهو بهذا الحب والجود ؟!

* * *



وجميل أن نتذكر هنا كيف انتقل كثير من هؤلاء القديسين من عالمنا الفانى، وما كان بعد ذلك...

لنترك إلى حين قصة صعود إيليا إلى السماء (٢مل ٢: ١١)، وقصة أخنوخ وكيف أخذه الرب إليه (تك ٥: ٢٤)، وقصة نياحة السيدة العذراء مريم وصعود جسدها. فهذه كلها حالات نادرة جداً لمستويات عالية... ولنستمع إلى قول الكتاب «لتمت نفسى موت الأبرار، ولتكن آخرتى كآخرتهم» (عد ٢٣: ١٠)... ولننظر:

روح الأنبا آمون، وكيف رآها القديس الأنبا أنطونيوس، والملائكة تحملها فى تهليل... ولنقرأ عن القديس الأنبا كاراس السائح وكيف حضر قديسون لاستقبال روحه. وأنشد له داود مزموره «ارجعى يا نفسى إلى موضع راحتك، فإن الرب قد أحسن إلىّ» (مز ١١٤)... كذلك القديس اسطفانوس أول الشمامسة كيف فى وقت استشهاده رأى السموات مفتوحة، وابن الإنسان قائماً عن يمين الله» (أع ٧: ٥٥، ٥٦). وكان وجهه «كأنه وجه ملاك» (أع ٦: ١٥).

* * *

وماذا عن الذين فارقوا العالم فى أيامنا. وكأن الحجرة وقت وفاتهم، وقد أضاء فيها نور، واشتم الناس رائحة بخور. أو الذين كانوا يرون رؤى معزية وقت انتقالهم. ويرقدون والابتسامة على وجوههم والفرح فى قلوبهم...

كل أولئك أحبوا الله، فجعل ساعة وفاتهم ساعة فرح. وبعضهم أخبره الرب بوقت انتقاله... ومن أمثلة ذلك بعض الآباء السواح كما فى قصة آبا نفر، والقديس سيداروس المتوحد وآخرين. كذلك قصة القديسة مريم القبطية.

وما أكثر الذين ظهروا بعد وفاتهم لآخرين.

مثل القديس أغناطيوس الأنطاكى الشهيد، الذى بعد أن ألقوه للأسود الجائعة فافترسوه، ظهر لزملائه فى السجن المؤمنين وعزاهم وشجعهم .. وظهورات القديسين لا تدخل تحت حصر....

والبعض كانت تحدث معجزات أثناء تعذيبهم أو استشهادهم، مما يجعل غير المؤمنين يؤمنون، كما فى قصة مارجرجس... أو تفشل الطرق التى أرادوا قتلهم بها، مثلما حدث مع القديس يوحنا الحبيب، والقديس بوليكاربوس، والسمّ الذى أعدوه لمارجرجس...

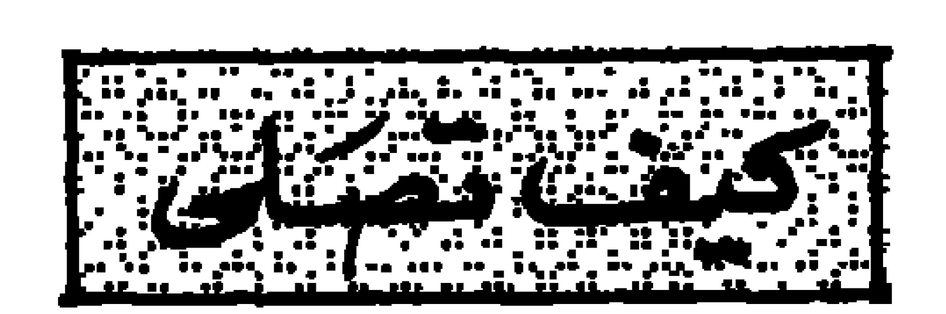
أيضاً تأملنا فى صفات القديسين الجميلة، تجعلنا نحبهم، ونحب صفاتهم، ونحب الله الساكن فيهم.

ألست ترى معى أن الموضوع طويل إن استرسلنا فى الحديث... لذلك اعتبر ما ذكرته مجرد مثال، وأترك الباقى لتأملك الخاص.



الفصل التاسع :

نحب الله بالصلاة
صلاة الحب



بالمداومة على الصلاة ، تصل إلى محبة الله .

إن أحببت الله ستصلى . وإن صليت كثيراً ، ستجد أن محبتك لله سوف تزداد وتتعمق يوماً بعد يوم . وهذا طبيعى لأنك إن أحببت شخصاً ، فسوف تحب أن تتكلم معه . والكلام مع الله هو الصلاة .

وبالصلاة سوف تتعلم الصلاة ، أعنى تتعلم كيف تتحدث إلى الله ، حديثاً يقودك إلى محبته ...

بالمداومة على الصلاة ، سوف تصل إلى عمق كل كلمة تقولها فى صلاتك . وستجد أنك ترتبط بالله أكثر فأكثر ، وتجد دالة فى الحديث معه ، وشهوة للحديث معه . وهكذا تعلمك الصلاة محبة الله .

* * *

كلّم الرب فى صلاتك بهذا الأسلوب ، ومن هنا يتعود لسانك الحديث معه ...

كإنسان يريد أن يتعلم إحدى اللغات ، لابد أن يتكلم بها ، حتى لو كان لا يعرف ، أو يخطىء فى الحديث . إلا أنه بكثرة الكلام يتعود لسانه ، و يسهل عليه الأمر ، إلى أن يجيد الحديث بها ...

هكذا أنت ، كلما تكلمت مع الله ، يتعود لسانك الحديث معه . وتتعود أن تحدثه بعاطفة وحب .

* * *

ولكنك فى بداية تدربك ، قد لا تبدأ الصلاة بمشاعر الحب .

لذلك أبدأ الصلاة ، ولو بالتغصب ، وحاول أن تتأمل أو على الأقل تفهم كل كلمة فيها ... والقديسون لم يصلوا إلى صلاة الحب من بادىء الأمر. إنما تدرجوا فى عمق الصلاة وعاطفية الصلاة ، إلى أن وصلوا فيها إلى درجات من الكمال ، حسبما منحتهم النعمة ، وحسبما كانت لهم من مشاعر ، ومن استعداد ...

* * *

لذلك حاول أن تصلى بعاطفة وبفهم ...

لأنك لو صليت بطريقة روتينية ، فلن توصلك إلى محبة الله . والقديس بولس الرسول إنه يفضل أن يقول خمس كلمات بفهم أفضل من عشرة آلاف بغير فهم (١كو١٤: ١٩) . ولذلك فإن كل كلمة تقولها فى صلاتك ، قلها بفهم وبعاطفة ، من أعماق قلبك ، كحبيب يكلم حبيبه ، وكصديق يكلم صديقه . وإن لم يكن فى قلبك هذا الحب وهذه المشاعر:

* * *

قل له : اعطنى يارب أن أحبك ...

فهذه هى الصلاة التى كان ينصح بها الشيخ الروحانى .

قل له : علمنى يارب كيف أحبك . درّبنى على محبتك ، ودرّجنى فى محبتك . اسكب محبتك فى قلبى بالروح القدس .

قل له : انزع يارب من قلبى كل محبة أخرى تتعارض مع محبتك ، حتى يصير القلب كله لك وحدك . لا تسمح أن أحب أى شىء أو أى أحد أكثر منك ، ولا أن أحب أى أحد أو أى شىء ، أو شهوة أو أى رغبة ، لا تتفق مع محبتك أنت . لا تسمح يارب أن يوجد فى قلبى من ينافسك ، أو ما ينافسك ... أو يسىء إلى محبتك .

اجعل محبتك هى التى تشغلنى وتملك قلبى .

وهى التى تقود كل تصرفاتى ، وتمتزج تماماً بكل تصرفاتى وبكل أقوالى وبكل

مشاعرى ...

أعطنى يارب أن اشتهى الجلوس معك والحديث إليك، وأن أجد لذة فى الصلاة والمداومة عليها .

وإن فترت محبتك ، اطلب منه أن يعيدها بحرارتها .

قل له : أنت يارب تقول «عندى عليك أنك تركت محبتك الأولى» (رؤ٢: ٤) . فكيف أعود يا رب إلى محبتى الأولى إلا بك؟! أنت الذى تعيدنى إلى محبتك . أنت يارب الذى تتوبنى فأتوب (أر ٣١: ١٨) . أنت الذى تمنحنى حرارة الروح، لأنك أنت يارب نار آكلة (عب ١٢: ٢٩) . لذلك ارجعنى يارب إلى محبتى الأولى، بل وإلى أكثر منها ...

* * *

ومن أجمل الأمثلة لصلوات الحب : صلاة التسبيح .

التى تحدث فيها الله متأملاً فى صفاته ، مثل صلاة «ياربى يسوع المسيح ، مخلصى الصالح»، بكل ما تحويه من تفاصيل علاقة النفس بالله... ومثل صلاة الثلاث تقديسات ، وكثير من صلوات القداس الغريغورى ...

قل له : أنت يارب حنون وطيب . أنت طويل الأناة . كم أطلت أناتك علىّ، وأنا مبتعد عنك ...

وكم منحتنى فرصاً لكى أرجع إليك . وكم غفرت لى أيها الغفور المحب، ولم تصنع معى حسب خطاياى ...

* * *

كلّم الرب بصراحة كاملة ، وافتح له قلبك .

قل له : أنا يارب أريد أن أحبك . ولكن الخطية الفلانية تعوق طريقى إليك . وتسيطر على قلبى ومحبتى. وأنا يارب حاولت أن أتركها ولم استطع . أعطنى القوة أن أتركها، لأنه بدونك لا استطيع ذلك (يو١٥: ٥) . نجنى يارب من هذه الخطية ، لا لكى أنجو من العقوبة ، إنما لكى يزول العائق الذى يمنعنى من محبتك ...

* * *

تحدث مع الله بمحبته ، كما كان يحدثه داود فى مزاميره .

كأن تقول له : اشتاقت نفسى إليك . عطشت نفسى إليك . كما يشتاق الأ يّل إلى جداول المياه، كذلك اشتاقت نفسى إليك ياالله » « متى أقف وأتراءى أمام الله » (مز٤٢ : ١، ٢) « باسمك أرفع يدىّ ، فتشبع نفسى كما من لحم ودسم (مز٦٣) « محبوب هو اسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتى » (مز١١٩) .

استخدم فى صلواتك عبارات الحب ، ومشاعر الحب ، وتدرب على ذلك حتى يتعوده قلبك ، كما يتعوده لسانك . وتقول كما فى التسبحة « قلبى ولسانى يسبحان القدوس » ...

* * *

بالإضافة إلى صلوات المزامير والأجبية ، لتكن لك صلواتك الخاصة التى تقولها من كل قلبك .

التى تفتح فيها قلبك لله ، وتحدثه عن كل أمورك : عن كل مشاعرك وأفكارك ، وعن حروبك وضعفاتك ، وعن مشاكلك وسقطاتك . وتسأله المشورة والمعونة .. وتطلب منه القوة والبركة ... كل ذلك دون أن تتصنع أفكاراً أو كلمات أو مشاعر... إنما تتكلم مع الله كما أنت . مثلما جاءه الابن الضال بنفس ملابسه القذرة التى عمل بها فى رعى الخنازير... واطلب منه أن يهبك محبته كعطية مجانية من عنده... وقل له : لا تحرمنى يارب من محبتك...

كيف صلى القديسون

وتأمل كيف كان القديسون يصلّون ؟ وكيف كانت محبتهم لله تظهر فى صلواتهم .

أولئك الذين كانوا يكلمون الله بقلوبهم ، ولو صمتت ألسنتهم ... وكما قال الشيخ الروحانى : سكّت لسانك ، لكى يتكلم قلبك . وسكّت قلبك لكى يتكلم الله . ومن هنا يبدو أن صلواتهم كانت حديثاً متبادلاً مع الله : يحدثونه بقلوبهم ، و يتحدث هو فى قلوبهم . وفيما يتكلمون مع الله ، يستمعون إلى صوته فى قلوبهم .

وكل كلمة يقولونها فى صلواتهم، كانوا يتعمقون فى معناها جداً، و يلتذون بها، حتى قيل عنهم:

« ومن حلاوة اللفظة فى أفواههم، ما كانوا يشاءون أن يتركوها ليقولوا لفظة أخرى ».

كانت كلمات الصلاة حلوة فى أفواههم، ولها عمق وتأثير على نفوسهم، حتى كان يعزّ عليهم أن يتركوها إلى غيرها... أين هذا، من الذين يصلّون، وهم لا يدركون معنى ما يقولون! أو يصلّون بسرعة حتى ينتهوا من الصلاة و يعودوا إلى مشاغلهم!!

أما القديسون فمن حلاوة صلتهم بالله فى صلواتهم، ما كانوا يريدون أن يختموا الصلاة، و يكتفوا بهذا الحديث الجميل بينهم و بين الله وأثره العميق فى نفوسهم.

* * *

كانت الصلاة لهم وقت متعة روحية، تسبح فيها الروح خارج نطاق الجسد والماديات...

كانت لذتهم فى الصلاة، أو بمعنى أدق: لذتهم فى العشرة الإلهية أثناء الصلاة. ومن أجل هذه المتعة الروحية، تركوا العالم وكل ما فيه، لكى يتفرغوا لعمل الصلاة، حيث يتمتعون باللقاء مع الله، و يشعرون بوجودهم معه، أو بوجوده معهم.

وكثيراً ما كانوا ينسون أنفسهم وكل ما يحيط بهم. مثلما حدث مع القديس يوحنا القصير الذى طرق الجمّال بابه ليحمل عمل يديه من القفف ليبيعها. فكان فى كل مرة يدخل قلايته ليحضر القفف له، يختطف عقله فى الصلاة فينسى...

* * *

وكثيراً ما كان الله ينعم على هؤلاء القديسين بحالة روحية أثناء الصلاة، فلا يدرون هم فى الجسد أم خارج الجسد.

كما حدث للقديس بولس الرسول (٢كو١٢: ٢، ٣).

أحياناً يتمتعون برؤى روحية، أو يدخلون فى حالات من الدهش. أو يجدون عقلهم منشغلاً بكلام الصلاة. دون أية حركة إرادية منهم، بحيث لا يستطيعون ايقافه عن الصلاة، ولا يريدون. ولعل هذا بعض ما قصده الشيخ الروحانى بقوله « ليتكلم

قلبك » ...

و يتمتعون أثناء صلواتهم بسيل من المعانى الروحية يتوارد على أذهانهم ، وما كان يخطر على بالهم من قبل . وربما العبارة الواحدة تأخذ معنى جديداً فى كل صلاة ، حتى ليقولوا مع داود النبى « اكشف يارب عن عينىّ، لأرى عجائب من شريعتك » (مز١١٩) .

* * *

تتحول صلاتهم إلى حب . و يتحول حبهم إلى مناجاة، وتتحول مناجاتهم إلى متعة روحية ــ

وفى هذه المتعة ، يتمنون لو بقوا هكذا قائلين مع التلاميذ عند جبل التجلى « جيد يارب أن نكون ههنا » (مر٩ : ٥) ... وهذا يحدث حينما يكون المصلى فى حالة روحية معينة ، فيها الحب والعاطفة والفهم والتركيز، والانشغال الكلى بالله ، والموت الحسى والعقلى عن كل ما حوله . و يذكرنا هذا بالقديس يوحنا الأسيوطى حينما سألوه « ما هى الصلاة الروحانية ؟ » فأجاب « هى الموت عن العالم » ...

ومن أجل اختطاف عقلهم أحياناً أثناء الصلاة ، كانوا يصلون وهم وحدهم فى مكان خلوتهم .

فلا يرى أحد مشاعرهم أثناء الصلاة، ولا ما يشغل عقلهم وقتذاك ، أو ما يحدث لهم من رؤى أو من دهش... أو كيف يدغدغ حب الله حواسهم حتى ينطبق عليهم قول عذراء النشيد « فإنى مريضة حباً » (نش٢ : ٥) .

* * *

أما أنت يا أخى إن كنت لم تصل بعد إلى شيء من هذا :

فنصيحتى لك أن تلتصق بالرب على قدر ما تستطيع أثناء الصلاة ، وتبعد نفسك عن طياشة الفكر، وتركز ذهنك فى كلمات الصلاة، وتصحبها بكل عواطفك ومشاعرك . وكلما حان انتهاء الصلاة ، حاول أن تستمر، وأن تقول للرب « امكث معى يا سيدى » (مت ٢٤ : ٢٩) ...

وحاول فى بعض الأوقات أن ترتفع عن مستوى الطلب .

وتدرب فى صلاة الحب ، أن يكون طلبك الوحيد هو الله وليس غيره .

كما قال داود النبى « طلبت وجهك ، ولوجهك يارب ألتمس . لا تحجب وجهك عنى » (مز٢٧ : ٩).. مثل هذه الصلاة تعبر عن الحب .

اتخذ الله صديقاً لك ، وحبيباً ، وراعياً وحافظاً ومرشداً . وافهم فى قلبك تماماً أنك لا تستطيع الاستغناء عن محبته لحظة واحدة ولا طرفة عين . حينئذ تجد المحبة التى فى قلبك قد ظهرت فى صلاتك .



الفصل العاشر

وسائل أخرى لمحبة الله

هناك وسائل أخرى كثيرة نصل بها إلى محبة الله. وسنتكلم عنها بشيء من الإيجاز، ومنها :

مخافة الله .

محبة الخير .

محبة الناس ، و بالتالى الخدمة .

وسائط النعمة .

تذكار الموت والدينونة .



مخافة الله

المخافة هى بداية الطريق إلى المحبة .

يقول الكتاب المقدس فى سفر الأمثال «بدء الحكمة مخافة الرب» (أم ٩ : ١٠)، و يقول المرتل فى المزمور «رأس الحكمة مخافة الرب» (مز١١١ : ١٠). فكيف ذلك ؟ وما العلاقة بين المخافة والمحبة ؟ بينما يقول القديس يوحنا الرسول : «لا خوف فى المحبة . بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج» (١يو٤ :١٨)..

حينما تبدأ بالمخافة ، سوف تطيع الله وتنفذ وصاياه :

على الأقل ستخاف من عقوبته ، ومن يوم الدينونة الرهيب، ومن العذاب الأ بدى . و بطاعة الوصايا سوف تجد فيها لذة ، وتجدها نافعة جداً لحياتك ، كما كان داود النبى يتغنى بوصايا الله ، و بشريعته وناموسه ، فى مزاميره . و يقول «وصية الرب مضيئة تنير العينين من بُعد» «وصايا الرب مستقيمة تفرح القلب» «تصير الجاهل حكيماً» «أشهى من الذهب والأ بريز الكثير. وأحلى من العسل وقطر الشهاد» (مز١٩). و يقول أيضاً فى المزمور الكبير «اذكر لعبدك كلامك الذى جعلتنى عليه

أتكّل، هذا الذى عزانى فى مذلتى» «بكل قلبى احفظ وصاياك» «بشريعتك أتلذذ» «لكل كمال وجدت منتهى. أما وصاياك فواسعة جداً» «كم أحببت شريعتك. اليوم كله هى لهجى» (مز١١٩).

وبمحبة وصايا الله، نحب الخير.

وبمحبة الخير، نصل إلى محبة الله.



محبة الخير

ربما فى بادىء الأمر نغصب أنفسنا على محبة الخير، ولكننا بتوالى ممارسته نعمله بكامل إرادتنا، بل و برغبة قلوبنا. ولا نستطيع أن نخطىء (١يو٣: ٩).

وأنا أقول محبة الخير، وليس مجرد عمل الخير، فقد يفعل الإنسان الفضيلة خوفاً، أو خجلاً من انتقاد الناس، أو اتقاء للعقوبة، أو حفظاً لسمعته، أو مجاملة، أو مجاراة للمجتمع، أو رياءً بينما يحب الخطية فى أعماقه. ليست هذه المظاهر هى التى توصل إلى محبة الله.

فالمقصود ليس هو عمل الخير بل محبة الخير.

إن الله لا يهمه الخير الذى نعمله مضطرين، أو مجبرين. كما لا قيمة للخير الذى نبغى من ورائه مديحاً أو مجداً من الناس أو إعجاباً... لأننا فى هذه الحالة، يكون حبنا هو للمديح والإعجاب وليس للخير، كما إننا ننال أجر ما فعلناه هنا على الأرض (مت٦: ٢، ٥). إنما الخير الحقيقى، هو الذى نعمله حباً للخير ذاته، وحباً لمن نصنع معهم الخير، وحباً لله نفسه...

* * *

وعندما نحب الفضيلة والخير، سنحب الله تلقائياً. لأن الله هو الخير المطلق.

وهكذا يمكن للإنسان البار أن يحب الله بعكس الخاطىء الذى يحب الخطية، ولا يستطيع أن يحب الله معها فى نفس الوقت، لأنه لا شركة بين النور والظلمة، ولا خلطة للبر والإثم (٢كو٦: ١٤)... وكالوجوديين الذين يظنون أن الله يعطل ممارستهم لشهواتهم، فينكرون وجود الله الذى يدعو إلى الخير، و يعاقب على تلك الشهوات.

أما أنت إذا أحببت البر والخير، فستجد أن الله هو مثلك الأعلى فيما تحب، فتحبه ...

وإذا أحببت الخير، ستجد أنك قد ارتفعت فوق مستوى الصراع مع الخطية. إن عبارة الجسد يشتهى ضد الروح، والروح تشتهى ضد الجسد» (غل ٥: ١٧). وهى عبارة خاصة بالمبتدئين، الذين يجاهدون ضد الجسد غير الخاضع للروح. أما الجسد النقى البار، الذى يحب الخير، فهو لا يشتهى ضد الروح. بل روح البار هى التى تقود جسده. وروح الله يقود هذه الروح البشرية (رو٨: ١٤).

* * *

إذا أحببت الخير، وصار جسدك هكذا مقدساً، سيكون فعلاً هيكلاً للروح، وروح الله يسكن فيه (١كو٣: ١٦).

وتدخل فى شركة الروح القدس (٢كو١٣: ١٤). وروح الله هو الذى يسكب محبة الله فى قلبك.

لأنه هكذا قال الرسول «.. محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا» (رو٥: ٥).

إذن احتفظ بسكنى الروح القدس فيك، وبشركتك مع الروح القدس فى الفكر والعمل، لكى تحتفظ أيضاً بمحبة الله فى قلبك. ولا تحزن روح الله بأى عمل يضاد مشيئة الرب. وهكذا تعيش باستمرار فى محبة الله...

* * *

الذى يحب الخير ويحب الله، جهاده الروحى هو جهاد لذيذ وبلا تعب، جهاد للنمو فى الخير ومحبة الله...

إنه لا يجاهد ضد نفسه ليغصبها على حياة الفضيلة. فمادام يحب الفضيلة، طبيعى أنه لا يغصب نفسه عليها، بل يمارسها بفرح وبشوق، ويجد لذته فيها. وهكذا يحب الصلاة، ويحب الله الذى يكلمه فى صلاته. ويحب الكتاب المقدس، ويحب الله الذى أرسل إليه هذه الكلمات التى تشبع نفسه. ويحب الكنيسة وكل أسرارها المقدسة. ويجد فيها نبعاً روحياً يرويه وينميه. ويفعل كل ذلك بلا تغصب. لماذا؟

لأنه دخل إلى راحة الرب، دخل سبته الذى لا ينتهى، الذى يتدرج فيه

من خير إلى خير أكبر.

ويرتبط الخير عنده بمحبة الله ارتباطاً وثيقاً وعجيباً. فالخير يقوده إلى محبة الله. ومحبة الله تقوده إلى الخير. وتصبح كل منهما سبباً ونتيجة بالنسبة إلى الأخرى.

* * *

الذى يحب الخير، لا يرى وصية الله ثقيلة كما قال الرسول (١يو٥: ٣)، ذلك لأنه يحبها.

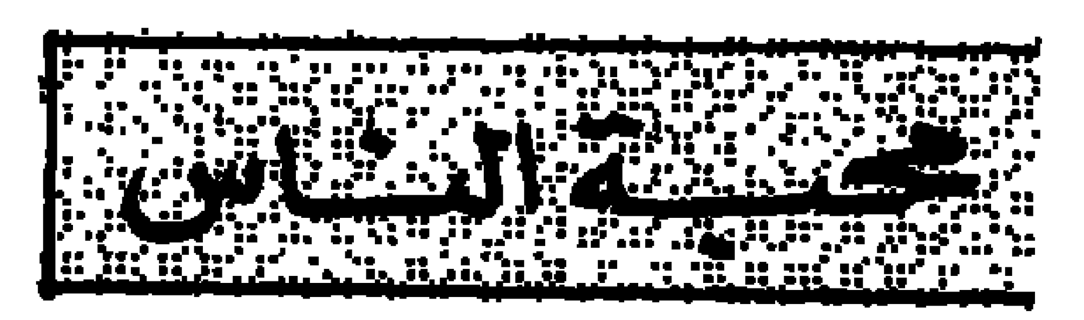
بل إن الذى يحب الرب ويحب البر، قد ارتفع فوق مطالب الناموس، إذ قد دخل فى الحب.

إنه يفعل الخير بلا وصية. بل بطبيعته الخيرة. ليس هو محتاجاً إلى وصية تدعوه إلى الخير.

فى محبته للخير، عاد كما كان صورة الله. وأصبح الخير جزءاً من عناصر نفسه، يفعله كشىء عادى طبيعى، لا يبذل فيه جهداً. يصير الخير فى حياته، كالنفس الذى يتنفسه، دون أن يشعر فى داخله أنه يفعل شيئاً زائداً أو عجيباً، ودون أن يحاول ذلك.... ولذلك فهو أيضاً لا يفتخر أبداً بهذا الخير، باعتبار أنه شىء عادى...

إنه يحب الله، ويحب فيه الخير الذى يشتهيه. ويصبح الله هو شهوته ولذته.

ويجد فى الله مثالياته التى يفقدها العالم. ولذلك يزهد العالم، ويحب دائماً أن يلتصق بالرب، كما قال داود النبى «أما أنا فخير لى الالتصاق بالرب» (مز٧٣: ٢٨). ويشعر بفرح لأنه قد وجد الله، وعرفه واختبره، وعاشره وعاش معه. واختبر معه لذة الحياة الروحية، لذلك يقول مع عذراء النشيد «امسكته ولم أرخه» (نش٣: ٤).



محبة الناس

الذى يحب الخير، يحب الناس، لذلك يصنع معهم خيراً. ومحبة الناس توصله إلى محبة الله. وكما قال الرسول: «إن قال أحد إنى أحب الله، وهو يبغض أخاه، فهو كاذب».

لأن من لا يحب أخاه الذى أبصره ، كيف يقدر أن يحب الله الذى لم يبصره؟! (١يو٤: ٢٠).

إن أردت أن تحب الله ، ابدأ أولاً بمحبة الناس. اخدم الناس، ساعدهم، احترمهم، ابذل نفسك عنهم. وعندئذ تجد أن محبة الله قد دخلت تلقائياً إلى قلبك.

إعطِ من قلبك حباً لكل المحتاجين إلى الحب. اعطِ حباً للأطفال، للعجزة والمسنين، للأيتام، للمحتاجين والفقراء، للمعوقين، للذين ليس لهم أحد يذكرهم... اخدمهم جميعاً، وستجد أن محبة الله قد دخلت قلبك بقوة. وستجد أيضاً أنك ترفع قلبك إلى الله ليساعدك على خدمتهم. وأنك تشكره إذ قدّم لك احتياجاتهم...

تحبهم ، لأنهم أولاده وشعبه . وتحبه لأنه يحبهم ويساعدك على محبتهم.

وتجد أن محبة الله فى قلبك ترتبط أيضاً بمحبة الناس. إن أحببته تحبهم. وإن أحببتهم تحبه... لذلك فإن السيد المسيح حينما قال إن الوصية الأولى هى محبة الله، قال «والثانية مثلها: تحب قريبك كنفسك» (مت ٢٢: ٣٩). تأمل فى كلمة (مثلها) وكلمة (كنفسك)...

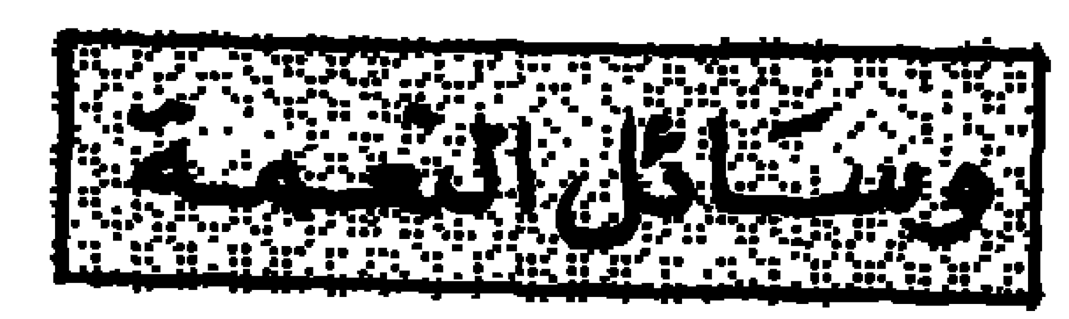
* * *

لذلك فإن الخدمة توصل إلى محبة الله.

الخدمة توصلك إلى محبة الله، ومحبة الله ترسلك إلى الخدمة. بشرط أنها لا تكون خدمة روتينية، ولا مجرد نشاط. إنما خدمة ممتزجة بالحب. الحب هو الذى يدفع إليها، والحب يكون من نتائجها. فأنت تخدم الناس لأنك تحبهم، ولأن الله يحبهم. وتخدمهم لأنك تحب ملكوت الله، وتحب لهم أن يدخلوا هذا الملكوت، وأن يحبوا الله الذى تحبه والذى يحبك.

انظر ماذا قال السيد المسيح عن تلاميذه للآب «عرّفهم اسمك، وسأعرفهم. ليكون فيهم الحب الذى أحببتنى به، وأكون أنا فيهم» (يو١٧: ٢٦).

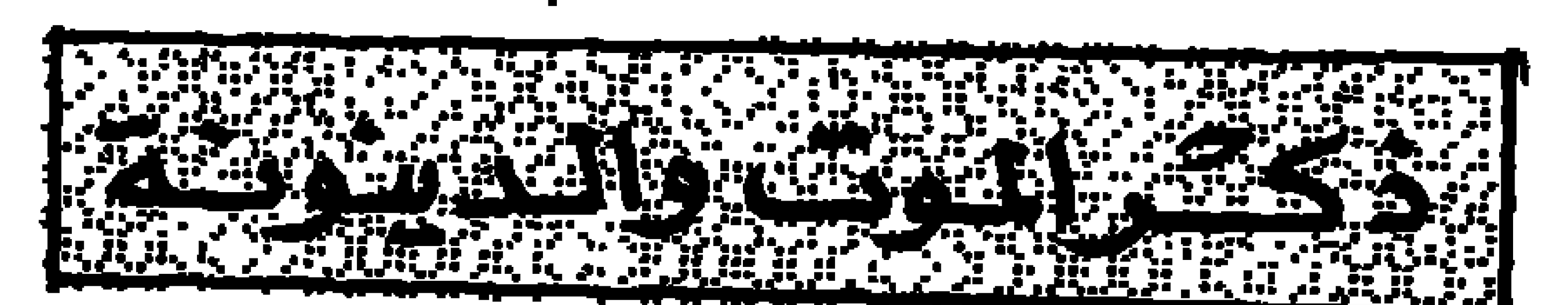
وهناك وسائل أخرى توصلك إلى محبة الله :



مما يربطك بمحبة الله أيضاً : وسائط النعمة :

إن الله قد دبّر لنا وسائط كثيرة تساعدنا على محبته ، منها الصلاة، وقراءة الكتاب المقدس، واجتماعات الكنيسة وألحانها وطقوسها وأسرارها المقدسة ، وبخاصة الاعتراف والتناول. وكذلك القراءة الروحية ، والتأمل، وزيارة الأماكن المقدسة ، والإرشاد الروحى.

فلكى تصل إلى محبة الله ، عليك أن تهتم بكل هذه الوسائط، لأن بعدك عنها يسبب لك الفتور، ولا يعود الله يشغل فكرك. ولقد أصدرت لك كتاباً عن (الوسائط الروحية) أرجو أن يفيدك فى هذا المجال.



مما يقودك إلى محبة الله أيضاً : التفكير فى الأبدية .

لأن الإنسان إذا شعر بفناء هذا العالم ، وبأنه سوف يبيد وشهوته معه (١يو٢ : ١٧)، وأنه كله باطل وقبض الريح (جا ١). ولابد للإنسان أن يقف يوماً للدينونة أمام كرسى الله العادل، الذى سيجازى كل واحد حسب أعماله (مت ١٦ : ٢٧)، وحسب كل ما فعله بالجسد خيراً كان أم شراً (٢كو٥ : ١٠)... فحينئذ يستيقظ ضمير الإنسان، ويبدأ أن يستعد لملاقاة الله. ويحاول أن يكوّن علاقة مع الله، ويعتذر عن خطاياه، ويدخل فى محبة الله مادام سيلاقيه فى الأبدية ، وبأى وجه سيلقاه ؟

لذلك فالكنيسة المقدسة ذكرتنا بالدينونة والمجىء الثانى فى صلوات الغروب والنوم ونصف الليل.

لكى نستعد للقاء الله، بالتوبة والندم على خطايانا، وبمخافة الله التى توصلنا إلى محبة الله ليتك تصلى هذه الصلوات، وبخاصة التحاليل. وثق أنها ستعمل فى قلبك عملاً. وما أكثر القديسين الذين كان تذكار الموت والدينونة يقودهم إلى الإلتصاق بالله بالأكثر.

الفصل الحادى عشر :

علامات محبتنا لله

تحدثنا كثيراً عن كيف تحب الله ، وبقى أن نذكر ما هى علامات هذه المحبة ، وما نتائجها فى حياتك ؟

* * *

العلامة الكبرى هى أن محبة الله فى قلبك ، تنسيك كل شىء ، فلا تشعر بلذة شىء سواه .

كل ملاذ العالم تبدو بلا طعم لمن ذاق محبة الله .

يبدو كل شىء تافهاً وضئيلاً ، كما قال سليمان الحكيم « الكل باطل وقبض الريح » (جا ١ : ١٤) . وهكذا كلما تنمو فى محبة الله ، على هذا القدر تزهد مغريات العالم كلها ، وتردد مع القديس بولس الرسول « خسرت كل الأشياء ، وأنا أحسبها نفاية ، لكى أربح المسيح ، وأوجد فيه » (فى ٣ : ٨ ، ٩) .

تصوروا إنساناً نال درجة الدكتوراه فى الرياضيات ، أتراه يجد لذة فى مراجعة مبادىء علم الحساب والجمع والطرح ؟! أم هذه الأمور تبدو تافهة جداً فى نظره ، لا يفكر فيها ! هكذا أمور العالم بالنسبة إلى من امتلأ بمحبة الله ...

بل الإنسان الذى انشغل بمحبة الله ، ينسى حتى نفسه فى هذه المحبة ـ لا يشعر بوجودها ، بل بوجود الله فيه ...

وهكذا يقول مع القديس بولس الرسول « أحيا لا أنا ، بل المسيح يحيا فىّ » (غل ٢ : ٢٠) . عجيبة حقاً هذه العبارة « لا أنا ... » . هنا إنكار الذات فى أعمق صوره ... هناك من ينكر ذاته فى تعامله مع الناس . ولكن الأعمق هو إنكار الذات فى محبة الله ...

وإن وجد ذاته ، يجدها فى الله ، مثل الغصن الذى فى الكرمة . إنه يحيا طالما هو

ثابت فى الكرمة، تسرى فيه عصارتها (يو١٥).

وهنا بالمحبة يصل إلى الثبات فى الله ...

كما قال الرب نفسه «أنا الكرمة وأنتم الأغصان. الذى يثبت فىّ وأنا فيه، هذا يأتى بثمر كثير» (يو١٥: ٥). وكيف نثبت فيه؟ لقد شرح ذلك بقوله «اثبتوا فى محبتى» (يو ١٥: ٩). وعلامة ثباتنا فى محبته، أن نثبت فى كلامه، فى وصاياه. وقد قال فى ذلك «إن حفظتم وصاياى، تثبتون فى محبتى» (يو١٥: ١٠).

* * *

على أن الثبات فى الله، له معنى آخر أعمق.

الغصن حينما يثبت فى الكرمة، يشعر أنه أحد أعضاء هذه الكرمة. هكذا أنت إن كنت ثابتاً فى الرب، تشعر أنك عضو فى جسد المسيح... حقاً إن هذا السر عظيم (أف ٥: ٣٢).

لماذا إذن تشعر بالغربة عن الله ... وتقول مثل عذراء النشيد فى وقت بعدها عنه «لماذا أكون كمقنعة عند قطعان اصحابك» (نش١: ٧).

إنك يا أخى، لست غريباً عن الله. وليس الله غريباً عنك.

أنت فى قلبه، وهو فى قلبك، أنت فيه، وهو فيك، أنت فيه، كالغصن فى الكرمة. وهو فيك لأنك هيكل لروحه القدوس، وروحه القدوس يسكن فيك (١كو٣: ١٦). وقد قال أيضاً عن سكناه هو والآب فيك «إن أحبنى أحد، يحفظ كلامى. ويحبه أبى. وإليه نأتى وعنده نصنع منزلاً» (يو١٤: ٣). إنه يعتبرنا اخوته، و يعتبرنا كشخصه ولذلك حينما اضطهدت الكنيسة من شاول الطرسوسى، قال له الرب «لماذا تضطهدنى؟!» (أع٩: ٤)... معتبراً اضطهاد الكنيسة اضطهاداً له هو. وقال فى مناسبة أخرى «مهما فعلتموه بأحد أخوتى هؤلاء الأصاغر، فبى فعلتم» (مت١٥: ٤٠).

* * *

من علامات محبتنا لله التصاق نفوسنا به.

وفى ذلك يقول داود النبى فى المزمور «وأما أنا فخير لى الالتصاق بالرب...»

(مز٧٣: ٢٨) . وقال أيضاً «التصقت نفسى بك . يمينك تعضدنى» (مز٦٣ : ٨) .

إن التصقنا بالله ، نبعد تلقائياً عن الخطية ، بل نكرهها ، ولا تتفق مع طبيعتنا ، لأنه «لا شركة للنور مع الظلمة» (٢كو٦ : ١٤) . والذى يلتصق بالله، لا يملّ من الحديث معه . بل يقول له مع داود «التحقت نفسى وراءك» «عطشت نفسى إليك» (مز٦٣ : ١) . إنه يفرح بالوجود فى حضرة الله ، كما قالت عذراء النشيد «نبتهج ونفرح بك... بالحق يحبونك» «لأن حبك أطيب من الخمر» (نش ١ : ٤ ، ٢) .

ومن أجل الفرح بالوجود مع الله ، ترك آباؤنا الرهبان كل شىء ، لكى ينفردوا فى البرية مع الله الذى أحبوه....

أما أنت ، إن كنت تسأم من الصلاة بسرعة ، وتحب أن تختمها ، فاعلم أنك لم تصل إلى محبة الله بعد...

آباؤنا الشهداء القديسون ، فى وقت استشهادهم : كانت مشاعر حبهم لله هى التى تملك على قلوبهم ، أكثر بكثير من شعورهم بالألم . لذلك احتملوا العذابات ، بل أحبوها لأنها ستقربهم إلى الوجود الدائم مع الله .

* * *

محبة الله ، ليست مجرد مشاعر مبهمة ، بلا ثمر . إنما تظهر محبتنا لله بحفظنا لوصاياه .

وعن هذا الأمر يتحدث القديس يوحنا الحبيب بوضوح تام فيقول «بهذا نعرف أننا قد عرفناه ، إن حفظنا وصاياه ، من قال قد عرفته ، وهو لا يحفظ وصاياه ، فهو كاذب وليس الحق فيه . وأما من حفظ كلمته ، فحقاً فى هذا قد تكملت محبة الله» (١يو٢ : ٣- ٥) . إلى أن يقول «فإن هذه هى محبة الله ، أن نحفظ وصاياه» (١يو٥ : ٣) .

وهذا واضح جداً ، لأن الذى يكسر وصاياه ، لا يمكن أن يكون محباً له . إنما هو إنسان متمرد عليه ، أو هو شخص يخون الله ، و ينضم إلى مقاوميه . فحفظ الوصايا علامة أساسية لمن يحبون الله ، كما أن الابن الذى يحب أباه بالجسد ، يطيع وصاياه .

* * *

من علامات المحبة لله أيضاً ، أن الذى يحب الله يحب كل ما يتعلق بالله ...

يحب كنيسته ويقول «مساكنك محبوبة أيها الرب إله القوات تشتاق وتذوب نفسي للدخول إلى ديار الرب» (مز٨٤: ١) «واحدة طلبت من الرب وإياها ألتمس، أن أسكن فى بيت الرب كل أيام حياتى، لكى انظر إلى جمال الرب، وأتفرس فى هيكله» (مز١٢٧: ٤). «طوبى لكل السكان فى بيتك، يباركونك إلى الأبد» (مز٨٤: ٤).

يحب كلام الله، شريعته، ناموسه، وصاياه. ويقول:

«وجدت كلامك كالشهد فأكلته» بل هو «أحلى من العسل والشهد فى فمى» (مز١١٩) «ناموسك هو تلاوتى» «شريعتك هى لهجى، هى لذتى» «فرحت بكلامك كمن وجد غنائم كثيرة» «سراج لرجلى كلامك، ونور لسبيلى» (مز١١٩).

الذى يحب الله، يحب أيضاً سماءه وقديسيه وملكوته.

* * *

الذى يحب لله، تقوده العاطفة فى كل ممارساته الروحية.

هو من أجل الله يقرأ. ومن أجل المتعة به يصلى. من أجل الله يخدم. بل من أجل اللقاء به والتمتع بأسراره المحيية، يدخل إلى الكنيسة. ومن أجله يحضر الاجتماعات الروحية. ومن أجله يجلس مع الناس. من أجله يتكلم لكى يحدث الناس عنه. ومن أجله يصمت ليتأمل صفاته الجميلة. بل من أجله يحيا لكى يخدمه وينشر اسمه. ومن أجله يموت لكى يلتقى به فى الفردوس ثم فى الملكوت.. قائلاً فى كل ذلك مع بولس الرسول «إن عشنا فللرب نعيش، وإن متنا فللرب نموت. إن عشنا أو متنا فللرب نحن» (رو١٤: ٨).

* * *

الذى يحب الله، قد ارتفع عن المصارعة ضد الخطية.

إن عبارة «الجسد يشتهى ضد الروح، والروح ضد الجسد. وهذان يقاوم أحدهما الآخر» (غل٥: ١٧)، إنما هى عبارة للمبتدئين، الذين لم يصلوا إلى حب الله بعد، وما زالت أجسادهم تشتهى اشياء تبعدهم عن الله...

أما الذى يحب الله، فإنه يمجد الله بجسده وبروحه (١كو٦: ٢٠). وهو «لا

يستطيع أن يخطىء» (١يو٣: ٩)، «والشرير لا يمسه» (١يو٥: ١٨). لأن محبة الله ثابتة فيه. وكلما تقترب إليه خطية لتحاربه، يقول «كيف أصنع هذا الشر العظيم، واخطىء إلى الله؟!» (تك٣٩: ٩).

* * *

الذى يحب الله، ويتعلق به فكره، يجعل كل شيء يذكّره بالله الذى يحبه.

فهو إن رأى السموات، لا يتأمل فقط نجومها وكواكبها، ونور الشمس والقمر، إنما يقول مع داود النبى فى المزمور «السموات تحدث بمجد الله، والفلك يخبر بعمل يديه» (مز ١٩). ويقول أيضاً «السماء هى كرسى الله، والأرض موضع قدميه» (مت٥: ٣٤، ٣٥). ويقول إن السماء هى مسكن الله مع الناس (رؤ٢١). ويتذكر أبانا الذى فى السموات. ويقول هذه السماء التى أراها ليست شيئاً، فهناك السماء الثالثة التى اختطف إليها القديس بولس الرسول (٢كو١٢: ٢). وهناك سماء السموات التى قال عنها الرب «ليس أحد صعد إلى السماء، إلا الذى نزل من السماء، ابن الإنسان الذى هو فى السماء» (يو٣: ١٣).

* * *

وإن رأى الطبيعة الجميلة، لا ينشغل فقط بجمالها، بل يمجد الله الذى خلقها بهذا الجمال.

إذ لا يليق أن عطايا الله لنا، تشغلنا عن الله الذى أعطاها. بل كل هذه تعطينا فكرة عن حبه وكرمه وقدرته.

وهكذا إذا رأى زنابق الحقل، التى «ولا سليمان فى كل مجده كان يلبس كواحدة منها» يقول فى نفسه: ما أعجب قدرة الله الذى «ألبسها هكذا» (مت٦: ٢٨- ٣٠). ونفس الوضع بالنسبة إلى الفراشات فى ألوانها، والطيور فى تغريدها، والنحلة فى صنعها للشهد، والنملة فى عملها ونشاطها... كيف أن الله وهب كل هذه المخلوقات ما لها من مواهب تثير العجب والإعجاب...

* * *

بل حتى إن رأى قطة يطاردها كلب، يعجز عن امساكها:

يقول فى نفسه: عجباً كيف أن الله فى حنوه، أعطى المخلوقات الضعيفة وسيلة

تهرب بها من التى هى أقوى منها . فالقطة تستطيع فى هربها أن تتسلق شجرة بحيث لا يستطيع الكلب أن يدركها ...

والأسد وإن كان أقوى بمراحل من الغزال ، إلا أن الله قد وهب الغزال قوة على الجرى بحيث يكون أسرع من الأسد ، ويمكنه أن يهرب منه ...

وهكذا يمجد الله فى محبته ، كلما رأى أسداً وغزالاً .

* * *

.. كذلك يتذكر محبة الله ، كلما رأى شجرة تنفض ورقها فى الشتاء ، وتكتسى بالورق فى الصيف .

مثل الكرمة على التكعيبة : تنفض ورقها فى الشتاء ، فتعطيك فرصة أن تتمتع بدفء الشمس وأنت جالس تحتها . وتكتسى الورق صيفاً ، فتعطيك فرصة أن تستظل بورقها حين تشتد الحرارة .. ونفس الحال مع أنواع أشجار كثيرة .

* * *

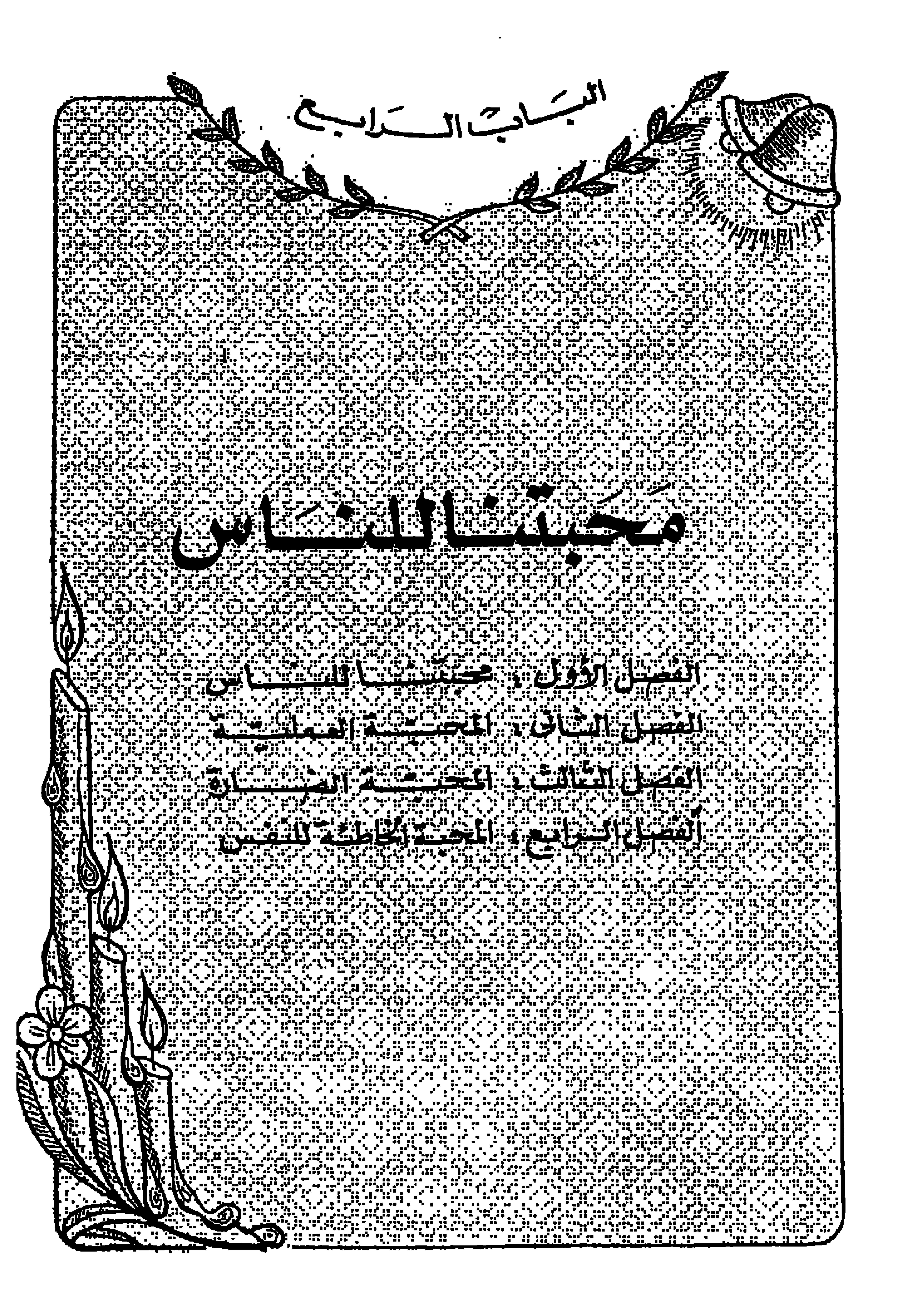
ما أجمل أن تحوّل الماديات إلى روحيات ، أو تأخذ دروساً روحية من أمور مادية ...

فتعجب كيف أن الله يكسو الدب القطبى أو الثعلب القطبى بفراء جميل يمنحه الدفء فى تلك المناطق الجليدية ، بينما لا يثقل الجمل أو الحصان بفراء يتعبه فى سكنى المناطق الحارة .

هناك أمور عديدة تذكرنا بعمل الله . ولكننا لا نتذكر ، لأن محبتنا لله لم تصل إلى مستوى هذا التأمل !

أما القلوب المحبة له ، فكل شىء يذكرها به ... ولها « الحواس المدربة » على ذلك (عب ٥ : ١٤) .

أستأذنك أيها القارىء العزيز فى الاكتفاء بهذا القدر عن محبتنا لله ، وننتقل إن شاء الله إلى الحديث عن محبة الناس


الباب الرابع
محبتنا للناس
الفصل الأول : محبتنا للناس
الفصل الثاني : المحبة العملية
الفصل الثالث : المحبة الضارة
الفصل الرابع : المحبة الخاطئة للنفس

الفصل الأول :

محبتنا للناس

عندما تحدث الرب عن الوصية العظمى ، أعنى المحبة ، ذكر أنها تشمل فضيلتين هامتين : الأولى أن تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل فكرك... ثم قال «والثانية مثلها : تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء» (مت ٢٢ : ٣٦- ٤٠) . وأود هنا أن أترك عبارة (والثانية مثلها) مجالاً لتأملك الخاص . وأتحدث معك عن محبة القريب .

* * *

ومحبة القريب ، هى محبة لكل الناس . لأن البشر كلهم أقرباؤك . كلهم أبناء آدم وحواء .

لقد خلق الله العالم كله من أب واحد وأم واحدة ، ليكونوا جميعاً أسرة واحدة ، تربطهم رابطة الدم ، وبالتالى رابطة الحب . وحتى هذه الأم الواحدة ، أخذها من أحد أضلاع الرجل الأول ، لكيما يحبها ، ويقول «هذه الآن عظم من عظامى ، ولحم من لحمى» (تك ٢ : ٢٣) .

* * *

لهذا كله كان عدم الحب بين البشر أمراً غير طبيعى .

وهو فى نفس الوقت لا يتفق مع الصالح العام ، كما لا يتفق مع مشيئة الله .

والعجيب أن أول إيذاء حدثنا عنه الكتاب المقدس ، كان من إنسان ضد إنسان ، ولم يكن من وحش افترس إنساناً !! لقد قام قايين على هابيل أخيه وقتله . وبدأت البغضة والقسوة بين الناس . ولم تستطع البشرية أن تحتفظ بالحب بين أفراد الأسرة الواحدة ...

فيوسف الصديق ، قام عليه أخوته وألقوه فى البئر، ثم باعوه كعبد (تك ٣٧: ٣٧). ودبت الغيرة ودب التنافس بين ليئة واختها راحيل حول إنجاب البنين (تك ٣٠: ٨). وعيسو نافس أخاه يعقوب على نوال البركة وقال «أقتل يعقوب أخى» (تك ٢٧ : ٤١). وأبشالوم قام على أبيه داود وحاربه (٢صم ١٥).

* * *

وتتابعت مأساة فقدان الحب فى تاريخ البشرية :

وكثرت قصص العداوة والبغضاء ، وقصص الحسد وتصادم الأغراض، والنزاعات والحروب، والتنافس على الرزق وعلى السلطة والمناصب. واكتست الأرض بدماء بريئة ودماء غير بريئة. وأصبح الأخ يعتدى على أخيه، والأخ يخاف أخاه. حتى قال أحد الشعراء :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوّت إنسان ، فكدتُ أطير

* * *

وكان لابد من وصايا إلهية لتعالج الحال ...

وكان لابد من إعادة المحبة بين الناس ، وتقديم القدوة فى ذلك، ومعالجة الأسباب التى أوصلت البشرية إلى التخاصم والعداوة والقسوة. مع العمل على ترميم بناء المحبة المنهدم. فتدخل الله لوضع أسس قوية للتعامل بين الناس.

واستلزم الإصلاح أساسين : أحدهما إيجابى ، والآخر سلبى :

أما الأساس الإيجابى ، فهو مشاعر الود والتعاطف والتعاون. وأما العنصر السلبى فهو الكف عن الكراهية والاعتداء. لأن الكراهية هى المشاعر الكامنة داخل القلب. والاعتداء هو التعبير الظاهر عن تلك المشاعر الداخلية. والمطلوب هو الارتقاء بكل مشاعر الإنسان، للوصول بها إلى مستوى الحب.

* * *

والحب هو القمة التى تصل إليها المشاعر البشرية .

والله فى يوم الدينونة العظيم ، سيفحص كل أعمالنا وعواطفنا ، ويستخلص ما

فيها من حب ، ليكافئنا عليه . وكل خير نفعله ، ولا يكون فيه حب ، لا يعتبره الله خيراً على الإطلاق . على أن لهذا الحب قواعد ينبغى أن نعرفها ، لكيما يكون حبنا سليماً ومقبولاً .

* * *

فأولاً ينبغى أن تكون محبتنا للناس داخل محبتنا لله . لا تكون ضدها ، ولا تزيد عليها ...

فلا تحب أحداً عن طريق كسر وصية من وصايا الله . فالأم التى تحب ابنها بأن تدلله تدليلاً يفسده ، أو أن تغطى على أخطائه بحيث لا يعرفها أبوه ، لا تكون محبتها حقيقية ولا نافعة . بل لا نسميها حباً وإنما تدليلاً ...

والصديق الذى يحب صديقه ، بحيث يجامله فى كل خطأ ، ويخشى أن يقدم له نصيحة مخلصة لئلا يجرح شعوره ... هذا لا يحبه بالحقيقة ... لذلك أيضاً فالأب الذى يحب ابنه يؤدبه (عب ١٢ : ٦) .

وقد قال الرب « من أحب أباً أو أماً أكثر منى ، فلا يستحقنى . ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر منى ، فلا يستحقنى ... » (مت ١٠ : ٣٧) .

* * *

شرط آخر ، هو أن يكون الحب عملياً .

يقول القديس يوحنا الرسول فى هذا « يا أولادى ، لا نحب بالكلام ولا باللسان ، بل بالعمل والحق » (١يو٣ : ١٨) . وهكذا قال عن محبتنا لله : « هذه هى محبة الله ، أن نحفظ وصاياه » (١يو ٥ : ٣) . كذلك محبتنا للناس تظهر عملياً فى معاملاتنا لهم . فى اخلاصنا لهم ، ومشاركتنا الوجدانية ، ووقوفنا معهم فى وقت الشدة ، وتخليصنا لهم من ضيقاتهم . ومحبتنا للفقراء تظهر فى عطفنا عليهم ، واعطائهم ما يلزمهم ، وليست مجرد كلام العطف أو الدعاء ...

* * *

وهكذا ارتبط الحب عموماً بالعطاء وبالبذل .

وقيل عن محبة الله لنا « هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد ، لكى لا

يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية » (يو٣: ١٦) .

بنفس الوضع ينبغي أن نحب بعضنا البعض ، حباً باذلاً . و يصل البذل إلى قمته ببذل الذات . وبالعطاء من الأعواز (مر١٢ : ٤٤) . وبالاستعداد للتضحية والفداء . كما قال القديس بولس الرسول عن اكيلا وبريسكلا «اللذين وضعا عنقيهما من أجل حياتي» (رو١٦: ٤) .

* * *

ومن شروط المحبة أيضاً أن تكون طاهرة .

فليست محبة حقيقية . أن شاباً يحب فتاة لكي يفسد عفتها ، ويضيع أبديتها ، ويفقدها سمعتها في المجتمع الذي تعيش فيه ..! مثل هذا الشاب إنما يهتم بنفسه واشباع شهواته ، ولا يهتم بالفتاة وصالحها وأبديتها . وقد قلت من قبل في الفارق بين المحبة والشهوة « إن المحبة تريد دائماً أن تعطي . بينما الشهوة تريد دائماً أن تأخذ .. »

* * *

ومن شروط المحبة الحقيقية أن تكون للجميع .. وإلا صارت تحيزاً أو لوناً من القبلية ...

هي محبة للكل ، لا تفضيل بسبب الجنس أو اللون أو الدين . محبة بلا تحيز ولا انحياز. إن يعقوب أبا الآباء لما ميز ابنه يوسف عن باقي أخوته ، وأعطاه قميصاً ملوناً ، تسبب ذلك في حسدهم له ، وجرّ عليه الكثير من الضيقات . ولما أحب راحيل أكثر من ليئة ، تسبب ذلك في تنازع هاتين الشقيقتين وتنافسهما في صراع طويل ...

لهذا أيضاً ينبغي أن تكون المحبة عادلة ، وتكون المكافأة ملتزمة بالحق وبالموضوعية .

* * *

وينبغي أن تكون المحبة أيضاً صادقة وروحانية .

وكما قال الكتاب «المحبة فلتكن بلا رياء» (رو١٢ : ٩) . فالرياء تدل على أنها ليست حقيقية ، وليست محبة صادقة . ويدخل في ذلك كل كلام الملق والمديح الكاذب ، مثلما قال الشعب لهيرودس إن صوته صوت إله ، فضربه ملاك الرب ، فمات (أع ١٢ : ٢١ ، ٢٣) . ومثل ملق الشعب لرحبعام ، بأن خنصره أغلظ من متني أبيه !!

فاضاعوا منه الشعب وغالبية المملكة (١مل ١٢: ٨- ١٦).

ومن جهة الروحانية، لم تكن محبة إيزابل لزوجها الملك آخاب محبة روحانية، حينما ساعدته على تنفيذ رغبته الآثمة فى امتلاك حقل نابوت اليزرعيلى باتهامه كذباً وقتله (١مل ٢١) مما أدى إلى هلاكها وهلاكه. كذلك لم تكن محبة اخيتوفل لأ بشالوم محبة روحانية، حينما أشار عليه مشورة لإهلاك ابيه داود (١صم ١٧).

إن الذى يحب شخصاً محبة روحانية، يجب أن يسعى باستمرار إلى أبديته وخلاص نفسه، ولا يشاركه فى خطأ، ولا يوافقه عليه، ولا ينصحه به ...

* * *

القلب المحب لا يعرف البغضة مطلقاً. والقلب الذى تسكنه البغضة، لا يسكنه الله لأن الله محبة.

ولهذا يقول الكتاب «كل من يبغض أخاه، فهو قاتل نفس. وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس، ليست له حياة أبدية ثابتة فيه» (١يو٣: ١٥)... ذلك لأنه قاتل لذلك الإنسان فى قلبه. و ينبغى معالجة قلبه أولاً. و يقول الكتاب فى ذلك «لا تفرح بسقوط عدوك. ولا يبتهج قلبك إذا عثر» (أم ٢٤: ١٧).

* * *

والقلب المحب لا ينتقم لنفسه.

فالإنتقام لون من الكراهية والعداوة. و يدخل فى (محبة) الذات لا فى محبة الغير. والكتاب يقول «لا تجازوا أحداً عن شر بشر» «لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء» بل «إن جاع عدوك فاطعمه، وإن عطش فاسقه» (رو١٢: ١٧، ١٩، ٢٠).

* * *

ومحبة الناس لها مجالات عديدة.

منها محبة الأبوة والأمومة، ومحبة البنوة والأخوة. ومحبة الأزواج، ومحبة الأصدقاء، ومحبة العشيرة، ومحبة الوطن، ومحبة الكنيسة، ومحبة الخدام والمخدومين، ومحبة المجتمع عموماً... وتوجد المحبة العامة التى تشمل العالم أجمع. وما أكثر ما نقرأ عن الهيئات العالمية التى تعمل فى نطاق الخير والإغاثة والانقاذ لأى شعب على وجه

الأرض .

* * *

وفى ذلك تظهر أيضاً محبة الغرباء .

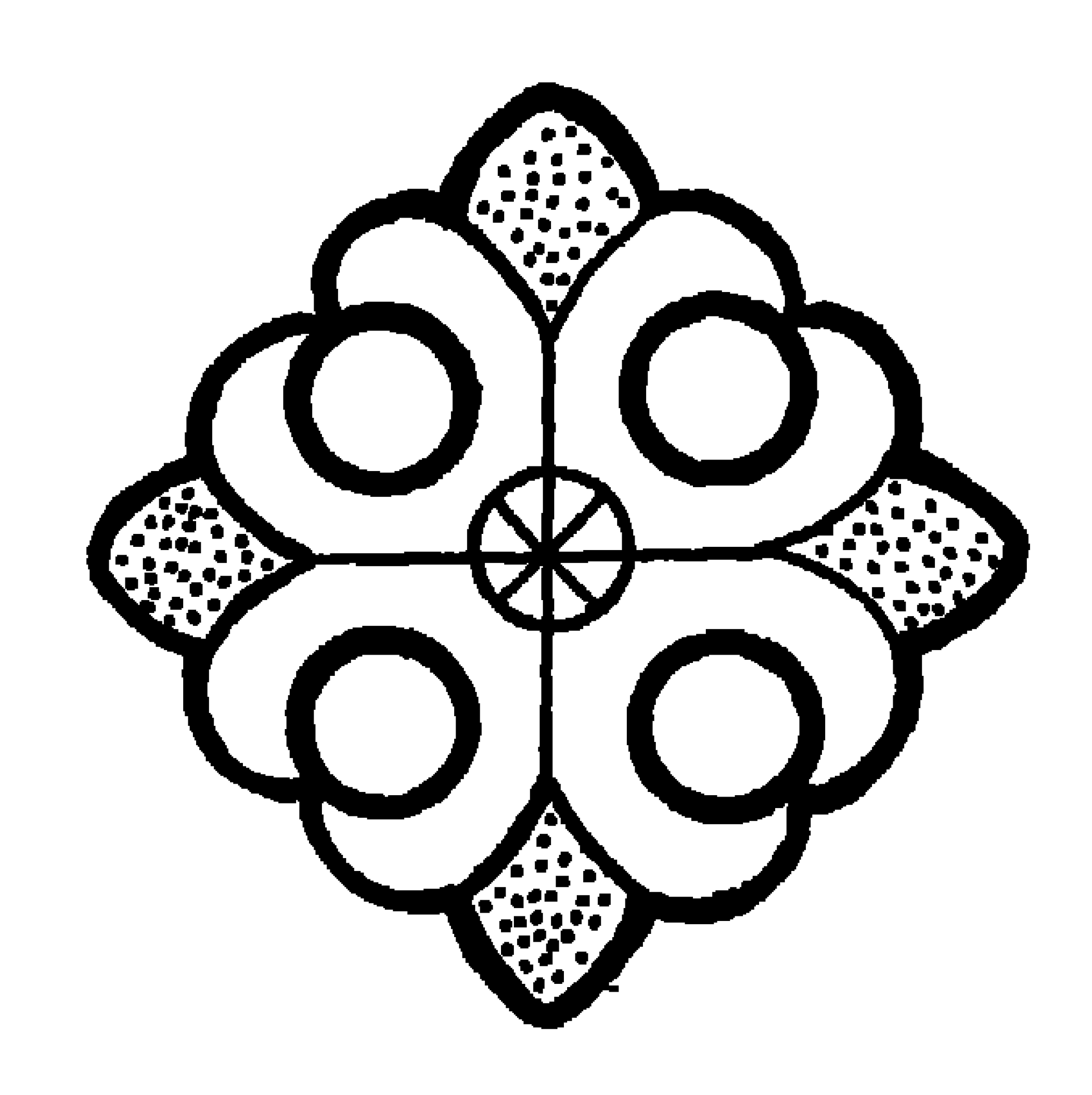
وقد أوصى الله كثيراً بمحبة الغرباء . فقال : « أحبوا الغريب، لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر.» (تث١٠: ١٩). وقال أيضاً «عاكفين على إضافة الغرباء» (رو١٢: ١٣) . وأيضاً « لا تنسوا أضافة الغرباء ، لأن بها أضاف أناس ملائكة وهم لا يدرون » (عب ١٣ : ٢) .

* * *

ترتفع المحبة إلى أعلى قممها ، فتصل إلى محبة الأعداء.

وقال الرب فى ذلك «سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم و يطردونكم» (مت ٥ : ٤٣ ، ٤٤) . وعللْ ذلك بقوله «لأنهَ إن أحببتم الذين يحبونكم، فأى أجر لكم ؟! أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك ! » .

قد يقول البعض « من الصعب علىَّ أن أحب عدوى فماذا أفعل ؟» أقول لك : على الأقل لا تبغضه ... على الأقل اغفر له فى قلبك، وانس إساءته إليك» تدرج فى الفضيلة إلى أن تصلى من أجله أن يصلحه الله ، و يقوده إلى التوبة ، و يغفر له ... وهكذا تصل إلى محبته .



الفصل الثانى :

المحبة العملية



كثيرون يدّعون أنهم يحبون الناس . وتكون عبارة الحب مجرد لفظة من ألسنتهم ، وليست مشاعر فى قلوبهم ، كما لا يظهر هذا الحب أيضاً فى معاملاتهم !! وقد يقولون أيضاً إنهم يحبون الله ، بينما يكسرون وصاياه كل يوم !! لذلك كله قال القديس يوحنا الحبيب :

« يا أولادى ، لا نحب بالكلام ولا باللسان ، بل بالعمل والحق » (١يو٣ : ١٨).

هذه المحبة العملية هى التى يريدها الله منّا فى تعاملنا معه ومع الناس . وليس فى كلامنا ...

* * *

لقد اختبر بطرس الرسول فى هذا الأمر فى ليلة الخميس الكبير. قال للسيد الرب «وإن شكّ فيك الجميع ، فأنا لا أشك أبداً... وإن اضطررت أن أموت معك ، لا أنكرك» (مت٢٦ : ٣٣ ، ٣٥) ، «إنى مستعد أن أمضى معك ، حتى إلى السجن وإلى الموت» (لو٢٢ : ٣٣)... أما ما حدث عملياً ، فهو أن بطرس أنكر سيده ومعلمه ثلاث مرات ، وأمام جارية ... لذلك قال له الرب بعد القيامة «يا سمعان بن يونا ، أتحبنى أكثر من هؤلاء ؟!» (يو٢١ : ١٥ ، ١٦)... وكان يقصد المحبة العملية ، وليست محبة الكلام واللسان...

ولكن بطرس الذى أنكر ، أثبت محبته العملية فيما بعد ...

حينما احتمل السجن والجلد من أجل إيمانه وكرازته ، هو وباقى الرسل ، وكانوا «فرحين لأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا من أجل اسمه» (أع٥ : ٤١) . وبرهن

بطرس أيضاً على محبته العملية للرب، حينما رفض تهديد رئيس كهنة اليهود، وقال فى جرأة «ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس» (أع ٥: ١٩). بل برهن على محبته العملية للرب، حينما ختم كرازته بقبوله أن يموت من أجله مصلوباً ومنكس الرأس...

* * *

أبونا ابراهيم أبو الآباء والأنبياء، برهن عملياً على محبته:

فعل ذلك، حينما أطاع دعوة الرب، وخرج من أهله وعشيرته وبيت أبيه، وسار وراء الرب إلى الجبل الذى أرشده إليه (تك ١٢: ١). خرج وهو لا يعلم إلى أين يذهب (عب ١١: ٨). وبهذا اثبت أن محبته لله، هى أعظم من محبته للأهل والوطن. وامتزجت محبته لله بالطاعة.

بل أنه برهن عملياً على محبته لله بأسلوب أعمق، حينما قبل أن يقدم ابنه وحيده الذى يحبه اسحق، الذى نال المواعيد بسببه... قبل أن يقدمه محرقة، ورفع عليه السكين، ضاغطاً على كل مشاعره الأبوية، لأجل محبته لله.

* * *

مثال آخر فى محبة أبينا ابراهيم لابن أخيه لوط:

فى حرب كدرلعومر، سبى لوط هو وأهل سادوم. وهنا يقول الكتاب «فأتى من نجا وأخبر ابرام العبرانى... فلما سمع ابرام أن أخاه لوطاً قد سبى، جرّ غلمانه المتمرنين، ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر... واسترجع كل الأملاك، واسترجع لوطاً أخاه أيضاً وأملاكه، والنساء أيضاً والشعب» (تك ١٤: ١٣- ١٦). هنا المحبة العملية، فيها النخوة والشجاعة والإنقاذ...

* * *

وتظهر المحبة العملية فى الحياة الاجتماعية.

مثال ذلك راعوث التى رفضت أن تذهب حماتها وحدها بعد موت ابنها، بل قالت لها: «لا أتركك. حيثما ذهبتِ اذهب. وحيثما متِّ أموت. شعبك شعبى، وإلهك إلهى. إنما الموت هو الذى يفصل بينى وبينك» (را ١: ١٦، ١٧). وهكذا فعلت، ولم تترك حماتها وحدها...



البذل والعطاء

وهنا امتزج الحب بالطاعة ، وبالتضحية والبذل ...

المحبة العملية هى المحبة الباذلة ، التى فيها يعطى الإنسان: يبذل وقته وجهده وماله، وكل شيء و يقدمه لأجل الذى يحبه... وعندما تنمو المحبة وتصل إلى كمالها، يبذل ذاته أيضاً ، كما قال السيد الرب : «ليس لأحد حب أعظم من هذا ، أن يضع نفسه لأجل أحبائه» (يو١٥ : ١٣). و بهذا كان حب الشهداء لله ، هو أعظم ألوان الحب، لأن فيه بذل للذات...

* * *

وفى مقدمة هذا الحب ، بذل السيد المسيح ذاته عنا ...

وهكذا بيّن محبته لنا «ونحن بعد خطاة، مات المسيح لأجلنا» (رو٥: ٨)... مات البار لأجل الأثمة والفجار. وكان على الصليب ذبيحة حب. لأنه «هكذا أحب الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد، لكى لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣: ١٦). و يقول الرب فى هذا أيضاً ، إن الراعى يبذل نفسه عن الخراف (يو١٠: ١١).

* * *

هذا هو مقياس المحبة : البذل والعطاء .

يبذل الإنسان كل شيء . و يعتبر كل شيء رخيصاً فى سبيل من يحبه... كشعور الأم من جهة رضيعها. هى تعطيه كل ما تستطيع، وفوق ما تستطيع. وتجد لذة فى إعطائه ، فى بذل راحتها لأجل راحته، وصحتها لأجل صحته. إنها مثال للحب الذى يعطى. لذلك ضرب الله هذا المثل فى محبته لنا: حتى وإن نسيت الأم رضيعها، هو لا ينسانا» (أش٤٩ : ١٥).

و يعطينا القديس بطرس الرسول مثالاً آخر فى محبة الرب ، إذ قال له :

« تركنا كل شيء وتبعناك » (مت ١٩ : ٢٧) .

من أجل محبتهم له ، تركوا البيت والأهل والعمل. وساروا وراءه، وهم لا

يعلمون إلى أين يذهبون...

متى الرسول ، لما دعاه الرب وهو فى مكان الجباية ، عبّر عن محبته بأن ترك مكان الجباية وتبعه (مت ٩: ٩) ، تاركاً الوظيفة والمال والمسئولية ... وكذلك المرأة السامرية ، تركت جرتها وذهبت إلى المدينة لتبشر به (يو ٤: ٢٨) . وكذلك تلاميذه الصيادون: يعقوب و يوحنا ، و بطرس واندراوس : تركوا الشباك ، وتركوا السفينة وتبعوه (مت ٤: ١٨- ٢٢) . والقديس بولس الرسول يقول فى ذلك :

« خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية ، لكى أربح المسيح ، وأوجد فيه » (فى ٣: ٨، ٩) .

خسر كل شيء ، ولم يندم عليه ، بل حسبه نفاية ... و يقول أكثر من هذا : « ما كان لى ربحاً ، فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة . بل إنى أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربى . » (فى ٣: ٧) .

* * *

نفس الوضع بالنسبة إلى موسى النبى .

كان أميراً فى القصر « ابن ابنة فرعون » محاطاً بكل مظاهر الرفاهية والعظمة . ولكنه من أجل محبة الشعب ، ومن أجل خدمة الله ، ترك كل شيء . وهكذا « لما كبر ، أبى أن يدعى ابن ابنة فرعون ، مفضلاً بالأحرى أن يذل مع شعب الله ... حاسباً عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر .. » (عب ١١: ٢٤- ٢٦) .

* * *

كذلك أيضاً كان آباء البرية الرهبان والنساك .

تركوا كل شيء . وسكنوا فى الجبال والقفار ، فى المغائر وشقوق الأرض ، من أجل عظم محبتهم للملك المسيح . فقد كل شيء قيمته فى نظرهم ، العالم وكل ما فيه ...

عندما تدخل محبة الله فى قلب إنسان ، يحدث أن يكون فى القلب شيء أو أشياء من أدران هذا العالم . ولكن كلما تزداد محبة الله فى القلب ، تتناقص بنفس القياس هذه الأدران ، وتطرد محبة الله كل ما فى القلب من أمور العالم ، حتى تنتهى جميعاً ، و يبقى الله وحده . وتنطبق وصية « تحب الرب من كل قلبك » (مت ٢٢: ٣٧) .

إذن من علامات المحبة العملية ، زوال محبة العالم من القلب .

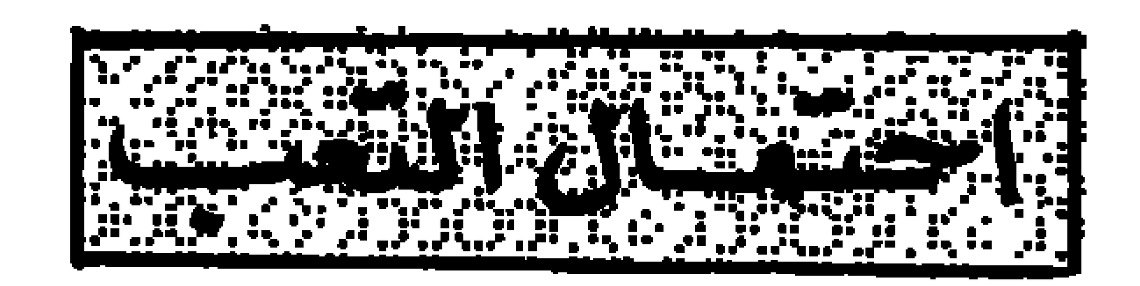
وفى ذلك قال معلمنا يوحنا الرسول «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم . إن أحب أحد العالم، فليست فيه محبة الآب» (١يو٢: ١٥) .

هل تظنها محبة حقيقية ، أن يدعى أحد بأنه يحب الله ، بينما يقبض يده عن دفع العشور والبكور؟! .. أو يقف قلبه متردداً بين محبة الله ومحبة المال!! إن المحبة العملية نحو الله والناس هى أن يشرك المحتاجين فى ماله ، حتى لو تعب بعض الشىء فى تدبير أموره المادية ...

* * *

وتظهر المحبة العملية فى قصة أرونة اليبوسى :

حدث لما أراد داود النبى أن يشترى بيدر أرونة اليبوسى ، لكى يقيم فيه مذبحاً للرب ، «قال أرونة لداود: فليأخذه سيدى الملك... انظر البقرة للمحرقة . والنوارج وأدوات البقر حطباً . الكل دفعه أرونة المالك للملك» (٢صم ٢٤: ٢١- ٢٣) . أراد أن يتبرع بالكل من أجل حبه لله وللمذبح وللملك داود . ولكن داود النبى قال لأرونة فى حكمة «لا، بل أشترى منك بثمن ولا أصعد للرب إلهى محرقات مجانية...» (٢صم ٢٤: ٢٤) .



إن المحبة العملية تحتمل التعب لأجل مَنْ تحبه ...

وهكذا نرى السيد المسيح يقول لملاك كنيسة أفسس : « أنا عارف أعمالك وتعبك وصبرك... وقد احتملت ، ولك صبر، وتعبت من أجل اسمى ، ولم تكلّ» (رؤ٢: ٢، ٣) .

حقاً ، إن كل الذين أحبوا الله ، تعبوا من أجله ، ووجدوا لذة فى هذا التعب . ويقول القديس بولس الرسول «كل واحد سيأخذ أجرته بحسب تعبه» (١كو٣: ٨) . ويقول أيضاً فى رسالته إلى العبرانيين «إن الله ليس بظالم حتى ينسى عملكم وتعب المحبة التى أظهرتموها نحو اسمه ، إذ قد خدمتم القديسين وتخدمونهم» (عب٦:

.(١٠

لذلك فإن الرسول يشجع على بذل المزيد من التعب فى العمل، لأجل الرب قائلاً «إذن يا اخوتى الأحباء، كونوا راسخين غير متزعزعين، مكثرين فى عمل الرب فى كل حين، عالمين أن تعبكم ليس باطلاً فى الرب» (١كو١٥ : ٥٨).

* * *

وأيضاً تظهر محبتنا للناس، بتعبنا لأجلهم.

يعقوب أبو الآباء، تعب كثيراً من أجل محبته لراحيل. خدم لأجلها سنوات طويلة، قال عنها «كنت فى النهار يأكلنى الحر وفى الليل الجليد، وطار النوم من عينىّ» (تك ٣١: ٤٠). ويقول الكتاب عن تلك السنوات «فخدم يعقوب براحيل سبع سنين. وكانت فى عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها» (تك ٢٩: ٢٠).

فى مجال الخدمة

كذلك المحبة الروحية تظهر عملياً فى مجالات الخدمة:

تظهر فى تعب الرعاية والافتقاد والتعليم، فى الأسفار والسهر، وحل مشاكل الناس، والتعب فى الإقناع، وفى الصبر، أما الذى لا يحتمل كل هذا، فلا تكون محبته عملية.

انظر إلى بولس الرسول ومحبته لملكوت الله، كيف يقول: «. بل فى كل شىء ننظر أنفسنا كخدام لله، فى صبر كثير، فى شدائد فى ضرورات فى ضيقات، فى ضربات فى سجون فى اضطرابات، فى أتعاب فى أسهار فى أصوام... فى محبة بلا رياء... بمجد وهوان، بصيت ردى وصيت حسن...» (٢كو٦: ٤-٨)... وهكذا كانت محبته لله وملكوته محبة عملية... ولم يكتفِ بأن يصلى ويقول «ليأتِ ملكوتك»...

إننا - كتعليم الكتاب - ننادى بالإيمان والأعمال معاً.

فالإيمان بدون أعمال ميت (يع ٢: ١٧، ٢٠). أما الإيمان المقبول عند الله، فهو الإيمان العامل بالمحبة (غل٥: ٦).

والمحبة شجرة ضخمة، لها ثمارها الشهية، ومن ثمارها تعرفونها (مت٧: ٢٠).

فما هو ثمر المحبة الذى يظهر فى حياتنا العملية، من نحو علاقتنا بالله والناس ؟

ما هى محبتنا العملية نحو الخطاة، ونحو المحتاجين ؟

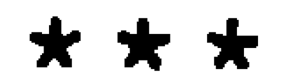
هل نحتقر هؤلاء الخطاة ونبعد عنهم، أم نوبخهم وننتهرهم ؟ أم نقودهم بوداعة إلى التوبة، حسبما قال الرسول «إن انسبق إنسان فأخذ فى زلة، فاصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة، ناظراً إلى نفسك لئلا تجرب أنت أيضاً. احملوا بعضكم أثقال بعض» (غل٦: ١، ٢). وهكذا فى محبة شفع ابراهيم فى سادوم (تك١٨) وشفع موسى فى الشعب (خر٣٢).

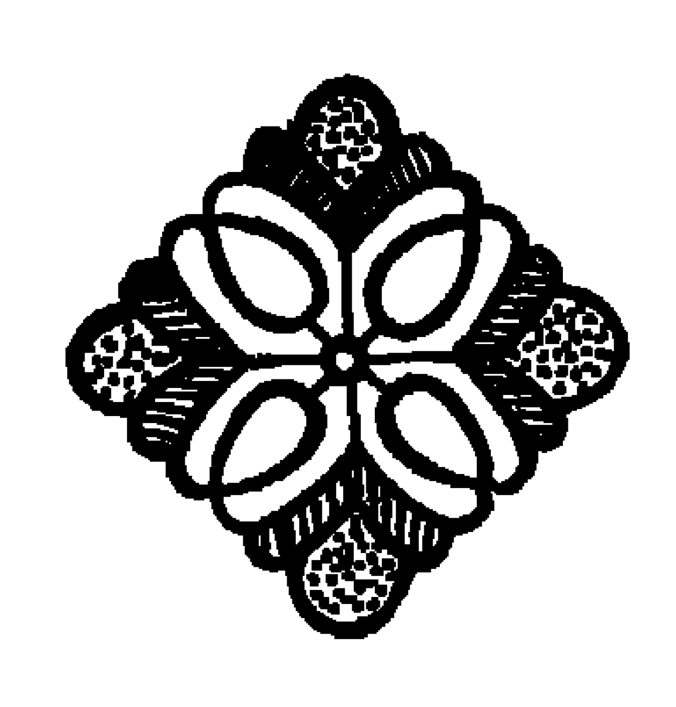
لابد من جهاد لأجل الساقطين، لكى يعودوا إلى الله. كما قال داود النبى فى المزمور «لا أدخل إلى مسكن بيتى، ولا أصعد على سرير فراشى، ولا أعطى لعينىّ نوماً، ولا لأجفانى نعاساً، ولا راحة لصدغى، إلى أن أجد موضعاً للرب ومسكناً لإله يعقوب» (مز١٣٢).

* * *

لتكن محبتنا أيضاً للفقراء محبة عملية.

فلا نكتفى بمجرد مشاعر الإشفاق، أو بإلقاء العظات وكتابة المقالات عن ذلك، وإنما نعطى حتى من أعوازنا (لو٢١: ٤). ولعل من أبرز الأمثلة القديس سرابيون الذى باع إنجيله وأعطى ثمنه لفقير. ورأى فقيراً آخر عرياناً فأعطاه ثوبه. وعاد إلى قلايته بلا إنجيل ولا ثوب. فلما سأله تلميذه أين إنجيله ؟ أجابه القديس قائلاً: لقد كان الإنجيل يقول لى «بع كل مالك واعطه للفقراء» (مت١٩: ٢١). ولما لم يكن عندى شىء أملكه سوى الإنجيل، فقد بعته واعطيت ثمنه للفقير...





الفصل الثالث :

المحبّة الضارة



لاشك أن المحبة هي الفضيلة الأولى فى المسيحية . وقد جعلها السيد المسيح علامة للمسيحيين فقال « بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذى ، إن كان لكم حب بعضكم نحو بعض » (يو١٣ : ٣٥) . والقديس بولس فضّل المحبة على الإيمان والرجاء ، فقال « هذه الثلاثة ، ولكن أعظمهن المحبة » وقال « إن المحبة لا تسقط أبداً » (١كو١٣ : ١٣ ، ٨) .

* * *

ومع ذلك فقد توجد محبة ضارة . ويذكرنا هذا بقصة استشهاد القديس أغناطيوس الأنطاكى ، حين أحضروه إلى رومية ، لكى يلقى إلى الأسود الجائعة فتأكله . فلما عرف ذلك المسيحيون فى رومية ، أرادوا أن يخطفوه لينقذوه من الموت ، فأرسل لهم القديس أغناطيوس رسالة روحية مؤثرة ، منعهم من ذلك قائلاً :

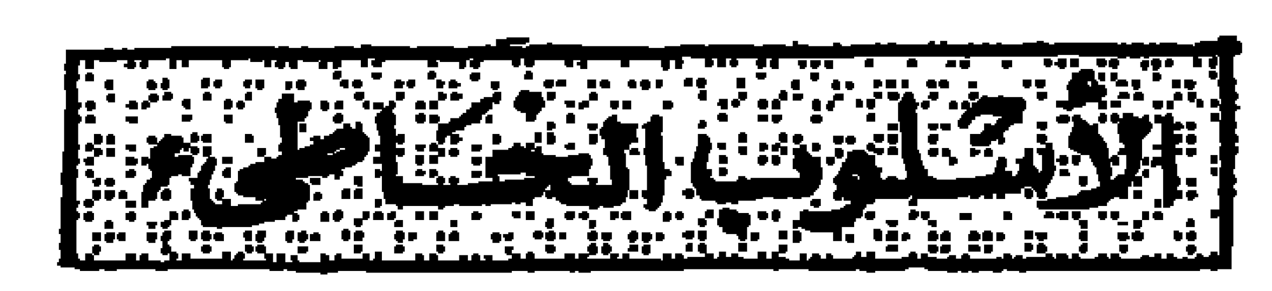
« أخشى أن محبتكم تسبب لى ضرراً » .

لقد وصل إلى نهاية المطاف فى غربته فى هذا العالم ، وعما قليل سينال اكليل الشهادة ويصل إلى الفردوس . ولكنهم بخطفهم له - ولو بعامل المحبة - سيعطلون مسيرته عن الوصول إلى تلك المتعة الروحية ، التى تنتظره بعد الاستشهاد... فتكون محبتهم له ضارة روحياً .

* * *

ولعل من أسباب المحبة الضارة ، أن تكون بغير حكمة ، أو بعيدة عن الروحيات ، أو تتصف بالذاتية ، أو متعارضة مع محبة الله .

* * *



الأسلوب الخاطيء

لا يستطيع أحد منا أن ينكر محبة الأم، حتى أنه يضرب بها المثل فى الحنان وفى العمق. ومع ذلك يمكن أن أماً تحب إبنها بطريقة ضارة!

لقد أحبت رفقة ابنها يعقوب بطريقة ضارة.

كانت تريده أن ينال بركة أبيه اسحق قبل أن يموت. والمفروض أن عيسو كان البكر الذى ينال البركة. فدبرت رفقة حيلة يخدع بها يعقوب أباه اسحق (الضرير وقتذاك) مدعياً أنه عيسو! ولما أدرك يعقوب خطورة هذا الخداع، وخاف أن يُكشف الأمر، فقال لأمه فى خوف «..فأجلب على نفسى لعنة لا بركة». أجابت أمه «لعنتك علىَّ يا ابنى. اسمع لقولى» (تك ٢٧ : ٦- ١٣).. وسمع لقولها، وخدع أباه، فماذا كانت النتيجة ؟!

لقد أضرته أمه بمحبتها. وكما خدع أباه، دخلت الخديعة إلى حياته!!

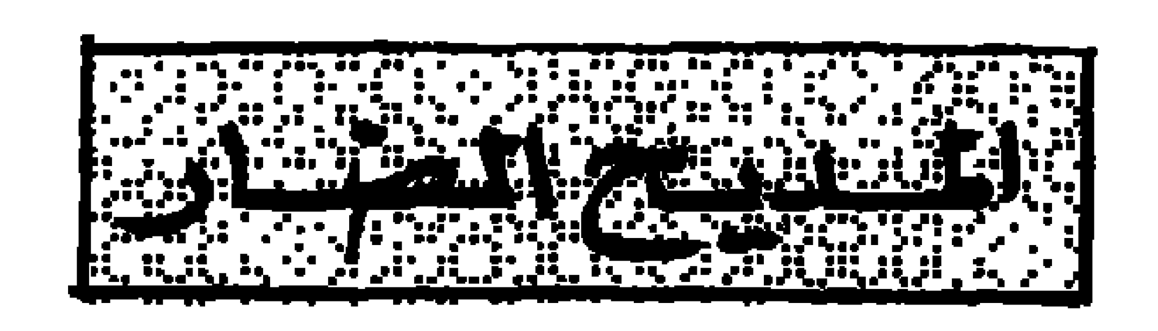
فخدعه خاله لابان، وزوجته ليئة بدلاً من راحيل (تك ٢٩ : ٢٥). واضطر أن يتزوج الأثنتين، وقاسى من تنافسهما وغيرتهما الواحدة من الأخرى. وخدعه خاله أيضاً فغيّر أجرته عشر مرات (تك ٣١ : ٤١). وخدعه أولاده. وقالوا له إن وحشاً إفترس إبنه يوسف، وأروه قميص يوسف بعد أن غمسوه فى الدم. فناح عليه وبكى «ورفض أن يتعزى» (تك ٣٧ : ٣١- ٣٥). وأخيراً لخص يعقوب حياته بقوله لفرعون «أيام سنى غربتى... قليلة ورديئة» (تك ٤٧ : ٩).

ونال يعقوب جزاء طاعته لمحبة أمه الضارة.

* * *

★ لعل من أساليب المحبة الضارة بأسلوب الطريق الخاطيء: الأخطاء الخاصة بالتزويج: إما الإسراع بالتزويج قبل النضوج، أو قبل التوافق... أو اختيار زوج تظن فيه الأم بكل الحب أنه صالح لإبنتها، فتدفعها إلى الزواج به دفعاً. ويكون فى ذلك ضرر لها كل الحياة...

* * *



لقدْ أعجب الشعب بالفتى داود فى أنتصاره على جليات الجبار. وهتف النسوة قائلات فى إعجابٍ «ضرب شاول ألوفه، وداود ربواته». وكان هذا المديح سبب غيرة شاول الملك وحسده وحقده على داود. وفى ذلك يقول الكتاب «فاحتمى شاول جداً، وساء هذا الكلام فى عينيه. وقال: أعطين داود ربوات، وأما أنا فأعطيننى الألوف. وبعد فقط تبقى له المملكة» (١صم١٨: ٧، ٨).

وكان مديح النساء لداود سبب تعب لداود، إذ عمل شاول الملك على قتله ...

طارده من برية إلى برية. وعاش داود مشرداً مستهدفاً طول فترة حياة شاول كلها. لأن المديح الذى مدحته به النساء لم يكن بحكمة، وصادف مشاعر رديئة عند الملك.

* * *

مثال آخر: مديح الشعب لهيرودس.

لبس هيرودس الحلة الملوكية، وجلس على عرشه يخاطب الشعب. فصرخ الشعب هذا صوت إله لا صوت إنسان» (أع ١٢: ٢٢). وصادف هذا الهتاف كبرياء دفينة فى قلب الملك، فلم يعتف منه. لذلك ضربه ملاك الرب فى الحال، لأنه لم يعطِ مجداً لله، فأكله الدود ومات...

* * *

ويماثل المديح الخاطىء فى ضرره، الدفاع عن الأخطاء.

إنسان تدافع عن أخطائه- بدافع من الحب الخاطىء له- يجعله ذلك يثبت فى أخطائه. وقد يؤدى ذلك إلى هلاكه..!

وقد يحدث هذا فى جو الأسرة والأصدقاء، أو فى تملق الملوك والزعماء. كما حدث أيضاً فى المجال الدينى من أتباع الهراطقة والمبتدعين.

لولا دفاع محبى الهراطقة عنهم، والتفافهم حولهم، ما نما خطرهم وهلكوا...

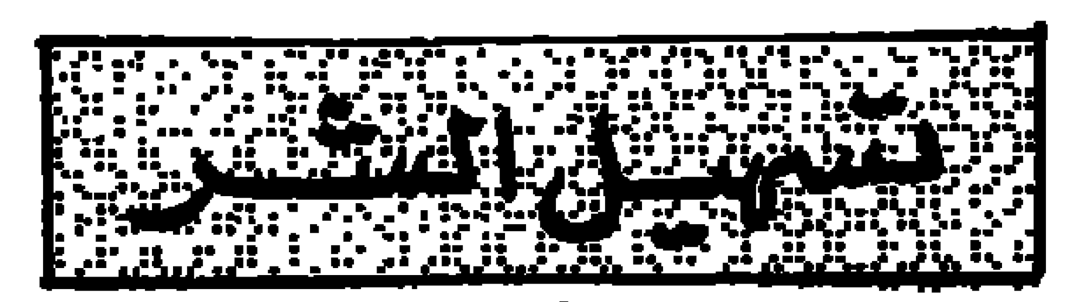
ويحدث هذا مع اتباع أى شخص ، حينما يؤلهونه أو يعصمونه من الخطأ ، و يدافعون عنه بكل قوة . فيستمر فى الخطأ و يهلك .

إنها محبة خاطئة ، بل محبة ضارة . سواء كانت عن ثقة واقتناع ، أو عن تملق رخيص .

* * *

إن الأنبياء الكذبة لما تملقوا آخاب ملك اسرائيل ، تسببوا فى موته .

كان خارجاً للحرب ضد الأراميين . وكان يسأل الأنبياء : هل سيكون الله معه و ينتصر أم لا ؟ وميخا النبى تنبأ له بالصدق إنه إن حارب سينهزم . بينما الأنبياء الكذبة مدحوا الملك و بشروه بالانتصار « وعمل صدقيا بن كنعنة لنفسه قرنى حديد . وقال : هكذا قال الرب : بهذه تنطح الأراميين حتى يفنوا » (١مل ٢٢ : ١١ ، ١٢) . وأطاع ملك اسرائيل كلام أولئك المادحين ، وخرج للحرب . وانهزم ومات (١مل ٢٢ : ٣٧ - ٣٩) .



فى يوم من الأيام رجع الملك آخاب حزيناً إلى بيته ، إذ كان له شهوة فى الاستيلاء على حقل نابوت اليزرعيلى .

فساعدته زوجته الملكة إيزابل على تحقيق رغبته الخاطئة .

شرحت له كيف يدبر مؤامرة يتهم فيها نابوت ظلماً بأنه جدف على الله ، ويحكم عليه بالرجم ، ثم يرث حقله . وتمت المؤامرة بشهود زور . وورث آخاب الحقل ... وحققت إيزابل وعدها لآخاب : « أنا أعطيك كرم نابوت اليزرعيلى » (١مل ٢١ : ٧) ...

وكانت محبة ضارة تسببت فى هلاك آخاب .

وأرسل الله إليه إيليا النبى قائلاً « هل قتلت وورثت أيضاً ؟ ... فى المكان الذى لحست فيه الكلاب دم نابوت ، تلحس الكلاب دمك أيضاً » (١مل ٢١ : ١٩) .

* * *

ومثل هذه المحبة الضارة تسهيل كل اجراء غير شرعي :

مثل تسهيل زواج غير شرعي ، أو طلاق خاطيء ، أو تزويج مطلقين ضد تعليم الكتاب ...

ومثله أيضاً طالب يغشش زميله فى الامتحان بدافع من الشفقة والمحبة !! أو يكتب شهادة مرضية وهمية ... أو صديق يشهد شهادة زور تأييداً لصديقه ... أو محاسب يساعد ممولاً على اختلاس حقوق الدولة فى الضرائب ... أو استاذ باسم الرحمة أو المحبة يخفض المقرر لتلاميذه ، و يقدم لهم فى الامتحان اسئلة تافهة ، لكى ينجحوا ولم ينالوا من العلم شيئاً . و يكون قد أضر بهم علمياً ، وأعطاهم ما لا يستحقون ...



باسم المحبة ما أكثر ما تقدم نصيحة لشخص ، غرضها الظاهرى مساعدته أو رفع شأنه ، بينما هى تضره كل الضرر.

مثال ذلك نصيحة الشباب لرحبعام .

أتى رجال اسرائيل إلى رحبعام بعد موت أبيه الملك سليمان ، وقالوا له : « إن أباك قسّى نيرنا ، وأما أنت فخفف من عبودية أبيك القاسية » . فاستشار الشيوخ فقالوا « إن صرت اليوم عبداً لهذا الشعب ، وخدمتهم وأحببتهم وكلمتهم كلاماً حسناً يكونون لك عبيداً كل الأيام » (١مل ١٢ : ٧) .

أما الشباب فبمحبتهم لسليمان ، أرادوا رفع قدره ، وتثبيت هيبته وقوته أمام الشعب فنصحوه بأن يتشدد و يقول لهم « إن خنصرى أغلظ من متنى أبى ... أبى أدبكم بالسياط ، وأنا أؤدبكم بالعقارب » (١مل ١٢ : ١٠ ، ١١) . ونفذ هذه الوصية ، فضاع ...

وكانت محبة ضارة ، قسمت المملكة ، وضيعته .

فانشق عليه عشرة أسباط ، وكونوا مملكة مستقلة عنه . وأضرته محبة الشباب له ، إذ كانت محبة خالية من الحكمة ، وفيها عدم اتضاع ، وعدم محبة للشعب ...

وبالمثل كانت نصيحة اخيتوفل لأبشالوم.

قال لأبشالوم «ادخل إلى سرارى أبيك اللواتى تركهن لحفظ البيت. فيسمع كل اسرائيل أنك قد صرت مكروهاً من أبيك، فتتشدد أيدى جميع الذين معك» (٢صم١٦: ٢١). ففعل هكذا. وكانت نصيحة ضارة به روحياً، وضارة بعلاقته بأبيه ...

ثم قدم له نصيحة أخرى، تقضى على أبيه حربياً ... ولكن كانت هناك صلوات داود مرفوعة إلى الله «حمق يارب مشورة أخيتوفل» (٢صم١٥: ٣١). فلم يأخذ أبشالوم بتلك المشورة ...

* * *

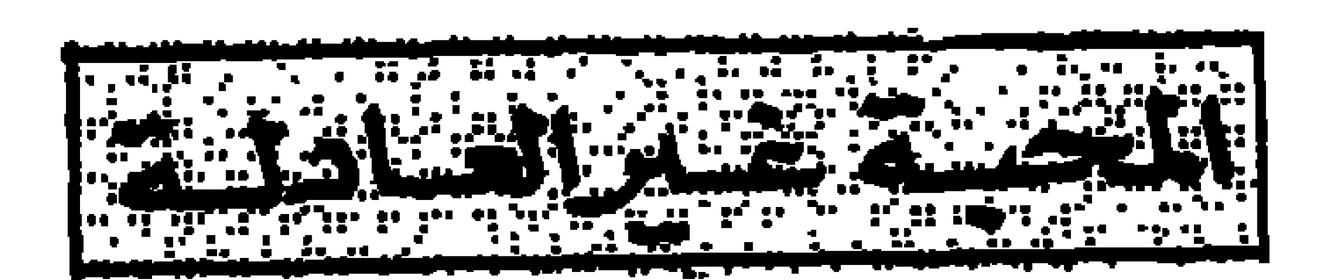
كم من أصدقاء لهم نصائح ضارة، يقدمونها باسم المحبة !!

لست أقصد فقط أصدقاء السوء، إنما حتى أصدقاء قديسون يقدمون نصائح ضارة. ولعل من بينهم القديس بطرس أحد الاثنى عشر، الذى لما سمع السيد المسيح يتكلم عن صلبه وقيامته «أخذه بطرس إليه، وابتدأ ينتهره قائلاً: حاشاك يارب. لا يكون لك هذا» ... كأنما بهذا يمنعه عن الصليب والفداء. فأجابه الرب قائلاً «اذهب عنى يا شيطان. أنت معثرة لى» (مت١٦: ٢١-٢٣).

* * *

ومن المحبة الخاطئة أيضاً قطع بطرس الرسول لأذن العبد.

فعل ذلك باسم المحبة، دفاعاً عن السيد المسيح وقت القبض عليه. استل سيفه، وضرب عبد رئيس الكهنة، فقطع أذنه اليمنى (لو٢٢: ٤٧- ٥٠). فانتهره الرب، ولمس اذن العبد فأبرأها. وقال لبطرس «رد سيفك إلى غمده، لأن كل الذين يأخذون بالسيف، بالسيف يهلكون» (مت٢٦: ٥٢).



مثالها مشكلة قميص يوسف الملون.

لقد أحب أبونا يعقوب إبنه يوسف «أكثر من سائر بنيه، لأنه إبن شيخوخته.

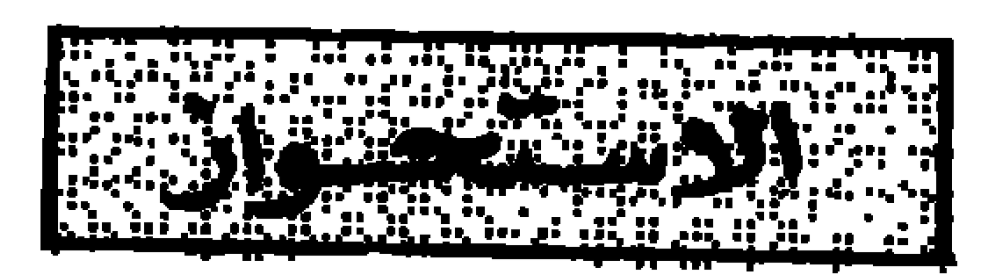
فصنع له قميصاً ملوناً » (تك ٣٧ : ٣) . فماذا كانت نتيجة هذه المحبة غير العادلة ؟ يقول الكتاب « فلما رأى أخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع أخوته ، أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام » (تك ٣٧ : ٤) .

ومعروف ما أصاب يوسف من ضرر على أيدى أخوته ...

كذلك من أمثلة المحبة الضارة ، محبة يعقوب لراحيل أكثر من ليئة .

وهكذا دخلت هاتان الاختان فى صراع حول محبة الزوج وإنجاب البنين ، حتى قالت ليئة فى بعض الأوقات « مصارعات الله قد صارعت أختى » (تك ٣٠ : ٨) . بل إنها فى إنجاب بنيها ، قالت عبارات تدل على حالتها النفسية مثل « إن الرب قد نظر إلى مذلتى إنه الآن يحبنى رجلى » « إن الرب قد سمع إنى مكروهة ، فأعطانى هذا أيضاً » « الآن هذه المرة يقترن بى رجلى » (تك ٢٩ : ٣١- ٣٤) .

محبة ضارة أخرى ، وهى محبة الأستحواز .



وهى المحبة التى تحبس محبوبها فى حيزها الخاص .

كالأم التى تمنع إبنها من سفر بعيد يفيده جداً ، لأنها تريده إلى جوارها وبهذا تضره وتضيع مستقبله بسبب محبتها الضارة . هذا من الناحية العلمانية ، ومن الناحية الروحية قد تقف بشدة فى طريق تكريسه .

* * *

وكذلك قد تفعل الزوجة أيضاً ، لأنها تريده لها وحدها .

وما أكثر ما تحدث أمثال هذه المشاكل فى محيط الحياة الزوجية ، أو الحياة العائلية بصفة عامة ... وهنا تتصف (المحبة) الضارة بالأنانية الواضحة ...

مثل الزوج الذى تدعوه أنانيته فى محبته إلى التضييق على زوجته ، فى الدخول والخروج ، وفى الكلام وفى الابتسام ، فى الزيارات وفى اللقاءات .

كمن يحبس عصفوراً فى قفص ، ويمنعه من الطيران ، ليصير له وحده ...

يتأمله وحده ، و يغنى العصفور له وحده ! ولا تهمه حرية العصفور فى شىء... ويحدث أن مثل هذه المحبة الضارة تتصف بالعصبية وربما بالعنف كذلك. ويجمع الرجل بين نقيضين : الحب والقسوة !!

* * *

ومحبة الاستحواز قد توجد عند المرأة ، وتصيبها بالخوف والشك والقلق ...

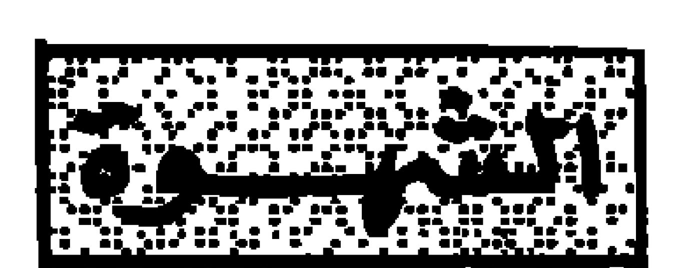
وفى نفس الوقت تفضر الرجل بمحبتها ، فتضيق عليه الخناق أيضاً ، وتكثر من أسئلتها وتحقيقاتها حول مواعيده ومقابلاته وعلاقاته ، بطريقة تصيبه بالضجر والضيق النفسى.. وكل ذلك باسم الحب.

وكما يضغط الرجل على المرأة بالعنف فى محبته الضارة ، قد تضغط المرأة على الرجل (زوجاً كان أو إبناً) بالدموع والمرض والحزن المتواتر...

* * *

ومحبة الاستحواز قد توجد أيضاً فى محيط الأصدقاء.

فيضيع الشخص وقت من يحبه. و بسبب المحبة يشغل وقته. وكثيراً ما يؤثر ذلك على دراسته أو عمله ، فيضره بمحبته... أو باسم المحبة يريده أن يتحيز له ، فيصادق من يصادقه ، و يعادى من يعاديه. وهكذا يضره من جهة علاقاته ومن جهة روحياته كذلك...



قد تتركز المحبة فى الجسد ، وتتحول إلى شهوة.

أو يسميها البعض حباً ، وهو شهوة .

وفى كلا الحالتين تضر نفسها ، وتضر من تحبه أيضاً. سواء الضرر الروحى ، أو ما يصاحبه من أضرار أخرى.

مثال ذلك محبة شمشون الجبار لدليلة (قض ١٦ : ٤) ، وما جرته عليه من ضياع... إذ كسر نذره ، وقبض عليه الفلسطينيون وأذلوه وقلعوا عينيه... وأكثر من هذا كله إن الرب فارقه (قض ١٦ : ١٩ - ٢١).

ومثل شمشون ودليلة ، كذلك داود وبتشبع .

هذه الشهوة أو المحبة الجسدية ، قادت داود إلى الزنى والقتل ، وجرت عليه عقوبة شديدة من الله (٢صم ١٢: ٧- ١٢) .

هناك محبة أخرى تتعلق بالجسد ، ولكن ليست من نوع الشهوة وهى :



ونقصد بها الشفقة على الجسد التى تضر الروح .

كأم تشفق على إبنها فتمنعه من الصوم ، حرصاً على صحة جسده . وقد تصل إلى أب اعترافه ، وتطلب إليه أن يمنع ابنها عن الصوم... وبنفس الأسلوب تمنعه عن كل نوع من النسك . وتقدم له من الأطعمة الدسمة ، ما قد يضره صحياً أيضاً ، ويجر عليه السمنة وكل مضاعفاتها...

* * *

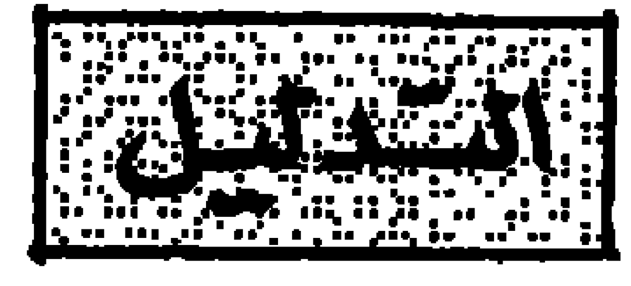
وللأسف قد تقع الكنيسة فى نفس الخطأ .

وبنفس (الحنان) تقصر الأصوام والقداسات .

حتى أن الأصوام انتهت تقريباً عند بعض الكنائس ! واصبح الصوم الاستعدادى للتناول شيئاً تافهاً . وقصرت القداسات... وفى بعض الكنائس يصلون وهم جلوس ، ففقدوا الخشوع اللائق بالصلاة...

كل ذلك بسبب حنان خاطىء وضار ، يخشون فيه على الجسد من التعب... بينما لا يهتمون أثناء ذلك بالروح وما يقويها...

نوع آخر من المحبة الضارة وهو :



وكثيراً ما يحدث فى محيط الأسرة ، وله أضراره العديدة .

ومنه الشفقة الزائدة ، والإنفاق الزائد على الحاجة ، وتقديم أنواع المتع العديدة ،

وعدم فرض عقوبة مهما كان الذنب . أو تكون العقوبة نوعاً من التوبيخ الهادىء جداً الذى لا يمكن أن يردع أحداً ، فيستمر الخطأ . كما حدث مع عالى الكاهن وأولاده ، حتى فسدوا ، وعاقبه الله عقوبة شديدة... (١صم ٢ : ٢٢- ٢٤) (١صم ٣ : ١٢- ١٤).

* * *

وقد يصل تدليل الأم لابنها ، أنها تغطى على أخطائه .

لا تجرؤ أن توبخه ، حتى لا تجرح شعوره . وفى نفس الوقت تغطى على أخطائه أمام أبيه ، حتى لا يعاقبه... بل قد تدافع عنه بالباطل . وهكذا يفسد الابن ، ولا يجد من يؤدبه و يربيه...

إن الأم هنا تحاول أن تكسب صداقة ومحبة إبنها بطريقة خاطئة .

بلون من المحبة الضارة به ، والتى قد تضر الأم نفسها بعد حين ، وتقاسى فى المستقبل من سوء سلوك إبنها . كما أنه غالباً ما يفشل مثل هذا الابن المدلل فى حياته العملية وفى حياته الزوجية . و يتعود التدليل و يطلبه فى كل مجال يعيش فيه... !

* * *

ومن مظاهر التدليل أيضاً الحرية الضارة .

إذ يمنح المدلل - باسم المحبة - حرية بغير حدود ، و بغير حرص ، و بغير قيادة ، يمكن أن توقعه فى أخطاء عديدة تصعب معالجتها...

وقد يكون التدليل فى غير محيط الأسرة ...

مثل موظف مدلل من رؤسائه ...

يُعطى مسئوليات أو سلطات أعلى من مستواه ، أو يأخذ امتيازات ومنحاً فوق ما يستحق... و يصدق رؤساؤه كل ما يرفعه من تقارير ، ربما ضد زملائه ، و يوافقونه على كل رأى واقتراح . فيفسد العمل ، و يفسد الموظف ، و يتعب الزملاء... !

* * *



★ منها مريض يحب أسباب مرضه ، فيضر نفسه .

كمريض بالسكر يحب الحلويات ، أو مريض بالكلسترول يحب الدهنيات ، أو مريض بالضغط يحب المكيفات ... أو إنسان يحب المخدرات ولا يقدر على الامتناع عنها . وكل هؤلاء يضرون صحتهم أشد الضرر.

وبالمثل كل من يقع فى محبة تضره .

فهو الذى يضر نفسه دون أن يضر غيره ...

نعم ، إن كثيرين لا يحبون لأنفسهم الخير. وقد يحبون أنفسهم بطريقة تجلب لهم الضرر. كإنسان من محبته الخاطئة لنفسه يكثر من الافتخار ومديح نفسه بطريقة تنفر الناس منه ... أو إنسان من محبته للمال ، يكنزه و ينمى رصيده بأسلوب يبخل به على نفسه وعلى المحيطين به ، فيضر نفسه و يضرهم ...

* * *

★ وربما إنسان يحب شخصاً ، فيضيع سمعته .

إما بالالتصاق به فى كل مكان ، مما يسبب له حرجاً ، و يتقول الناس عن هذه العلاقة ... أو يشيع أن له تأثيراً عليه ، أو بمحبته له يجعله يوافق على أى شىء !!

* * *

وهناك محبة أخرى للمرضى تضرهم ...

إما ببقاء مدة طويلة إلى جوارهم فى التحدث معهم ، وهم صحياً فى حاجة إلى راحة ... أو عدم إعطائهم فرصة للاتصال بالله أثناء مرضهم ... أو بخداعهم فى نوع مرضهم ، فلا يهتمون بأبديتهم وبما يلزمهم من توبة ... أو بتقديم متع لهم أثناء مرضهم يمكن أن تضرهم ...

* * *

الفصل الرابع

المحبة الخاطئة للنفس

كل إنسان يحب نفسه ، ولا يوجد أحد لا يحب نفسه .

ومحبة النفس ليست خطية ، إن كانت محبة روحانية .

والسيد الرب لما قال إن الوصية الأولى والعظمى هى « تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك » (قال بعد ذلك « والثانية مثلها : تحب قريبك كنفسك » (مت ٢٢ : ٣٧- ٣٩) . أى أن أعظم مستوى تحب به القريب ، هو أن تحبه كما تحب نفسك ...

* * *

غير أن هناك محبة خاطئة للنفس ، وقال عنها الرب :

« من وجد حياته يضيعها . ومن أضاع حياته من أجلى يجدها » (مت ١٠: ٣٩).

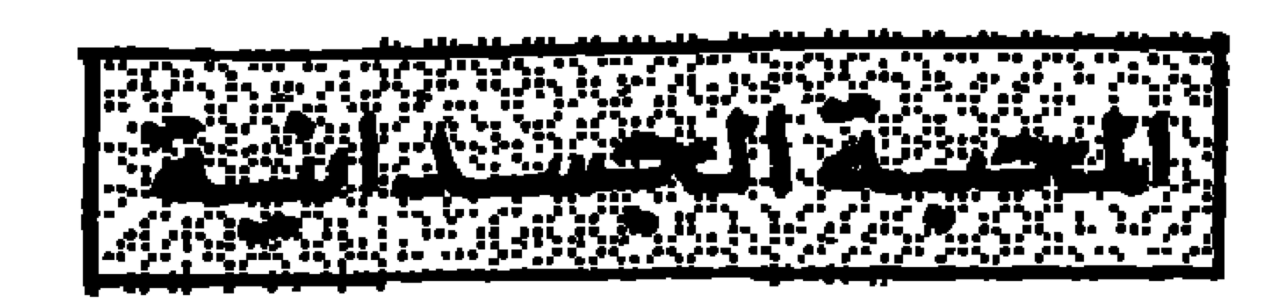
فكيف نفرّق بين الوصيتين ؟ وما معنى « من وجد حياته يضيعها » ؟

الحل هو أن هناك شىء يسمى حروب الذات ، أو عبادة الذات ، التى يتمركز فيها الإنسان حول نفسه . و يقول أريد أن أبنى نفسى ، أن أحقق ذاتى ، أن أرفع ذاتى ...

وهناك طرق خاطئة يلجأ إليها الإنسان فى بناء ذاته فتضيعه .

فما هى هذه الطرق ، التى بها يحب الإنسان نفسه محبة خاطئة .

* * *



المحبة الجسدانية

هذه التى قال عنها الرسول «شهوة الجسد، وشهوة العين، وتعظم المعيشة» (١يو٢: ١٦). وقال إنها جزء من محبة العالم الذى يبيد وشهوته معه...

إنها المحبة الخاصة باللذة والمتعة والرفاهية.

لذة الحواس، التى تقود إلى الشهوة وإلى الخطية. والتى جرّبها سليمان الحكيم، وقال فيها «ومهما إشتهته عيناى لم أمسكه عنهما» (جا٢: ١٠). وقال فى تفصيل ذلك «عظمت عملى. بنيت لنفسى بيوتاً، غرست لنفسى كروماً. عملت لنفسى جنات وفراديس... جمعت لنفسى أيضاً فضة وذهباً، وخصوصيات الملوك والبلدان. اتخذت لنفسي مغنين ومغنيات، وتنعمات بنى البشر سيدة وسيدات. فعظمت وازددت أكثر من جميع الذين كانوا قبلى فى أورشليم» (جا ٢: ٤-٩).

فهل هذه المتعة نفعت سليمان أم أضاعته؟

إنه لم ينتفع بها، بل وجد أن كل ما عمله «الكل باطل وقبض الريح، ولا منفعة تحت الشمس» (جا ٢: ١١). بل هذه الرفاهية وهذه المتعة الجسدانية أضاعت سليمان. و يقول الكتاب فى ذلك «وكان فى زمان شيخوخة سليمان، أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى. ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه» (١مل ١١: ٤). وتعرض لعقوبة شديدة من الرب عليه... وتمزقت دولته.

* * *

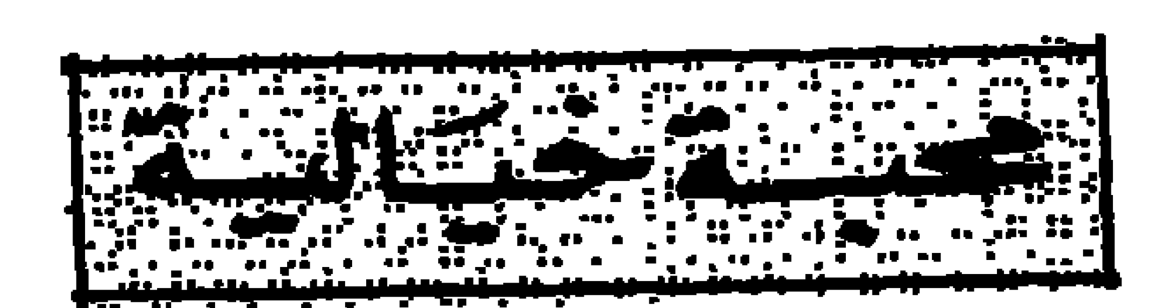
ومثال سليمان أيضاً الغنى الغبى:

أراد أن يبنى ذاته بمحبة مادية، عن طريق الإتساع فى الغنى والمتعة الأرضية، فقال «أهدم مخازنى، وأبنى أعظم منها، وأجمع هناك جميع غلاتى وخيراتى. وأقول لنفسى: يا نفسى لكِ خيرات كثيرة لسنين عديدة. استريحى وكلى واشربى وافرحى». فهل تمكن بهذا من تحقيق ذاته وبناء نفسه؟! كلا، بل قال له الله «يا غبى، فى هذه الليلة تُطلب نفسك منك. فهذه التى أعددتها، لمن تكون؟!» (لو١٢: ١٦-٢٠).

إنها ليست محبة حقيقية للنفس ، التى تأتى عن طريق اللذة والمتعة .

ولهذا قال الرب إن من يحب نفسه يهلكها ، أى الذى يحبها محبة خاطئة تقودها إلى المتعة الجسدية أو إلى شهوات العالم ، فإنه يهلكها فيما يظن أنه قد وجد حياته .

هناك نوع آخر خاطىء ، فى إشباع النفس ، وهو:



شخص لا يستطيع أن يمتع نفسه مادياً ، فيسبح فى تصورات إسعادها بالفكر، يلذذ نفسه بالفكر والخيال .

ويسعد نفسه بما يسمونه : أحلام اليقظة .

فكل ما يريد أن يمتع نفسه من أمور العالم، يغمض عينيه و يتخيله ... و يؤلف حكايات وقصصاً ، عن متعة لا وجود لها فى عالم الحقيقة ... و يقول لنفسه سأصير وأصير، وأعمل وأتمتع ... وقد يستمر فى هذا الفكر بالساعات ، وربما بالأيام ، و يستيقظ لنفسه ، فإذا به فى فراغ . وقد أضاع وقته ... !

* * *

إن المحرومين عملياً ، يعوضون أنفسهم بالفكر.

دون أن يتخذوا أى إجراء عملى بناء ، يبنون به أنفسهم . وكما يقول المثل العامى « المرأة الجوعانة تحلم بسوق العيش » .

مثال ذلك تلميذ ، لم يستذكر دروسه ، ولم يستعد عملياً للامتحان . وإنما يجلس إلى جوار كتبه ، و يسرح فى الخيال : يتخيل أنه نجح بتفوق كبير، وانفتحت أمامه جميع الكليات ، وصار وارتفع وارتقى وتخرج ... ثم يصحو إلى نفسه ، فيجد أنه أضاع وقته ، وأضاع نفسه . و يقف أمامه قول الرب « من وجد نفسه يضيعها » .

* * *

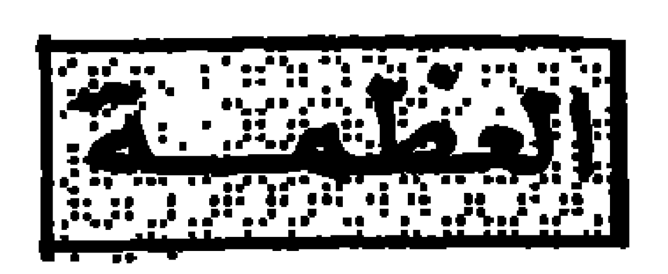
إن المتعة بالخيال ، قد تكون أقوى من المتعة الحسية .

لأن الخيال مجاله واسع ، لا يقف عند حد . و يتصور تصورات لا يمكن أن تتحقق فى الواقع . و يكون سعيداً بذلك سعادة وهمية .

وكثير من المجانين يقعون فى مثل هذا الخيال الذى يشبعون به أنفسهم ، ويجدون به أنفسهم فى مناصب ودرجات وألقاب. والفرق بينهم وبين العاقلين، أنهم يصدقون أنفسهم فيما يتخيلونه. ويصيبهم نوع من المرض يسمى البارانويا، وحكاياته كثيرة...

إنه خيال يظن به هذا النوع من الناس أنهم يجدون أنفسهم، بالإشباع الفكرى والمتعة الخيالية، والأحلام والأوهام...

هناك نوع ثالث يظن أنه يبنى ذاته بالعظمة.



هذا النوع يجد نفسه، حينما يصير عظيماً، بالمقاييس المادية:

وأول من وقع فى هذه المحبة الخاطئة للنفس: الشيطان.

وهكذا قال فى قلبه «أصعد إلى السموات. أرفع كرسى فوق كواكب الله... أصعد فوق مرتفعات السحاب، أصير مثل العلىّ» (أش ١٤: ١٣، ١٤). وانطبق عليه قول الرب «من وجد نفسه يضيعها» وإذا به قد انحدر إلى الهاوية، إلى أسفل الجب... ومصيره أسوأ بكثير من سقطته (رؤ٢٠: ١٠). لقد ظن أنه يجد نفسه بشهوة العظمة، وبهذه الشهوة فقد كل شيء...

وبهذه الشهوة أيضاً أضاع أبوينا الأولين، حينما قال لهما وهما فى الجنة «تنفتح أعينكما، وتصيران مثل الله، عارفين الخير والشر» (تك٣: ٥).

* * *

ووقع فى هذه المحبة الخاطئة أيضاً، الذين أرادوا بناء برج بابل.

أولئك الذين قالوا «هلّم نبنِ لأنفسنا مدينة، وبرجاً رأسه فى السماء. ونصنع لأنفسنا إسماً، لئلا نتبدد على وجه كل الأرض» (تك ١١: ٤). فكانت النتيجة أنهم أضاعوا أنفسهم، وبلبل الله ألسنتهم، وبددهم على وجه كل الأرض. فلا بنوا مدينة ولا برجاً...

فى شهوة العظمة العالمية، محبة خاطئة للنفس. أما العظمة الحقيقية فيصل إليها

الإنسان بالإتضاع ، حسب قول الرب «من يرفع نفسه يتضع . ومن يضع نفسه يرتفع» (مت ٢٣ : ١٢) .

أما الذى يحاول أن يجد نفسه بالرفعة العالمية ، ما أسهل أن يدخل فى حروب ومنافسات ، قد تضيعه على الأرض . وإن حصل على ما يريد على الأرض ، فهذه العظمة الأرضية تضيعه فى الأبدية .

* * *

ومن الأمثلة البارزة فى هذا المجال : أبشالوم بن داود .

ذلك الذى أحب نفسه محبة خاطئة عن طريق العظمة . فانشق على أبيه داود ، وأساء إليه إساءات بشعة ، وحاربه بجيش لكى يجلس على كرسيه فى حياته ، ويحقق لنفسه العظمة بأن يصير ملكاً !! فماذا كانت النتيجة ؟ لقد فقد كل شىء ، ومات فى الحرب وهو خاطىء متمرد ، ففقد الأرض والسماء معاً .

* * *

هناك أشخاص لا يجدون أنفسهم بعظمة عالمية ، فيحاولون أن يجدوا العظمة بالكلام .

بالمجد الباطل ، بالفرح بمديح الناس لهم . وإن لم يجدوا ذلك يمدحون أنفسهم ، و يتحدثون عن فضائلهم وأعمالهم المجيدة لكى ينالوا مجداً من الناس .

وعكس هؤلاء كان القديس يوحنا المعمدان ، الذى كان يخفى نفسه ليظهر المسيح ، و يقلل من شأن نفسه ممجداً سيده المسيح ، قائلاً «ينبغى أن ذاك يزيد ، وإنى أنا أنقص» (يو٣ : ٣٠) ... وبهذا الاتضاع ارتفع يوحنا المعمدان . وقال عنه السيد الرب إنه أعظم من ولدته النساء (مت ١١ : ١١) .

حقاً ما أجمل ما نقوله عن الرب فى القداس الإلهى :

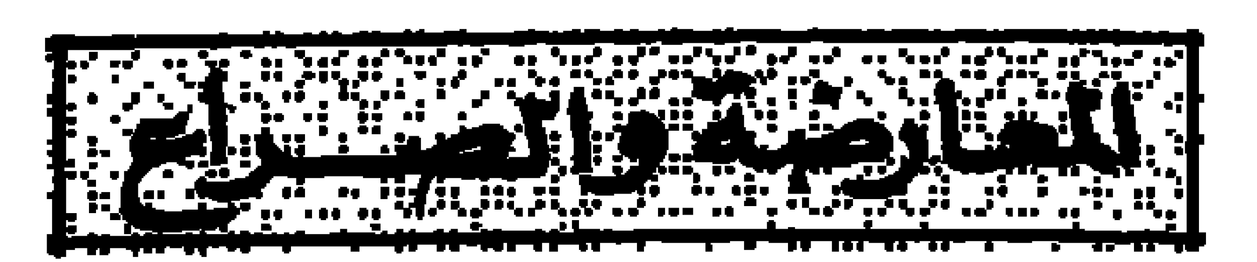
* * *

« الساكن فى الأعالى ، والناظر إلى المتواضعات » .

إن حروب العظمة قد ضيعت كثيرين ، والأمثلة كثيرة .

هناك نوع آخر من المحبة الخاطئة للنفس ، يظن بها البعض أنهم يبنون أنفسهم ،

فيضيعونها ، ذلك هو اسلوب المعارضة والصراع .



المعارضة والصراع

تجد أشخاصاً وكأنهم شعلة من النار، فى التفكير والحركة والعراك .

لا يقدرون على العمل البناء . فيظنون أنهم يجدون أنفسهم بهدم البناءين .

إنهم يعملون على هدم وتحطيم غيرهم . لا يسرّهم شىء مما يعمله العاملون ، فينتقدون كل شىء ، و يبحثون عن أخطاء لتكون مجالاً لعملهم من النقد والنقض والتشهير. كأنهم يعرفون ما لا يعرفه غيرهم... وفى نفس الوقت الذى يحطمون فيه بناء غيرهم ، لا يبنون شيئاً .

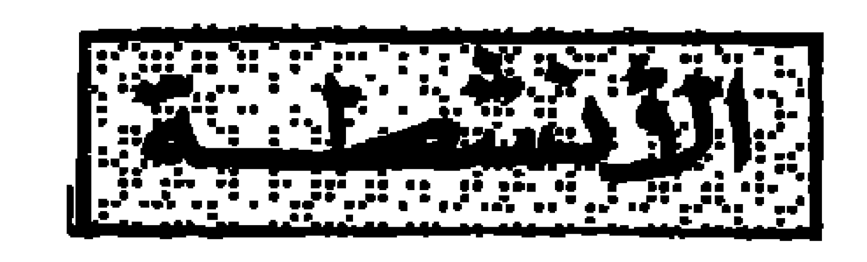
* * *

حياتهم كلها صراع . و يظنون الصراع بطولة .

يرون أنهم أبطال و يفرحون بذلك. و يفتخرون بأنهم هاجموا فلاناً وفلاناً من الأسماء المعروفة . و يقول الواحد منهم إن عنده الشجاعة التى بها «يقول للأعور أنه أعور فى عينه» . وقد تكون شهوة قلوبهم أن يفقأوا عيون المبصرين ، ثم يعيروهم بما فعلوه بهم !!

لهم الطبع النارى . وشهوتهم أن يرتفعوا على جماجم الآخرين ! فهم قادرون - فى نظرهم - على تحطيم العاملين . و يفرحون بهذا . ولكن الله لا يقبلهم لأن قلوبهم خالية من المحبة . وفى صراعهم يفقدون أنفسهم . وفيما يتخيلون أنهم قد وجدوا أنفسهم ، يرون أنهم قد ضيعوها... كالطفل المشاكس فى الفصل ، الذى يشعر أنه قد وجد ذاته فى معاكسة المدرسين ! و يظن ذلك جرأة وشجاعة وقوة و بطولة يبنى بها نفسه التى يحبها . ولكنها محبة خاطئة للنفس .

مجال آخر يظن البعض أنه يبنى نفسه فيه وهو الأنشطة :



قد تجد إنساناً كثير الحركة يعمل فى أنشطة متعددة، وربما بلا عمق، ويظن أنه يبنى بها نفسه !

يرى أننا نعيش فى عصر التكنولوجيا ، فينبغى أن يكون هو أيضاً إنساناً تكنولوجى ، يسير مثل الآلة، حركة دائمة بلا توقف، بعضوية فى كثير من الهيئات ، وفى نشاط دائم لا يعطى له فرصة للصلاة ولا القراءة ولا التأمل ، ولا الاهتمام بنفسه وروحياته ، بلا عمق، مجرد نشاط فى كل مكان، له مظهر العامل المجد ، ناسياً قول الكتاب :

« كل مجد إبنة الملك من داخل » (مز ٤٤) .

وكان الأجدر أن يعطى وقتاً وأهمية لروحياته، لأنه يضر نفسه بهذه المشغوليات المستمرة، التى قد تتحول عنده إلى هدف ، ينسى فيه الهدف الأصلى وهو خلاص نفسه .

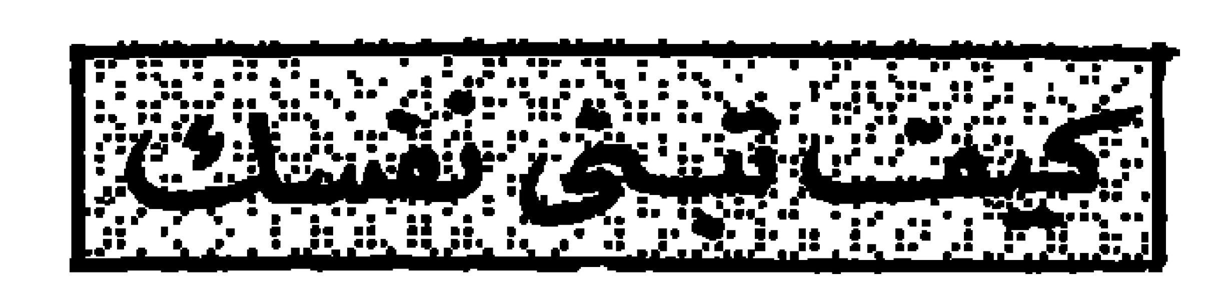
نوع آخر يحب نفسه محبة خاطئة ، ويجد نفسه عن طريق :

المركز والشهرة

فيركز كل اهتمامه فى هذه الأمور التى يدخلها الرسول تحت عنوان تعظم المعيشة . وهكذا يفرح بالألقاب والمناصب والغنى . وكلما أضاف إلى نفسه لقباً جديداً، ظن به أنه أوصله إلى قمة المجد . بينما الفرح الحقيقى هو ببناء النفس من داخل مهما كانت « مشتملة بأطراف موشاة بالذهب ومزينة بأنواع كثيرة » .

ليس المجد فى أن تكون عظيماً أمام الناس، إنما فى أن تكون « عظيماً أمام الرب » كما قيل عن يوحنا المعمدان (لو١ : ١٥) . وهنا نتحدث عن الوضع السليم لبناء النفس .





كيف تبنى نفسك

إن كنت تحب نفسك حقاً، حاول أن تبنيها من الداخل، من حيث علاقتها بالله، والمحبة التى تربطها بالكل. بأن تنكر ذاتك ليظهر الله فى كل أعمالك. وتنكر ذاتك لكى يظهر غيرك. وتصلب ذاتك لكى يحيا الله فيك. وتقول «مع المسيح صلبت، لكى أحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فىّ» (غل ٢: ٢٠). وهكذا تصلب الجسد مع الأهواء والشهوات (غل ٥: ٢٤).

تقهر ذاتك، وتغلب ذاتك... وبهذا الانتصار على النفس، تحيا نفسك مع الله. الذى يقودك فى موكب نصرته" (٢كو٢: ١٤). وهنا تكون المحبة الحقيقية للنفس أما المظاهر العالمية من عظمة وشهرة. لذة ومتعة وحرية خاطئة، فلن توصلك إلى البناء الحقيقى للنفس.

* * *

المهم أن تجد نفسك فى الله، وليس فى العالم.

تجدها لا فى هذا العالم الحاضر، إنما فى الأبدية.

تبنى نفسك بثمار الروح (غل ٥: ٢٢، ٢٣). التى تظهر فى حياتك. وذلك بأن تكون غصناً ثابتاً فى الكرمة الحقيقية يعطى ثمراً، والرب ينقيه ليعطى ثمراً أكثر (يو١٥: ١، ٢)... أى ينقيه من الشهوات والرغبات المهلكة للنفس، التى يجب أن تبغضها لتحيا مع الله، واضعاً أمامك قول الرب:

« ومن يبغض نفسه فى هذا العالم، يحفظها إلى حياة أبدية» (يو١٢: ٢٥).

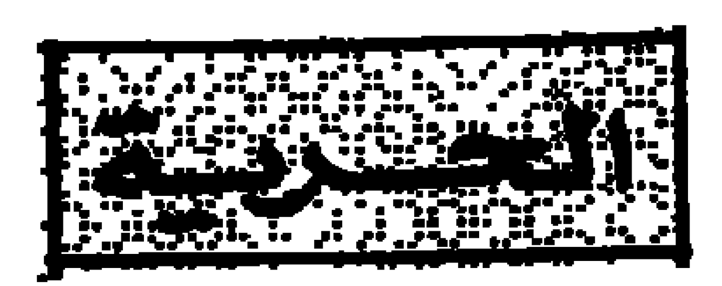
* * *

وهنا كلمة «يبغض نفسه» تعنى يقف ضد رغباتها، ولا يطاوعها فى كل ما تطلب، ولا يجعلها تسير حسب هواها، بل يقمعها و يستعبدها (١كو٩: ٢٧)... حتى بهذا تتطهر من كل دنس. وتكون هذه هى المحبة الحقيقية للنفس.

والعجيب أن هذا النوع يفتخر بنفسه و يقول فى تحطيمه للغير: أنا إنسان مقاتل

I am a fighter علماً بأن الهدم أسهل من البناء . وكما يقول المثل « البئر الذى يحفره العاقل فى سنة، يمكن أن يردمه الجاهل فى يوم » .

هناك أشخاص يظنون أنهم يحققون ذواتهم بالحرية .



كالشاب فى بلاد الغرب : إذا كبر، فلا سيطرة لأحد عليه ، لا أبوه ولا أمه فى البيت ، ولا مدرسوه فى معاهد التعليم . بل يظن أنه يفعل ما يشاء بلا قيد . حتى المبادىء والقيم والتقاليد ، يجب أن يتخلص منها . و يعتبر أنه بهذا يصير حراً ويجد نفسه . والوجوديون يريدون- فى تمتعهم بالحرية- أن ينحلوا حتى من (قيود!) الله ووصاياه . ولسان حال كل منهم يقول « من الخير أن الله لا يوجد، لكى أوجد أنا » !!

كل هؤلاء يقصدون بالحرية ، الحرية الخارجية .

وليست حرية القلب من الرغبات الخاطئة .

* * *

ولا يقصد التحرر من الخطايا والأخطاء ، والتحرر من العادات الفاسدة . كل ذلك الذى قال عنه السيد الرب « إن حرركم الابن، فبالحقيقة تكونون أحراراً » (يو٨: ٣٦) .

الابن الضال ظن أنه يجد نفسه بالحرية ، بتركه لبيت أبيه . ولكنه بذلك أضاع نفسه (لو١٥) . وكذلك الذين يظنون أنهم يجدون أنفسهم بالحرية فى الإدمان والفساد والتسيب واللامبالاة ! أو بالحرية فى الخروج من الحصون التى تحميهم ، إلى الفضاء الواسع الذى يهلكهم !

العجيب أنه فى الحياة الروحية ، يظن أنه يجد الحرية فى التخلص من (قيود) الإرشاد الروحى!

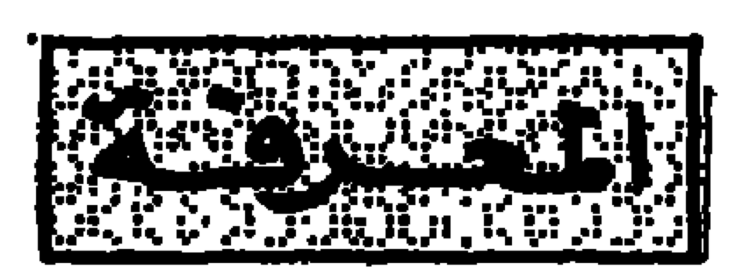
فلا يستشير الأب الروحى ، إلا فى الأمور التى يعرف أنه سيوافق عليها . وأما ما يشعر أنه سينهاه عنه، فذاك يخفيه ! وهكذا يسير حسب هواه ، فيضل الطريق... أو

يقول « ابحث عن أب اعتراف آخر... حقاً إن الاستخدام الخاطىء للحرية يضر. وقد أوصل البعض إلى الإلحاد.

* * *

والأخطر من هؤلاء: الذين يعطون أنفسهم الحرية فى تفسير الكتاب، وينشرون آراءهم الخاصة كعقيدة !!

فيفسرون الكتاب حسب هواهم. يخضعونه لأفكارهم، بدلاً من أن يخضعوا أنفسهم لنصوصه. من اجل هذه وجدت طوائف وكنائس متعددة تتعارض فى عقائدها، ووجدت بدع وهرطقات. لأن كل واحد يفسر الكتاب حسبما يريد، ويترجم الآيات أيضاً حسبما يشاء (كما فعل شهود يهوه وأمثالهم). والعجيب أن كل هؤلاء يظنون أنفسهم أكثر معرفة من غيرهم. وهنا تدخل النفس فى حرب المعرفة.

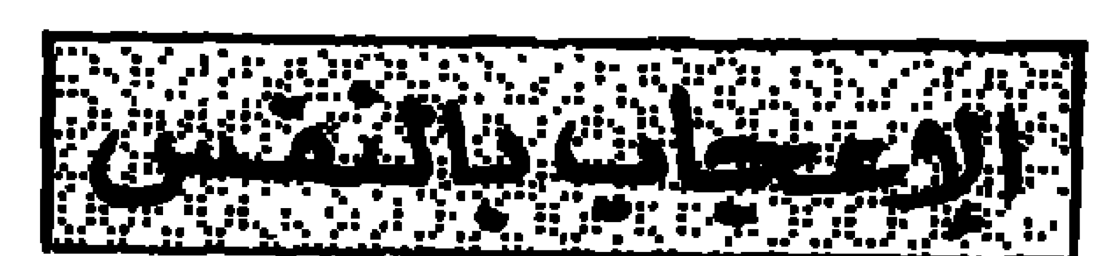


يظن البعض أنه يجد نفسه عن طريق المعرفة.

أو عن طريق حرية المعرفة، أو المعرفة التى يقول عنها الكتاب إنها تنفخ (١كو٨: ١). ويحب الواحد منهم أن يكون مرجعاً فى المعرفة، يقود غيره فى المعرفة. ويحاول أن يأتى بفكر جديد، ينسب إليه، ويتميز به، وينفرد به، حتى يقولون « فلان قال.. » ... ومن هنا ظهرت البدع، لأنها بها ابتدع أناس أفكاراً جديدة ضد التسليم العام...

يظن بها الشخص أنه يجد نفسه، كصاحب رأى وفكر وعقيدة، ولا يتضع بالخضوع لتعليم الكنيسة، بل يريد أن يخضع الكنيسة لتعليمه... وهكذا يضيع نفسه.

إنسان آخر يظن أنه يبنى نفسه بالإعجاب بالنفس.



فيكون باراً فى عينى نفسه و« حكيماً فى عينى نفسه ».

ويدخل فى عبادة النفس. ولا مانع أن يكون الكل مخطئين، وهو وحده الذى على

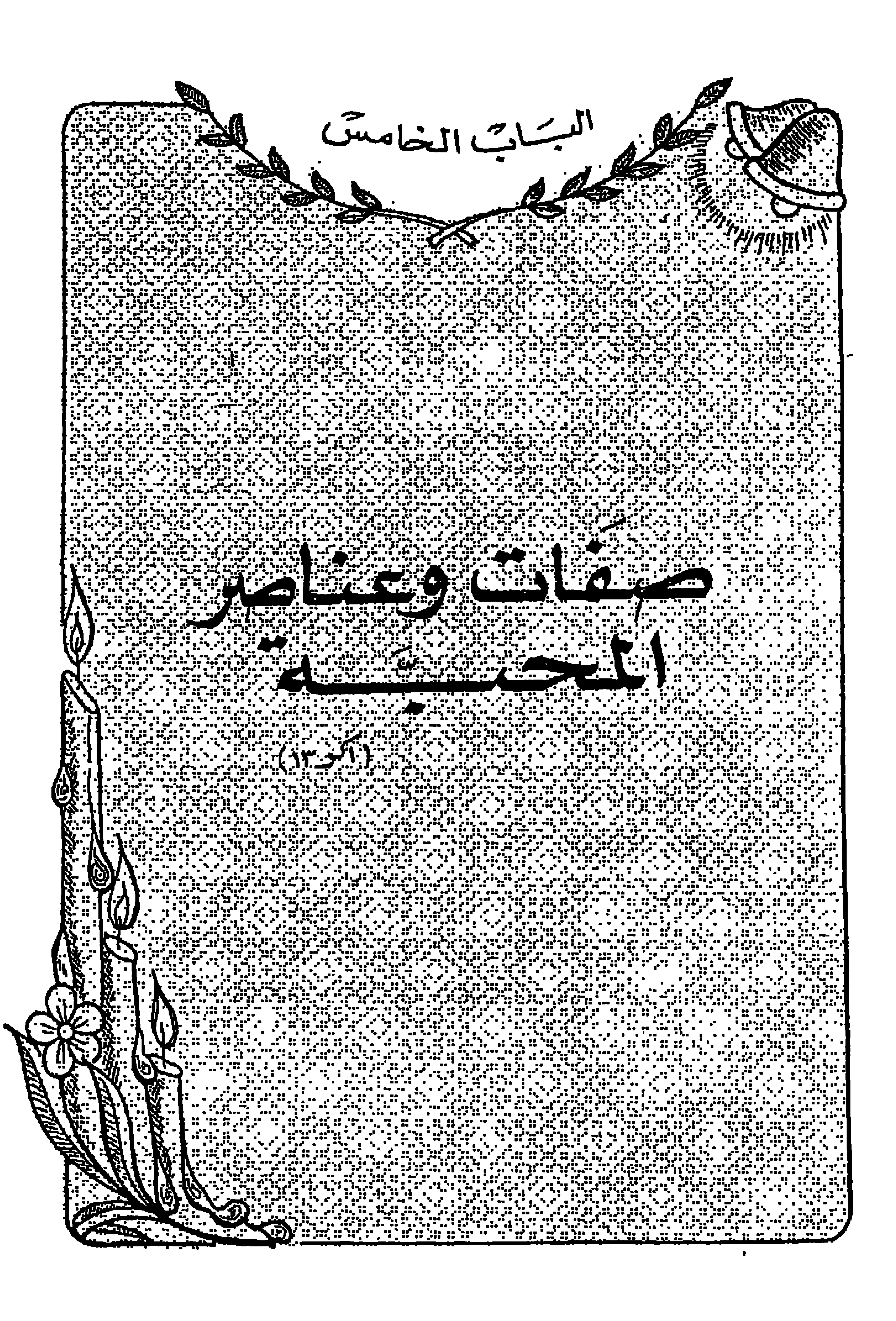
صواب ! ... وهذا النوع يبرر ذاته فى كل عمل وفى كل خطأ . وإن قال له أحد إنه مخطىء ، لا يقبل ذلك . ويرفض كل توجيه . وإن عوقب على خطأ ، يملأ الدنيا صراخاً : إنه مظلوم . ولا ينظر إلى الذنب الذى ارتكبه ، وإنما يدعى قسوة من عاقبه !

وترتبك مقاييسه الروحية والأدبية والعقلية ، ويضيع نفسه .

ويمدح نفسه ، ويحب أن يمدحه الآخرون . وإن مدحوا غيره يستاء ! كما استاء قايين ، لما قبل الله قربان هابيل أخيه ...

والكثير من هؤلاء الذين يقعون فى الإعجاب بالنفس ، يكون الله قد منحهم مواهب ، ولكنهم استخدموا المواهب فى الإضرار بأنفسهم .




الباب الخامس
صفات وعناصر المحبة
(١كو ١٣)

عناصر هذا الباب

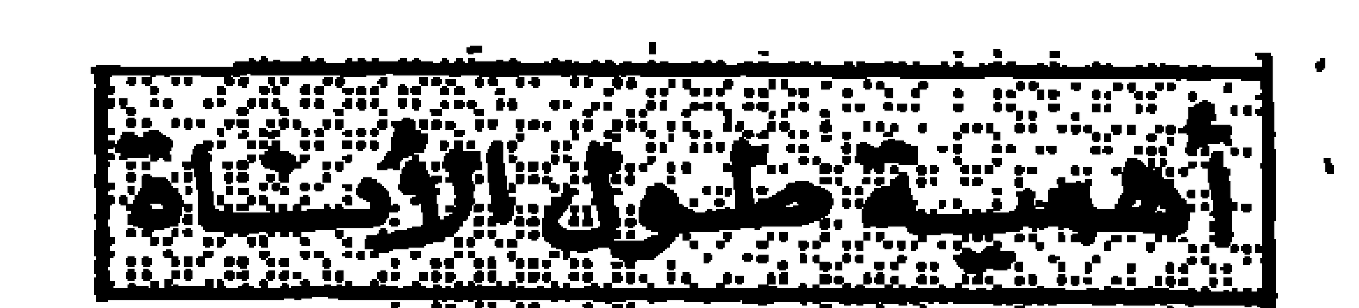
نتحدث فيه عن المحبة كما وردت فى (١كو١٣: ٤-٨)
وتشمل النقاط الآتية :

١- المحبة تتأنى .
٢- المحبة تترفق .
٣- المحبة لا تحسد .
٤- المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تقبح .
٥- المحبة لا تطلب ما لنفسها .
٦- المحبة لا تحتد ولا تظن السوء
ولا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق .
٧- المحبة تحتمل كل شىء .
٨- المحبة لا تسقط أبداً .

الفصل الأول :

المحبة تتأنى

(١كو١٣: ٤)



هكذا نصحنا القديس بولس في صفات المحبة. والكنيسة المقدسة تضع لنا في مقدمة صلاة باكر بضع آيات من الرسالة إلى أفسس يقول فيها الرسول «اطلب إليكم أنا الأسير في الرب أن تسلكوا كما يليق بالدعوة التي دعيتم إليها، بكل تواضع ووداعة وطول أناة، محتملين بعضكم بعضاً في المحبة مسرعين إلى حفظ وحدانية الروح برباط السلام» (أف ٤: ١-٣).

إذن بطول الأناة يحفظ الإنسان الوداعة والسلام.

لأن الذي يطيل أناته على غيره، لا يسرع إلى الغضب، بل يحتمل في صبر، إلى أن يهدىء غضب غيره، ويكون كما قال الرسول «مسرعاً إلى الاستماع، مبطئاً في التكلم، مبطئاً في الغضب. لأن غضب الإنسان لا يصنع برّ الله» (يع ١: ١٩، ٢٠). وفي هذا قال أيضاً سليمان الحكيم في سفر الجامعة :

« طول الروح خير من تكبر الروح . لا تسرع بروحك إلى الغضب. لأن الغضب يستقر في حضن الجهال» (جا ٧: ٨، ٩).

* * *

حقاً إن الغضب، يمكن معالجته بطول الأناة، بالتأني.

فلا يسرع الإنسان إلى الغضب ، بل يتأنى ، ويهدىء نفسه من الداخل، لأن الذي يحب شخصاً، يتأنى عليه ولا يغضب منه بسرعة. بل إن محبته تجعله يطيل أناته ويصبر.

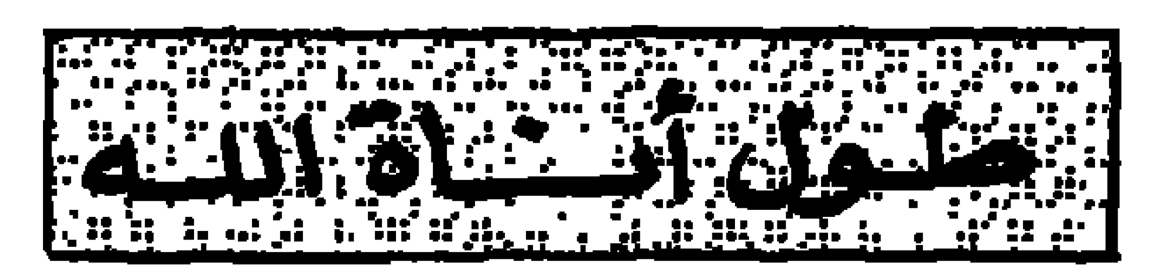
وأيضاً بالمحبة يطيل الإنسان أناته على الضعفاء، وصغار النفس، حسب توجيه الرسول بقوله:

«شجعوا صغار النفوس. اسندوا الضعفاء. تأنوا على الجميع» (١تس ٥: ١٤).

إن الضعفاء يحتاجون إلى من يحتملهم. وإحتمالهم يحتاج إلى طول أناة. وطول الأناة تشجع عليه المحبة...

* * *

وقد اعتبر الرسول طول الأناة من ثمر الروح. فقال: «وأما ثمر الروح فهو محبة فرح سلام، طول أناة لطف...» (غل ٥: ٢٢). وهكذا نجد طول الأناة محصوراً بين السلام واللطف. فالذى يطيل أناته يعيش فى سلام مع الكل، ويكون لطيفاً فى معاملة الجميع. وكل هذا من نتائج المحبة.



وطول الأناة صفة من صفات الله. وقد أطال الله أناته على اليهود وعلى الأمم كليهما:

أطال الله أناته على اليهود، الذين كانوا شعباً صلب الرقبة، متمرداً للغاية، وكثيراً ما أتعبوا موسى النبى الذى «كان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض» (عد ١٢: ٣). وكم قتلوا الأنبياء، ورجموا المرسلين إليهم» (مت ٢٣: ٣٧). وهنا فلنستمع إلى قول نحميا النبى «آباؤنا صلّبوا رقابهم، ولم يسمعوا وصاياك... وأنت إله غفور وحنان ورحيم طويل الروح... فلم تتركهم..» (نح ٩: ١٦، ١٧).

ونرى هنا طول الأناة يرتبط بالحنان والرحمة والمغفرة.

حنان الله ورحمته نابعان من محبته للبشرية، ومن نتائجها المغفرة وطول الأناة... هذا الأمر عرفه البشر منذ البدء. ويذكره موسى النبى فى سفر العدد «الرب طويل الروح كثير الإحسان، يغفر الذنب والسيئة» (عد ١٤: ١٨). وكثر نفس الكلام

فى المزامير (مز٨٦ : ١٥) (مز١٤٥ : ٨).

ويشرحه المرتل بتفصيل فى مزمور ١٠٣ فيقول :

« الرب رحيم ورؤوف ، طويل الروح وكثير الرحمة ، لا يحاكم إلى الأبد ، ولا يحقد إلى الدهر. لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا . لأنه مثل ارتفاع السموات فوق الأرض ، قويت رحمته على خائفيه . كبعد المشرق عن المغرب ، أبعد عنا معاصينا . كما يتراءف الأب على البنين ، يترأف الرب على خائفيه . لأنه يعرف جبلتنا ، يذكر أننا تراب نحن (مز١٠٣ : ٨- ١٤).

* * *

وطول أناة الله ، كانت لتقتاد الناس إلى التوبة .

كما قال القديس بطرس الرسول « لكنه يتأنى علينا ، وهو لا يشاء أن يهلك أناس ، بل أن يقبل الجميع إلى التوبة » (٢بط٣ : ٩). وقال أيضاً فى نفس الرسالة « واحسبوا أناة ربنا خلاصاً ، كما كتب إليكم أخونا الحبيب بولس » (٢بط٣: ١٥). فما الذى كتبه القديس بولس ؟ لقد قال :

« أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته ، غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة » (رو٢: ٤).

طول الأناة هو فرصة من الله المحب ، تقود إلى التوبة وليس إلى الاستهانة والاستهتار. ولذلك يقول الرسول بعد عبارته السابقة « ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب ، تذخر لنفسك غضباً فى يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة ، الذى سيجازى كل واحد حسب أعماله » (رو٢: ٥ ، ٦).

هكذا فعل الله مع فرعون ...

أطال الله أناته عليه مرات عديدة . وكلما كان يعترف بالخطأ ، ويطلب الرحمة ورفع الضربة عنه ، كان الرب يرفع الضربة ، ويعطيه فرصة للتوبة . فلما استهان بطول أناة الله ، ضربه بالغرق مع جنوده فى البحر الأحمر.

وأطال الرب أناته على اليهود مراراً ، وغفر لهم عبادتهم للأصنام ولآلهة الأمم . فلما استهانوا بطول أناته ، دفعهم إلى سبى بابل وأشور ، وقال لهم « حين تبسطون أيديكم ،

استر عينيَّ عنكم. وإن أكثرتم الصلاة، لا أسمع. أيديكم ملآنة دماً» (أش ١: ١٥).

* * *

الله فى محبته، أطال أناته على الأمم.

الأمم الذين عبدوا الأصنام، واتخذوا لهم آلهة أخرى غير الرب. وقال الجاهل منهم فى قلبه ليس إله (مز ١٤: ١)...

وأخيراً جاء ملء الزمان الذى دخل فيه الأمم إلى الإيمان، وطعمت الزيتونة البرية فى الزيتونة الأصلية (رو ١١: ٤). وقال الرب لتلاميذه «اذهبوا إلى العالم أجمع. واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» (مر ١٦: ١٥).

ظهرت طول أناة الله على نينوى وعلى يونان.

على نينوى المدينة الأممية الخاطئة التى كان «يوجد فيها أكثر من اثنتى عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم» (يون ٤: ١١). وبطول أناة الله، وبكرازة نبيه يونان، تاب أهل نينوى، وصاموا، وجلسوا فى المسوح والرماد. وغفر لهم الله وقبل توبتهم، كما قبل توبة أهل السفينة أيضاً.

وبنفس طول الأناة تعامل الرب مع يونان، الذى هرب أولاً من وجه الرب وأخذ سفينة إلى ترشيش (يون ١: ٣).

لم يأخذه الرب فى وقت خطيئته وهربه.

بل أطال أناته عليه على الرغم من عصيانه. وأعد له حوتاً عظيماً ابتلعه ولقنه درساً، فأطاع أخيراً. وذهب ونادى لنينوى حتى تاب شعبها وخلص (يون ٣: ٣). كل ذلك لأن الله فى محبته، لا يشاء أن يموت الخاطىء، بل أن يعطى فرصة لكى يتوب ويرجع فيحيا (حز ١٨: ٢٣).

* * *

وهكذا فى محبة الله، أطال أناته على الخطاة.

أطال أناته على زكا العشار الذى تعجب الناس من أن يدخل الرب إلى بيته وهو رجل خاطىء. ولكن الرب أعلن قائلاً «اليوم حصل خلاص لهذا البيت، إذ هو أيضاً

ابن لابراهيم» (لو١٩: ٩). وحدث المثل مع متى العشار، الذى لم يترك فقط مكان الجباية، بل صار واحداً من الإثنى عشر.

وبالمثل أطال أناته على المرأة السامرية التى كان لها خمسة أزواج، وتابت وكرزت به (يو٤). وأطال أناته على المجدلية التى اخرج منها سبعة شياطين (مر١٦: ٩)... فتبعته وهى التى بشرت التلاميذ بالقيامة.

وأطال أناته على الابن الضال، الذى كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوجد (لو١٥: ٢٤، ٣٢).

* * *

بل بالأكثر أطال أناته على شاول الطرسوسى الذى اضطهد الكنيسة بعنف، وحوله إلى رسول عظيم وكارز...

وهذا الذى قال عن نفسه «أنا الذى كنت من قبل مجدفاً ومضطهداً ومفترياً..» (١تى١: ١٣). وقال «..الخطاة الذين أولهم أنا. ولكننى رحمت ليظهر يسوع المسيح فىّ أنا أولاً كل أناة، مثالاً للعتيدين أن يؤمنوا» (١تى١: ١٥، ١٦)...

وبالمثل أطال الله أناته على أريانوس والى أنصنا فى عهد ديوقلديانوس، الذى كان أكثر الولاة تعذيباً للمسيحيين... وبطول أناة الله عليه، آمن وصار شهيداً...

* * *

وأطال الله أناته حتى تاب خطاة وصاروا قديسين.

نذكر من بينهم أوغسطينوس الذى تاب وترهب وصار اسقفاً، وكتب تأملات عميقة انتفعت بها الأجيال من بعده، وموسى الأسود الذى تاب وصار أباً للرهبان، وقدوة فى المحبة والوداعة. كذلك مريم القبطية التى تابت من زناها، وصارت من السواح، وباركت زوسيما القس. ويعوزنى الوقت إن تكلمت عن جمهرة من الخطاة أطال الله أناته عليهم، وقادهم إلى التوبة وإلى القداسة ولعلنى أذكر تلك الشجرة التى ما كانت تعطى ثمراً، وكانت على وشك أن تقطع. ولكن قيل عنها:

« اتركها هذه السنة أيضاً، حتى أنقب حولها وأضع زبلاً. فإن وضعت ثمراً، وإلا ففيما بعد نقطعها» (لو١٣: ٨، ٩).

هذه أمثلة من طول أناة الله ، نضع إلى جوارها طول أناته على تلاميذه الإثنى عشر ، سواء فى قلة فهمهم ، أو فى ضعفهم فما قدروا أن يسهروا معه ساعة واحدة فى بستان جثسيمانى (مت٢٦) أو فى سؤالهم أكثر من مرة من يكون الأول فيهم والرئيس (مت ٢٠: ٢٦) (لو٢٠: ٢٤). أو فى شكوكهم مثل ما فعل توما (يو٢٠) أو فى هربهم أثناء القبض عليه وخوفهم واختبائهم، أو شكهم فى قيامته (مر١٦)... ولكنه تأنى عليهم وصبر، وعالج ضعفهم ، وجعلهم قادة للمؤمنين...

* * *

كل هذه دروس لنا نتعلم منها طول الأناة .

ولكن لا نطيل أناتنا فى ضجر ، بل فى حب .

نطيل أناتنا

* نطيل أناتنا بالنسبة إلى الله ، فى انتظار مواعيده ، وفى انتظار تدخله لحل مشاكلنا واستجابة صلواتنا . وكما يقول المرتل فى المزمور « انتظر الرب . تقوّ وليتشدد قلبك ، وانتظر الرب » (مز٢٧ : ١٤) . وكما قال السيد المسيح له المجد « بصبركم تقتنون أنفسكم » (لو٢١ : ١٩) .

* * *

*** كذلك صبرنا وطول أناتنا فى محيط الخدمة .**

فلا نيأس بسرعة ولا نضجر ، إذا تأخر الثمر فى مجال خدمتنا : فالخطاة محتاجون إلى طول أناة ، حتى يتوبوا و يتركوا ما سبق تقييدهم به من طباع وعادات وشهوات . والجهال يحتاجون إلى طول أناة ، حتى يفهموا و يقبلوا الفكر الروحى ، وحتى ينضجوا أيضاً . ويجب علينا أن نتأنى عليهم بكل حب ، ولا نتضايق من بطؤ توبتهم أو من رجوعهم أحياناً إلى الوراء ، ذاكرين قول الرسول «تأنوا على الجميع» (١تس ٥ : ١٤) .

* * *

طول الأناة صفة ينبغى أن يتحلى بها المربى والمرشد والمعلم .

يتحلى بها الأبوان فى صبرهما إلى طفلهما حتى ينضج ، محتملين فى محبة وطول أناة

كل أخطائه وضعفاته .

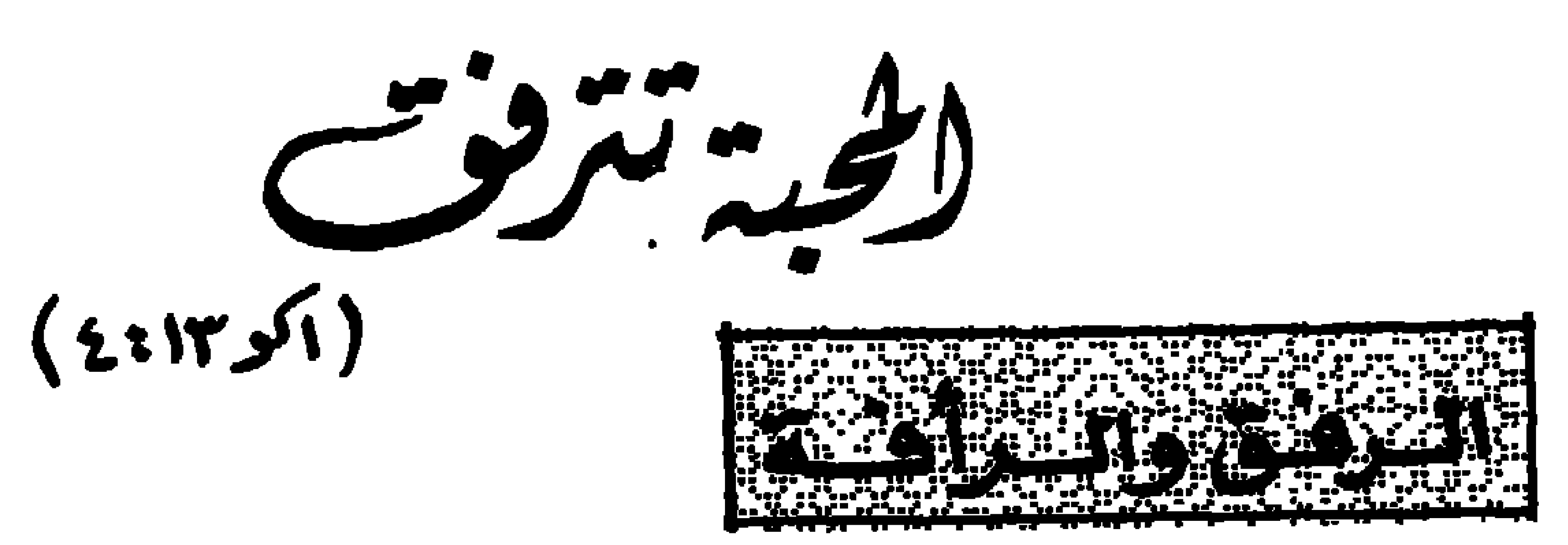
وأيضاً طول الأناة اللازمة للمدرس حتى يفهم تلميذه، وتتسع مداركه. كذلك المرشدون وآباء الاعتراف، وكل القادة يحتاجون إلى السلوك بمحبة وطول أناة.

ولنعرف جميعاً أن تعود الفضيلة ليس سهلاً على أولادنا وتلاميذنا.

يضاف إلى ذلك حروب الشياطين القاسية ضدهم، والعثرات التى تتعبهم من الخارج. وأمام كل هذا نتذكر قول الرسول « المحبة تتأنى وتترفق » ... تماماً كما يتأنى الطبيب على مريضه فى الاستجابة للعلاج.



الفصل الثاني :



من صفات المحبة : الرفق واللين والرأفة والعطف والحنو وأول نوع من هذه المحبة، هو المحبة الطبيعية :

ومنها محبة الأب ، ومحبة الأم ، ومحبة الأخوة. كل منها محبة طبيعية ، تربطها جميعاً رابطة الدم. وكل منها تترفق. ولذلك حينما حدث أن أخوة يوسف أرادوا أن يقتلوه (تك٣٧: ١٩، ٢٠)، كانت هذه القسوة منهم ضد الطبيعة. وحينما أراد أخوه رأوبين أن ينقذه من أيديهم كان هذا الأمر منه محبة طبيعية تترفق (تك٣٧: ٢١، ٢٢) (تك٤٢ : ٢٢). وحينما شقوا ثيابهم ووقعوا على الأرض أمامه، متوسلين لأجل بنيامين، خوفاً على أبيهم يعقوب أن يحزن ويموت بسبب فقد بنيامين، كانت هذه محبة طبيعية تترفق. وهكذا طلب يهوذا أن يؤخذ هو عبداً بدلاً من أخيه قائلاً «لأني كيف أصعد إلى أبي والغلام ليس معي، لئلا أبصر الشر الذي يصيب أبي» (تك٤٤ : ٣٤).

* * *

وهكذا كان وضع داود من جهة أبشالوم .

بينما أبشالوم سلك بأسلوب ضد الطبيعة، إذ حارب أباه، واستولى على ملكه، وصنع به شروراً كثيرة، نجد أن داود قال لجنده وهم خارجون للحرب «ترفقوا بالفتى أبشالوم» (٢صم١٨ : ٥)، كانت تلك منه محبة طبيعية تترفق .

كذلك لما سمع داود بمقتل ابشالوم في الحرب، وانزعج وبكى وقال «يا ابني ابشالوم يا ابني، يا ابني ابشالوم، يا ليتني مت عوضاً عنك، يا أبشالوم ابني، يا

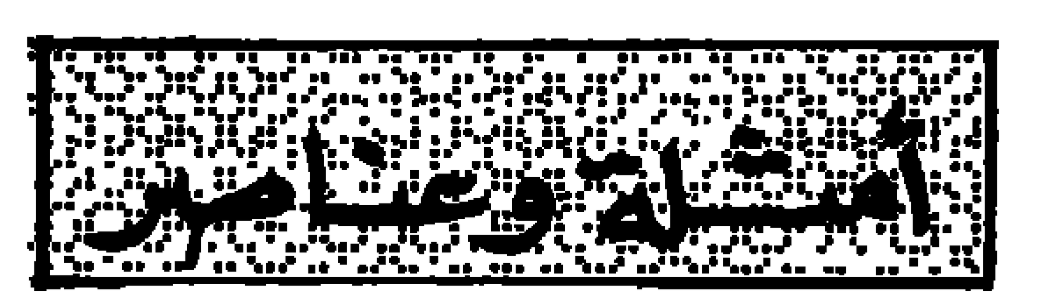
ابنى » (٢صم١٨ : ٢٣) ، كانت هذه منه محبة طبيعية تترفق...

* * *

وقد شبه الرب محبته للبشر بهذه المحبة الطبيعية :

ودعا نفسه أباً لنا ، ودعانا أبناء. وعلمنا أن نصلى قائلين «أبانا الذى فى السموات » (لو١١ : ٢). وداود فى المزمور شبه محبة الله التى تترفق، بمحبة الأب نحو بنيه. فقال «كما يترأف الأب على البنين، يترأف الرب على خائفيه» (مز١٠٣ : ١٣).

ومن جهة محبة الأم ، قال الرب لأورشليم «هل تنسى المرأة رضيعها ، فلا ترحم ابن بطنها ؟! حتى هؤلاء ينسين ، وأنا لا أنساكِ. هوذا على كفى نقشتكِ...» (أش٤٩ : ١٥، ١٦). فقال إن محبته أعظم من محبة الأمومة فى ترفقها...



ومن أمثلة المحبة فى ترفقها ، محبة الراعى لغنمه .

وفى ذلك يقول السيد الرب « أنا أرعى غنمى وأربضها ... وأطلب الضال، واسترد المطرود، وأجبر الكسير، وأعصب الجريح» (حز٣٤: ١٥، ١٦) «هكذا افتقد غنمى، وأخلصها من جميع الأماكن التى تشتتت إليها..» (خر٣٤: ١٢). وقال أيضاً «أنا هو الراعى الصالح. والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف» (يو١٠: ١١) «ولا يخطفها أحد من يدى» (يو١٠: ٢٨).

وفى ذلك قال داود الراعى الصغير لشاول الملك «كان عبدك يرعى لأبيه غنماً، فجاء أسد مع دب، وأخذ شاه من القطيع. فخرجت وراءه وقتلته، وأنقذتها من فيه. ولما قام علىّ، أمسكته من ذقنه وضربته فقتلته. قتل عبدك الأسد والدب جميعاً» (١صم١٧ : ٣٤- ٣٦).

ومن أمثلة محبة الراعى فى تحننها، قول الكتاب عن السيد المسيح «ولما رأى الجموع تحنن عليهم، إذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعى لها» (مت٩ : ٣٦) (مر٦: ٣٤).

كذلك حنوه على الخروف الضال ، إذ خرج يبحث عنه حتى وجده ، وحمله على منكبيه فرحاً (لو١٥: ٤، ٥). إنها المحبة التى تتعب، وتفرح بالتعب، رفقاً بالضالين.

* * *

ومن أمثلة المحبة التى تتراءف ، المحبة الموجهة إلى التعابى، والحزانى، وصغيرى النفوس.

ومن أمثلتها محبة السامرى الصالح الذى رأى فى الطريق إنساناً وقع بين أيدى اللصوص فعروه وجرحوه ومضوا وتركوه بين حىّ وميت «فلما رآه تحنن» وتقدم فضمد جراحه ، «وأركبه على دابته ، وأتى به إلى فندق ، واعتنى به» (لو١٠: ٣٠، ٣٤). المهم أن كل عمل الخير هذا، سبقته عبارة «تحنن». إنها المحبة التى تشفق وتترفق بالتعابى.

ولعل أبرز مثل لهذا الحب ، هو قول السيد :

«تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال ، وأنا أريحكم» (مت ١١: ٢٨).

ومن جهة الحزانى ، نراه فى محبته وحنوه ، يمسح كل دمعة من عيونهم (رو٧: ١٧) (رؤ٢١: ٤).

ومن تحننه ، إنه لما رأى أرملة نايين تبكى لموت وحيدها ، قيل «فلما رآها الرب تحنن عليها، وقال لها: لا تبكى، ثم تقدم إلى النعش وأقام ابنها الميت، ودفعه إلى أمه» (لو٧: ١٢- ١٥)... كذلك تحنن على أسرة لعازر التى كانت تبكى بسبب موته. ولم يقل الإنجيل فقط أنه أقام لعازر من الموت، بل قيل أكثر من هذا تعبيراً عن حبه: «بكى يسوع» (يو١١: ٣٥).

ومن أجل هذه المحبة المترفقة ، قيل عنه إنه :

عزاء من ليس له عزاء ، ومعين من ليس له معين .

ولهذا يقول الوحى لأورشليم «لا تبكى بكاء. يتراءف عليك، عند صوت صراخك. حينما يسمع يستجيب لك» (أش٣٠: ١٩). و يقول عنه الكتاب إنه

« أبو الرأفة ورب كل عزاء » (٢كو١: ٣).

* * *

ومن محبته وترفقه ، اهتمامه بصغيرى النفوس :

نقول عنه فى صلواتنا إنه « عزاء صغيرى النفوس ، ميناء الذين فى العاصف ». لقد عزى بطرس الرسول الذى بكى بكاءً مراً بعد أن أنكره ثلاث مرات (مت٢٦: ٧٥). لذلك قابله بعد القيامة ، وقال له « ارع غنمى ، ارع خرافى » (يو٢١: ١٥، ١٧). وذلك لئلا يظن بعد نكرانه أنه قد فقد رسوليته ، أو أنه انطبق عليه قول الرب « من ينكرنى قدام الناس ، أنكره أنا أيضاً قدام أبى الذى فى السموات » (مت١٠: ٣٣). فعزاه.

وكان أيضاً مترفقاً بتوما فى شكوكه. وسمح له أن يلمس جراحه و يؤمن (يو٢٠: ٢٦ - ٢٨). وترفق أيضاً بالمجدلية ، وأزال شكوكها وثبتها فى الإيمان (يو٢٠)... لهذا كله يقول الرسول « شجعوا صغار النفوس. اسندوا الضعفاء. تأنوا على الجميع » (١تس٥: ١٤).

* * *

ولعل من أبرز الأمثلة للمحبة المترفقة : الرفق بالخطاة.

وفيها يقول الرسول « اذكروا المقيدين ، كأنكم مقيدون معهم ، والمذلين كأنكم أنتم أيضاً فى الجسد » (عب١٣: ٣). ما أعظم محبة الرب فى ترفقه على المرأة السامرية ، وعدم اخجالها (يو٤). وكذلك ترفقه على المرأة الخاطئة التى ضبطت فى ذات الفعل ، وكيف أنقذها من الذين أدانوها وطلبوا الحكم برجمها. ثم قال لها فى رفق « ولا أنا أدينك. اذهبى ولا تخطئى أيضاً » (يو٨: ١١). وبنفس الرفق عامل المرأة الخاطئة التى سكبت الطيب على قدميه فى بيت سمعان الفريسى (يو٧: ٣٦-٥٠). وأظهر للفريسى إنها أفضل منه...

كذلك ترفقه بالإبن الضال حينما رجع ، ولم يبكته على ذهابه إلى كورة بعيدة (لو ١٥). ونفس الموقف مع زكا العشار (لو١٩). وباقى العشارين والخطاة.

وبنفس الرفق عامل أورشليم الخاطئة (حز ١٦).

قال لها «بسطت ذيلى عليكِ وسترت عورتك... ودخلت معك فى عهد... يقول السيد الرب- فصرتِ لى. فحممتك بالماء (أى المعمودية)... ومسحتك بالزيت (فى سرّ الميرون)... وكسوتك بزاً (من جهة البر) وحليتك بالحلى... ووضعت تاج جمال على رأسك ... فصلحت لمملكة. وخرج لك اسم فى الأمم لجمالك، لأنه كان كاملاً ببهائى الذى جعلته عليك» (حز١٦: ٨- ١٤).

* * *

ومن المحبة المترفقة بالخطاة، آنذارهم قبل العقاب ...

انذار قدمه الرب قبل الطوفان (تك٦). وانذار قدّمه لأهل سادوم على يد لوط (تك١٩). وانذارات يقدمها فى سفر الرؤيا قبل المجيء الثانى (رؤ٨). وانذار أمر به فى سفر حزقيال النبى. فقال له «اسمع الكلمة من فمى، وانذرهم من قبلى» (حز٣: ١٧) «وتحذرهم من قبلى» (حز٣٣: ٧)... وما أكثر انذارات الرب وتحذيراته. لأنه فى محبته، لا يريد أن يضرب الضربة على حين غفلة....

وهوذا بولس الرسول يقول لشيوخ أفسس «اسهروا متذكرين اننى ثلاث سنين ليلاً ونهاراً، لم أفتر عن أن أنذر بدموع كل واحد» (أع٢٠: ٣١).

ومن المحبة المترفقة، فتح باب التوبة للخطاة.

حتى للص على الصليب فى آخر ساعات حياته، إذ قال له «اليوم تكون معى فى الفردوس» (لو٢٣: ٤٣).

وأيضاً «اعطى الله الأمم التوبة للحياة» (أع١١: ١٨). وهكذا فتح باب الرجاء أمام كل أحد، لأنه «لا يسرّ بموت الخاطيء، بل أن يرجع ويحيا» (حز١٨: ٢٣).

وأعطانا خدمة المصالحة (٢كو٥: ١٨). لكى فى محبة وترفق بالخطاة، ندعوهم أن يصطلحوا مع الله.

* * *

ومن فيض المحبة المترفقة: الترفق أيضاً بالفقراء، والجياع والمرضى.

وهنا يقول الكتاب «وأما الصديق فيتراءف و يعطى» (مز٣٧: ٢١). و يقول

أيضاً «طوبى للرجل الذى يتراءف و يقرض » (مز١١٢ : ٢١) . و يهمنا هنا كلمة «يتراءف» . فلا يكفى أن يعطى الإنسان غيره، وإنما بمشاعر الحب «يتراءف» . ومن الرأفة أن الرب منع أخذ الربا من أولئك المحتاجين. واعتبر أن من يعطى المحتاجين، كأنه يعطى الرب نفسه، فقال :

« بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتى هؤلاء الأصاغر، فبى قد فعلتم» (مت ٢٥ : ٤٠) .

إذن ينبغى أن يكون العطاء بحب ، وفيه ترفق بمشاعر المحتاجين. وهنا ألوم الجمعيات التى تؤسس الملاجىء، وتجرح شعور اللاجئين بما تنشره عنهم من صور وإعلانات، لكى تجمع بذلك مالاً !

اهتمام الرب بالجياع والعطاش والمحتاجين ، واضح جداً فى وصيته للتلاميذ «أعطوهم أنتم ليأكلوا » (مت ١٤: ١٦) .

* * *

نلاحظ أيضاً أن معجزات الشفاء التى قام بها الرب، لم تكن مجرد شفاء، إنما امتزجت أيضاً بالحنان والرأفة.

ففى منح البصر للأعميين، يقول الكتاب «فتحنن يسوع ولمس أعينهما . فللوقت أبصرت أعينهما فتبعاه» (مت ٢٠: ٣٤) . وفى شفاء الأبرص وتطهيره، قيل « فتحنن يسوع ومد يده ولمسه، وقال له اريد فاطهر» (مر١: ٤١) . و يقول الكتاب أيضاً «فلما خرج يسوع أبصر جمعاً كثيراً، فتحنن عليهم وشفى مرضاهم» (مت ١٤: ١٤) . إذن الحنان هو الدافع، والشفاء هو النتيجة .

* * *

ما أكثر تحننه أيضاً على العواقر .

وما أجمل تلك التسبحة التى سجلها سفر اشعياء : «ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد . اشيدى بالترنم ... لحيظة تركتك وبمراحم عظيمة سأجمعك» (أش ٥٤: ١، ٧) ...

وهنا نذكر تحننه على حنة، ومنحها صموئيل الذى صار نبياً مسح الملوك (١صم ١٠: ١٦) . وتحننه على اليصابات فى شيخوختها، فمنحها يوحنا الذى صار

أعظم من ولدته النساء (مت ١١ : ١١)، وتحننه على ليئة المكروهة، فجاء من نسلها المسيح.

* * *

ومن ابرز أمثلة الترفق، أمر الرب ببناء (مدن الملجأ) التى يلجأ إليها القاتل الذى قتل نفساً سهواً (عد ٣٥: ١١)، فيحتمى فيها لئلا يقتله ولى الدم، وقبل أن يفصل القضاء فى أمره.

وهكذا يقول المزمور « الرب يحكم للمظلومين » .

إن الله ضد قساوة القلب . فالقاتل الذى يقتل عن غضب وحقد وقسوة، لا تنطبق عليه قاعدة مدن الملجأ... لقد قال يعقوب أبو الآباء فى نصائحه لأولاده قبل موته «شمعون ولاوى أخوان، آلات ظلم سيوفهما. فى مجلسهما لا تدخل نفسى. وبمجمعهما لا تتحد كرامتى. لأنهما فى غضبهما قتلا إنساناً، وفى رضاهما عرقبا ثوراً» (تك ٤٩ : ٥، ٦).

* * *

من أجمل صور الحب والرفق، الترفق بالأعداء .

أو بالذين سلكوا سلوك الأعداء، حتى لو كانوا أخوة. مثلما فعل يوسف بأخوته. إذ بكى لما عرّفهم بنفسه (تك ٤٥ : ١، ٢). وغفر لهم، وأكرمهم وأسكنهم فى أرض جاسان التى كانت صالحة لمراعيهم.

كذلك بكاء داود على ابشالوم، عن حب، على الرغم من كل تعدياته .

وكذلك الرفق بالأحباء الذين سلكوا مسلكاً ضعيفاً .

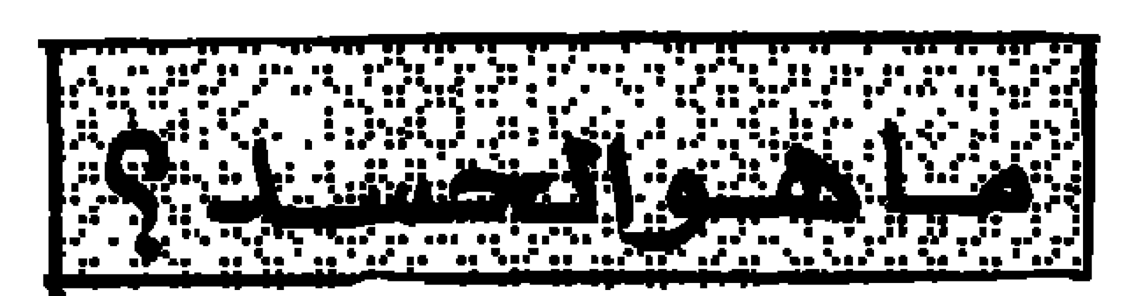
مثل نوم التلاميذ فى بستان جثسيمانى، بينما قال لهم السيد «أما قدرتم أن تسهروا معى ساعة واحدة؟!» ومع ذلك أوجد لهم عذراً وقال لهم «أما الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف» (مت ٢٦ : ٤١). ولم يوبخهم لما هربوا وقت القبض عليه، ولما خافوا واختبأوا فى العلية...

* * *

الفصل الثالث :

المحبة لا تحسد

(١كو١٣: ٤)



الحسد بمعناه اللغوى هو تمنى زوال النعمة أو الخير عن المحسود ، وتحول هذه النعمة والخير إلى الحاسد .

وبهذا المعنى يكون الحسد خطية مزدوجة :

فتمنى زوال النعمة عن المحسود خطية ، لأنه ضد المحبة . فالمحبة لا تفرح بالإثم ، بل تفرح بالحق (١كو١٣: ٦). والكتاب يقول «لا تفرح بسقطة عدوك. ولا يبتهج قلبك إذا عثر» (أم ٢٤: ١٧) ... فكم بالأكثر إن كان هذا الذى تتمنى له السقوط ليس عدواً ، ولم يفعل بك شراً !!

كذلك تمنى تحول خيره إلى الحاسد يحمل خطية أخرى . فهو شهوة خاطئة . وهو ضد الوصية العاشرة : «لا تشته شيئاً مما لقريبك» (خر٢٠: ١٣) .

والقديس يعقوب الرسول يسمى الحسد «الغيرة المرة» (يع٣: ١٤) . و يعتبره القديس بولس الرسول من «أعمال الجسد» (غل ٥: ١٩) . والذين يفعلون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله» (غل ٥: ٢١) .

* * *

وهناك نوع آخر من الحسد ، يحذر منه الكتاب بقوله :

« لا تحسد أهل الشر ، ولا تشته أن تكون معهم » (أم ٢٤ : ١) .

وهنا يرتبط الحسد بشهوة الخطية . فيحسد الذين يرتكبونها حين لا يكون بإمكانه

ذلك. وهذا يدل على عدم وجود نفاوة فى القلب. وعلى أن القلب لا توجد فيه محبة الله. لأن هذه المحبة تقى المؤمن من حسد الأشرار على شرهم...



الذى يحب إنساناً لا يمكن أن يحسده ...

لأنك إن أحببت إنساناً ، تتمنى أن تزيد نعمة الله عليه، لا أن تزول النعمة منه.

وإن أحببت إنساناً ، فإنك تفضله على نفسك ، بل تبذل نفسك عنه. وهكذا لا يمكن أن تشتهى أن يتحول الخير منه إليك فالمحبة تبنى ولا تهدم...

وهكذا فإن الأم التى تحب ابنتها ، لا يمكن أن تحسدها على زواج موفق، بل تسعد بسعادتها، وتكون فى خدمتها فى يوم فرحها، تبذل جهدها أن تكون ابنتها فى أجمل صورة وأجمل زينة. وكذلك الأب يفرح بنجاح ابنه، ولا يمكن أن يحسده على نجاحه.

* * *

لقد فرح داود الملك أن يجلس ابنه على كرسيه فى حياته.

بل هو الذى دبّر كل ذلك وأمر به . ولما جلس سليمان على كرسى المملكة، قال داود «مبارك الرب إله اسرائيل الذى أعطانى اليوم من يجلس على كرسىّ وعيناى تبصران» (١مل ١ : ٤٨). وجاء عبيد الملك داود ليباركوا له قائلين «فليجعل إلهك إسم سليمان أحسن من اسمك، وكرسيه أعظم من كرسيك» (١مل١ : ٤٧). وفرح داود بهذا، وسجد على سريره.

وفرح يعقوب بابنه يوسف ، لما رآه رئيساً فى مصر... وباركه وبارك ابنيه (تك٤٨ : ٢٠- ٢٢).

* * *

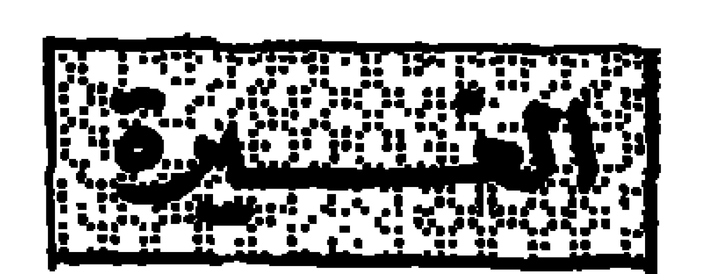
ولعل من أروع الأمثلة فى المحبة التى لا تحسد ، موقف القديس يوحنا المعمدان من المسيح.

كان المعمدان هو أعظم كارز فى أيامه، وقد « خرجت إليه أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالأردن، واعتمدوا منه فى الأردن معترفين بخطاياهم » (مت ٣: ٥، ٦). ولكن لما بدأ المسيح خدمته، جذب إليه الجميع، حتى الذين كانوا مع يوحنا. فهل دخل الحسد إلى قلب يوحنا ؟! كلا، بل فرح.

فيوحنا كان يحب المسيح. والمحبة لا تحسد.

لذلك قال عبارته الخالدة: من له العروس فهو العريس، وأما صديق العريس الذى يقف ويسمعه، فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذن فرحى هذا قد كمل. ينبغى أن ذاك يزيد، وأنى أنا أنقص. الذى يأتى من فوق، هو فوق الجميع » (يو ٣: ٢٩- ٣١).

كان حباً ممزوجاً بالإيمان، وبالاتضاع... أما الحسد فنجده خالياً من الحب فى كل أحداثه.



ليست كل غيرة لوناً من الحسد الخاطىء. وليست كل غيرة ضد المحبة. فإن الرسول يقول:

« حسنة هى الغيرة فى الحسنى كل حين » (غل ٤ : ١٨).

إنها الغيرة التى لا تحسد وإنما تقلّد، وتتحمس للخير. فنحن نسمع عن فضائل القديسين، سواء الذين انتقلوا، أو الذين مازالوا أحياء. فنغار منهم غيرة تجعلنا نتمثل بأفعالهم، لا أن نحسدهم، ونتمنى زوال النعمة منهم إلينا !!.. بل نفرح كلما نعرف جديداً من فضائلهم.

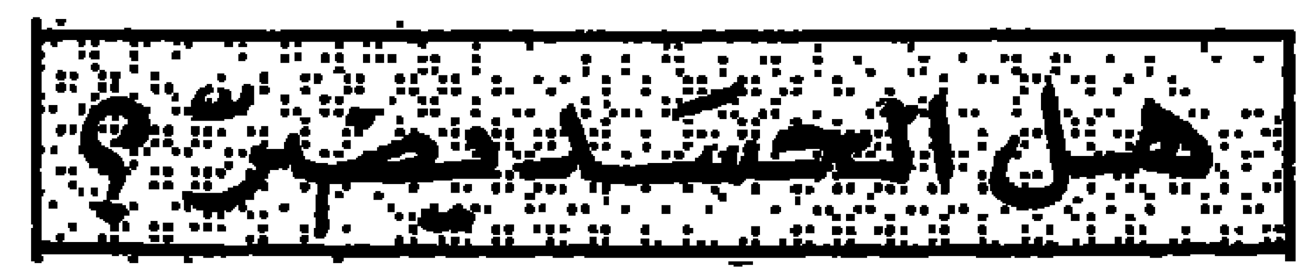
* * *

إن الذى يحب الفضيلة، لا يحسد الفضلاء،
والذى يحب الفضلاء لا يحسدهم بل يقلدهم.

آباء البرية ما كانوا يحسدون بعضهم بعضاً فى حياة الروح. بل كان ارتفاع الواحد منهم فى الطريق الروحى، يشجع الآخرين ويقويهم. وكانوا يمجدون الله بسببه...

وتملكهم الغيرة المقدسة فيفعلون مثلما يفعل ، و يطلبون صلواته عنهم و بركته لهم .

وهكذا كان الحال فى العصر الرسولى ، وفى كل عصور الاستشهاد . كانت هناك غيرة ، ولم يكن هناك حسد . لأن الناس كانوا يحبون الملكوت ، ويحبون كل العاملين فيه . لا يحسدونهم ، بل يطوبونهم .



أولاً : الحسد يضر الحاسد وليس المحسود .

الحاسد تتعبه الغيرة ، و يتعبه الشعور بالنقص . يتعبه منظر المحسود فى مجد . تتعبه مشاعره . وكما قال الشاعر:

اصبر على كيد الحسود   فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها   إن لم تجد ما تأكله

وكذلك فإن الحاسد يتعبه تفكيره وسعيه فى الإضرار بالمحسود .
وقد لا يفلح فى ذلك ، و يزداد المحسود إرتفاعاً .

وكذلك فإن الحاسد يتعبه تفكيره وسعيه فى الإضرار بالمحسود . وقد لا يفلح فى ذلك ، و يزداد المحسود إرتفاعاً ، فيزداد هو غيظاً ... إن القلب الخالى من المحبة ، لابد أن يتعب .

وقد يسعى الحاسد إلى التحرش بالمحسود وإهانته ، فيقابله المحسود برقة ولطف ، فتتعبه رقته ولطفه ، و يتعبه فشله فى إثارته . فتزداد فيه النار اشتعالاً .. !

* * *

ثانياً : إن الحسد فى حد ذاته لا يضر . ولكن المؤامرات التى يدبرها الحاسدون قد تضر أحياناً.

أخوة يوسف الصديق حسدوه على محبة أبيه له ، وحسدوه على أحلامه ، فلم يضره حسدهم بشىء . ولكن جاء دور المؤامرات التى تضر . وهنا يقول الكتاب إنهم « إحتالوا ليميتوه » (تك ٣٧ : ١٨) . وهكذا خلعوا عنه قميصه الملون ، وألقوه فى بئر . وانتهى الأمر ببيعه عبداً للاسماعيليين ، ومرت عليه تجارب عديدة . وهنا أقول :

متاعب يوسف لم تأتِ عن ضربة عين من حسد اخوته .

كانوا معه فى البيت كل يوم ، كأخوة فى أسرة واحدة. وكانت عيونهم الحاسدة موجهة إليه ليل نهار، ولم تضره... أو على الأقل كانت عيونهم الحاسدة مركزة فى قميصه الملون . ولم يتمزق القميص من نظراتهم ، وبقى كما هو، حتى حينما أخلعوه أيضاً . المشكلة إذن كانت فى التآمر، وليست فى نظرات الحسد ، ولا فى مشاعر الحسد الناتجة عن عدم المحبة .

* * *

قورح وداثان وابيرام حسدوا موسى وهارون على كهنوتهما . وما أصابت موسى ولا هرون عين واحد منهم .

كل ما فى الأمر أنهم أقاموا ضجيجاً واحتجاجاً وتمرداً . ولم يفدهم ذلك بشىء . بل انتهى الأمر إلى أن الله تبارك إسمه أمر الأرض فانشقت ، وفتحت فاها وابتلعتهم مع كل ما كان لهم (عد١٦ : ٣١- ٣٣) .

* * *

كهنة اليهود ورؤساؤهم حسدوا المسيح ، فتآمروا ضده .

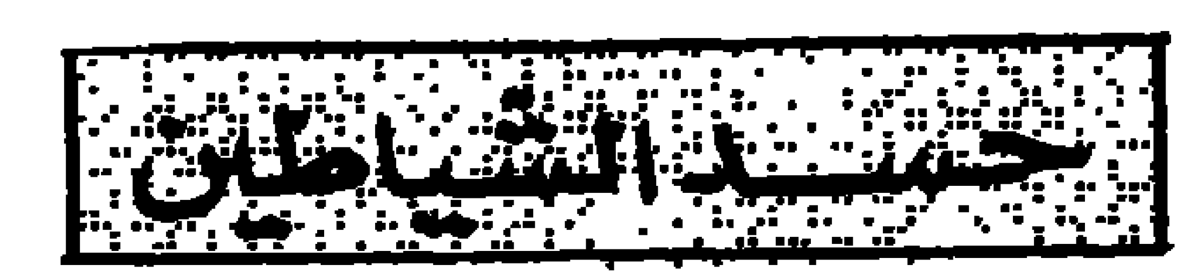
أتهموه اتهامات كثيرة، حاكموه فى مجمعهم ، أتوا بشهود زور لم تتفق أقوالهم . هيجوا عليه الشعب . قدموه إلى السلطة الرومانية كفاعل إثم ، فلم يجد فيه الوالى الرومانى علّة للموت . أصروا على صلبه ، وصاحوا وضجوا، وكان لهم ما أرادوا فصلبوه... كل هذه هى مؤامرات الحاسدين . وكل شر الحسد فى مؤامراته . وسبب الحسد هو الأنانية وعدم الحب .

* * *

الحسد هو مشاعر قلب ، وليس ضربة عين .

ونحن حينما نطلب من الله فى صلاة الشكر وفى غيرها أن ينزع عنا الحسد، لا نطلب مطلقاً أن يبعد عنا ضربة العين ، إنما مؤامرات الحاسدين . وأيضاً أن لا يكون فينا حسد نحو غيرنا .

* * *



حسد الشياطين

أول الحاسدين كان الشيطان . حسد الإنسان الأول على نقاوته ، بينما فقد هو تلك النقاوة . وحسده لعلاقته الطيبة مع الله ، بينما خسر هو تلك العلاقة . وحسده لأنه خُلق على صورة الله ومثاله . وحسده على تمتعه بالبركة والسلطة فى جنة عدن . فأراد أن يفقده كل هذا ... ماذا فعل إذن ؟ خدعه وكذب عليه وأغراه ، وأسقطه فى الخطية ، فتعرض لحكم الموت . وهكذا نقول فى القداس الإلهى « والموت الذى دخل إلى العالم بحسد إبليس ، هدمته » .

كانت إذن مؤامرة من الشيطان ، وخدعة ، ولم تكن ضربة عين .

الشيطان لا يحب الناس ، ولا يحب الخير للناس ، لذلك يحسد . فليست فى قلبه المحبة التى لا تحسد ، بل تتركز فى قلبه العداوة والكراهية ، وبالتالى الحسد . وفى الحسد يحب أن يضر . يحب أن النعمة تزول من المحسود ، على الرغم من أن هذه النعمة سوف لا تتحول إليه . ولكنها مجرد الكراهية التى تجعله يفرح بسقوط البشر .

* * *

وقد حسد أيوب الصديق . ولم يستطع أن يضره إلا بعد أن أخذ سماحاً من الله (أى ١ ، ٢) .

وحتى ذلك بالسماح كان فى حدود لا يتعداها ، فى الحدود التى كان الله يعرف أن أيوب البار سوف يحتملها . وانتهى الأمر بأن رفع الرب وجه أيوب ، وعوضه الخير الذى فقد منه مضاعفاً . ولم تفلح مؤامرة الشيطان . وكان الله ضابط الكل ممسكاً العملية كلها فى يمينه ، محولاً كل شىء إلى الخير ، كما فعل مع يوسف الذى حسده اخوته من قبل (تك ٤٥ : ٨) .

فإن كان الشيطان بكل جبروت حسده وقوته لا يستطيع أن يؤذى إلا بسماح ، فهل تظنون أن عيون الحاسدين من البشر الضعفاء تستطيع أن تؤذى ؟!

مهما أوتيت من قوة البصر !! أين إذن ضابط الكل وحمايته ؟ ومن الذى أعطى أولئك الحاسدين تلك القوة الضارة الجبارة فى عيونهم !؟ هل هو الله ؟! وهل الله يمنح

أمثال هؤلاء قوة للإضرار، ليست تحت ضبط، وتعمل بلا سبب داعٍ لإهلاك الناس ؟! . أمر لا يصدقه منطق، ولا يسنده الكتاب ...

* * *

ولو كانت ضربة العين حقيقة، إذن لهلك كل أصحاب المواهب والمناصب والتفوق .

الحاصلون على جائزة نوبل كل عام، أليس لهم حاسدون ؟ وهؤلاء الحاسدون أليست لهم عيون ؟ هل تصيبهم ضربة عين، فيفقد العالم أعظم علمائه وأدبائه وأبطال السلام فيه !!

وأبطال الرياضة أصحاب الكؤوس الذهبية والميداليات، والمتفوقون فى الفن والموسيقى، وملكات الجمال فى العالم... أليس لهؤلاء أيضاً حاسدون، ولهم أو لأصحابهم عيون .

والذين ينجحون فى الانتخابات ، ويتولون المناصب والرياسات، على كل المستويات ، وفى كل البلاد ، أليس لهم أيضاً حاسدون ؟! !

وأوائل الطلبة فى الكليات والجامعات ، وأوائل الثانوية العامة، وقد يكون الأول متفوقاً بنصف درجة فقط. وكل الذين يعينون فى مناصب مرموقة جداً، أليس لهم أيضاً حاسدون ؟ هل تصيب كل هؤلاء ضربة عين فيسقطون ؟!

* * *

أم أننا لا نكون آمنين إلا من حسد العميان أو ضعاف البصر، الذين ليست لهم عيون تفلق الحجر؟!!

إننى لست أوافق مطلقاً على ضربة العين، ولا أرى الحسد إلا مشاعر خاطئة فى القلب، قد تعبر عن ذاتها بمؤامرات تحوكها حول المحسودين، ربما تضرهم أو لا تضرهم .

* * *

والسيد المسيح حينما أخفى لاهوته عن الشيطان، لم يكن ذلك خوفاً من حسد الشياطين، حاشا . بل لئلا يعطل الشيطان قضية الفداء، أو كما قيل «لأنهم لو عرفوا، لما صلبوا رب المجد» (١كو٢: ٨) .

كذلك القديسون لم يخفوا فضائلهم خوفاً من حسد الشياطين، وإنما تواضعاً. فالشيطان كان يعرف فضائلهم.

بلا شك كان الشيطان يعرف أن القديسة مارينا إمرأة، لا يمكن أن تنجب من إمرأة أخرى إبناً !! إنما هذه القديسة صبرت على العار تواضعاً منها. وإن كان هناك مجال لحسد الشيطان، فهو أن يحسدها على تواضعها، الأمر الذى ما كان ممكناً أن تخفيه عنه.

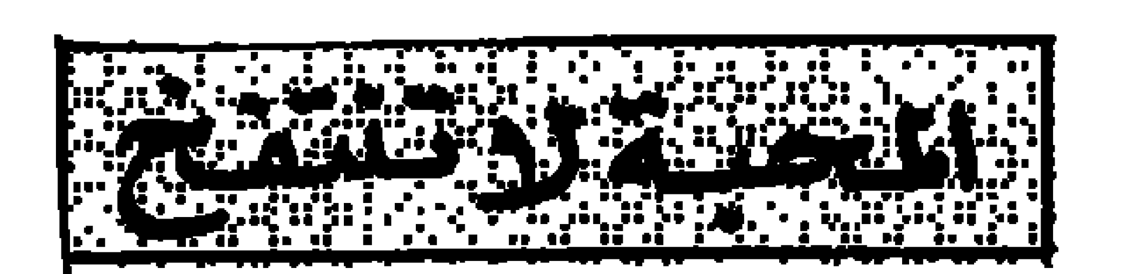
وبالمثل القديس أبا مقار الكبير، كان الشيطان يعرف تماماً أنه لم يخطىء إلى تلك الفتاة. فالشيطان هو الذى أغراها على الزنى مع ذلك الشاب: وهو الذى أوعز إليها أن تلصق التهمة بالقديس مقاريوس الذى قبل ذلك تواضعاً منه. وليس لذلك دخل بحسد الشياطين.

القديسون كانوا يخفون فضائلهم من مديح الناس ...



الفصل الرابع

المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تقبح (١كو١٣: ٤، ٥)



المحبة لا تنتفخ

عبارة « لا تتفاخر » تعنى لا تفتخر على غيرها ، وعبارة « لا تنتفخ » تعنى لا تعامل غيرها بانتفاخ ، أى لا تتعالى على الغير. فالذى يحب، يعامل من يحبه بمودة ، وليس بعظمة . وقد قيل عن السيد الرب فى محبته لنا ، لما صار فى شبه الناس :

إن ابن الإنسان لم يأتِ ليُخدَم بل ليخدِم» (مت ٢٠: ٢٨) .

وهكذا فى محبته لتلاميذه ، انحنى وغسل أرجلهم . وكان هذا أيضاً تعليماً صالحاً لهم ، إذ قال بعد ذلك : «فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض . لأنى أعطيتكم مثالاً ، حتى كما صنعت أنا بكم ، تصنعون أنتم أيضاً » (يو١٣ : ١٤ ، ١٥) .

ومحبة الله الآب ، نقول عنه فى القداس الإلهى :

« الساكن فى الأعالى ، والناظر إلى المتواضعات » .

إن سكناه فى الأعالى ، هذا الذى سماء السموات لا تسعه (١مل٨: ٢٧) ، لم يمنعه هذا العلو من أن ينظر إلى البشر، الذى هو «تراب ورماد» (تك١٨ : ٢٧) . وهو « يعرف جبلتنا ، يذكر أننا ترب نحن» (مز١٠٣ : ١٤)... إنها المحبة التى لا تتعالى .

* * *

محبة الله التي لا تتعالى على أولاده في الحوار.

الله الذى يأخذ رأى أبينا ابراهيم فى موضوع سادوم، ويقول «هل أخفى عن ابراهيم ما أنا فاعله؟!» (تك١٨: ١٧). ويدخل معه فى حوار، يسمح فيه لابراهيم أن يقول له «حاشا لك يارب أن تفعل مثل هذا الأمر، أن تميت البار مع الأثيم.. حاشا لك. أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً» (تك١٨: ٥). ولا يغضب الله، ويستمر الحوار...

نعم هو الله المحب الذى يشرك معه موسى من جهة مصير الشعب الذى عبد العجل الذهبى، ويقول له «أتركنى ليحمى غضبى عليهم وافنيهم..» ولكن موسى لا يتركه. بل يقول له «ارجع عن حمو غضبك، واندم على الشر بشعبك. اذكر ابراهيم واسحق واسرائيل عبيدك...» (خر٣٢: ١٠-١٤). ويستجيب الرب لموسى.

الله الذى فى محبته يتنازل ليظهر لعبيده ويكلمهم.

كما فعل مع سليمان، تراءى له مرتين: أحدهما فى جبعون، والأخرى فى أورشليم (١مل ٣، ٩)... على الرغم من أن الله كان يعرف بسابق علمه أن سليمان سوف يميل قلبه وراء آلهة أخرى بسبب نسائه (١مل ١١: ٤)...

* * *

ولعل من أبرز الأمثلة على عدم التعالى، أن السيد الرب فى تجسده، دعا تلاميذه اخوته.

وفى ذلك يقول بولس الرسول عنه إنه «لا يستحى أن يدعوهم أخوة، قائلاً: اخبر باسمك اخوتى» (عب٢: ١١، ١٢). وأنه «كان ينبغى أن يشبه اخوته فى كل شىء» (عب٢: ١٧). بل أن الرب نفسه يقول للقديسة المجدلية وزميلتها «اذهبا قولا لأخوتى أن يمضوا إلى الجليل وهناك يروننى» (مت٢٨: ١٠).

وهو نفسه يقول لتلاميذه، وقد أحبهم حتى المنتهى (يو١٣: ١)... «لا أعود أسميكم عبيداً... لكننى قد سميتكم أحباء...» (يو١٥: ١٥)... ويعدهم قائلاً «حيث أكون أنا، تكونون أنتم أيضاً» (يو١٤: ٣). ويستمر هذا الوعد فى الأبدية، فى أورشليم السمائية، مسكن الله مع الناس، حيث يكون الله فى وسط شعبه

(رؤ ٢٠: ٣).

* * *

بل من أعظم الأمثلة للمحبة التى لا تتفاخر ولا تنتفخ هى قول الرب لتلاميذه :

ومن يؤمن بى فالأعمال التى أنا أعملها، يعملها هو أيضاً، ويعمل أعظم منها ...» (يو ١٤: ١٢).

عبارة عجيبة فى تواضعها ، يقف أمامها العقل البشرى مبهوتاً ... كما يقف العقل مبهوتاً أيضاً أمام محبة الله للبشر، التى بسببها يتقدم السيد المسيح إلى يوحنا المعمدان ليعتمد منه ، معمودية التوبة ، نيابة عنا ... !! أين هنا التفاخر والانتفاخ ؟!... بل المحبة التى تصعد على الصليب ، لكى تحمل كل خطايا العالم ، ويحصى وسط أثمة (أش ٥٣: ٦، ١٢)...

ليس فقط لا يوجد تفاخر ، بل بالأكثر انسحاق ...

* * *

وكما سلك السيد المسيح ، سلك أيضاً تلاميذه باسلوب المحبة التى لا تتفاخر ولا تنتفخ ...

مهما كان المنصب عالياً ، منصب الرسولية . فهوذا القديس بولس الرسول ، يقول فى توبيخه لأولاده فى كورنثوس «اطلب إليكم بوداعة المسيح وحلمه ، أنا نفسى بولس ، الذى فى الحضرة ذليل بينكم . وأما فى الغيبة فمتجاسر عليكم . ولكن أطلب أن لا أتجاسر وأنا حاضر...» (٢كو ١٠: ١، ٢) . ويقول فى حديثه مع شيوخ كنيسة أفسس «اسهروا متذكرين أنى ثلاث سنين ليلاً ونهاراً ، لم أفتر عن أن أنذر بدموع كل واحد» (أع ٢٠: ٣١).

عبارات عجيبة ، يقولها الرسول العظيم الذى اختطف إلى السماء الثالثة ، إلى الفردوس ، وسمع كلمات لا يُنطق بها (٢كو ١٢: ٢-٤)... ومع كل هذه العظمة لا يتفاخر ولا ينتفخ ، بل يقول عن نفسه إنه ذليل ، ومتجاسر ، و ينذر بدموع .

وفى مجال الافتخار ، يقول لا افتخر إلا بضعفاتى .

ويشرح كيف أن ملاك الشيطان لطمه بشوكة فى الجسد ، وأنه تضرع إلى الله

ثلاث مرات بسببها ولم يستجب الله لصلاته فى هذا الأمر، بل قال له تكفيك نعمتى (٢كو١٢: ٥-٩).

* * *

لم يفتخر أحد من الرسل بمنصبه العظيم ولم ينتفخ.

بطرس الرسول يكتب إلى الشيوخ فيقول: «أطلب إلى الشيوخ الذين بينكم، أنا الشيخ رفيقهم، والشاهد لآلام المسيح» (١بط٥: ١).

ويوحنا الرسول يكتب فى مقدمة سفر الرؤيا: «أنا يوحنا أخوكم، وشريككم فى الضيقة، وفى ملكوت يسوع المسيح وصبره..» (رؤ١: ٩). يكتب بهذا الأسلوب فى مقدمة الرؤيا التى رأى فيها السيد الرب، ورأى باباً مفتوحاً فى السماء، وعرش الله، وكثيراً من القوات السمائية التى لم يرها رسول غيره... ومع ذلك لا يتفاخر... بل يقول: أخوكم وشريككم...

وبولس الرسول يبدأ الكثير من رسائله بعبارة «بولس عبد ليسوع المسيح» (رو١: ١) (فى١: ١).

* * *

بل بالأكثر، سمّى الرسل رسالتهم خدمة ...

فقال القديس بولس الرسول «هكذا فليحسبنا الإنسان كخدام للمسيح» (١كو٤: ١). وقال إن الرب «أعطانا خدمة المصالحة» (٢كو٥: ١٨) «فى كل شىء نظهر أنفسنا كخدام فى صبر كثير فى شدائد فى ضرورات» (٢كو٦: ٤). وقال الرسول عن عملهم الكرازى إنه «خدمة الكلمة» (أع٦: ٤). وقال القديس بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس الأسقف «إعمل عمل المبشر، تمم خدمتك» (٢تى٤: ٥). وقال عن نفسه وعن زميله أبولوس «من هو بولس، ومن هو أبلوس؟ بل خادمان آمنتم بواسطتهما» (١كو٣: ٥).

ولعل هذا كله تنفيذاً لوصية الرب لتلاميذه:

من أراد أن يكون فيكم عظيماً، فليكن لكم خادماً».

وأيضاً «ومن أراد أن يكون فيكم أولاً، فليكن لكم عبداً» (مت٢٠: ٢٦،

٢٧). وحسبما ورد فى الإنجيل لمارمرقس الرسول «إذا أراد أحد أن يكون أولاً، فليكن آخر الكل وخادماً للكل» (مر٩: ٣٥)... هذا هو عمل الرسولية، الذى لا يتفاخر ولا ينتفخ، بل فى محبته لله وللكوته، وفى محبته للمخدومين يكون آخر الكل وخادم الكل.

ويشبه هذا، صلاة القديس أوغسطينوس من أجل رعيته، التى قال فيها «اطلب إليك يارب، من أجل سادتى عبيدك...».

* * *

وكما كان الآباء فى محبتهم لا يتفاخرون بالمناصب، كانوا أيضاً لا يتفاخرون بحياة القداسة.

ولا يتفاخرون ولا ينتفخون بالمواهب الإلهية...

ولا يظهرون أمام الناس بمظهر من قد أعطاه الله ما لم يعطه لغيره. لأنه إلى جوار الكبرياء فى هذا التفاخر، فإنه يوقع الآخرين أيضاً فى صغر النفس وفى الغيرة المرة. وكل هذا ضد مشاعر المحبة الحقيقية التى تهتم بغيرها أكثر مما تهتم بنفسها...

وهكذا نجد أن الرسل فى علو مستواهم الروحى يقولون عن أنفسهم أنهم خطاة. فالقديس بولس الرسول يقول إن «المسيح يسوع جاء إلى العالم، ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا» (١تى١: ١٥). ويقول «أنا الذى كنت قبلاً مجدفاً ومضطهداً ومفترياً ولكننى رُحمت لأنى فعلت ذلك بجهل فى عدم إيمان» (١تى١: ١٣).

والقديس يوحنا الحبيب يقول «إن قلنا إنه ليس لنا خطية، نضل أنفسنا وليس الحق فينا» (١يو١: ٨). والقديس يعقوب الرسول يقول «لا تكونوا معلمين كثيرين يا اخوتى، عالمين أننا نأخذ دينونة أعظم، لأننا فى أشياء كثيرة نعثر جميعنا» (يع٣: ١، ٢).

* * *

المحبة لا تفتخر بالمواهب، بل تستخدمها فى إتضاع لنفع وخدمة الآخرين.

هوذا القديس بطرس الرسول حينما أقام الرجل المقعد، الأعرج من بطن أمه، المستعطى عند باب الهيكل... واندهل الناس من هذه المعجزة، قال لهم بطرس الرسول

«ما بالكم تتعجبون من هذا، ولماذا تشخصون إلينا، كأننا بقوتنا أو بتقوانا قد جعلنا هذا يمشى» (أع ٣ : ١٢) ... وأخذ يحول أنظارهم إلى السيد المسيح الذى أنكروه الذى بالإيمان باسمه تشدد هذا المقعد ومشى ...

الذين يتفاخرون وينتفخون بالمواهب، لا يحبون غيرهم، بل لا يحبون أنفسهم أيضاً ...

لأن التفاخر بالموهبة، قد يبعدها عن صاحبها، إن كانت موهبة حقيقية من الله. كما يدل ذلك أيضاً على أن الذى منحه الله الموهبة، لم يستطع أن يحتملها، فارتفع قلبه بسببها على غيره، وبدأ يتفاخر على من لم يأخذوها. وليس فى هذا الأمر حب، وليس فيه تواضع، وليس فيه فهم للموهبة.

فالمواهب يمنحها الله لخير الناس، وليس للكبرياء ...

الله يمنحك الموهبة، لكى فى محبتك للناس، تستخدم الموهبة لخيرهم... كمواهب الشفاء مثلاً، أو إخراج الشياطين... أو مواهب الذكاء والمعرفة، التى تستخدمها فى محبة لتعليم الآخرين وهدايتهم، وليس للتفاخر والإنتفاخ. وإلا فإنك تكون قد تركت الهدف من الموهبة، وهو محبة الآخرين وخدمتهم، وتحولت إلى التمركز حول الذات بطريقة غير روحية ...

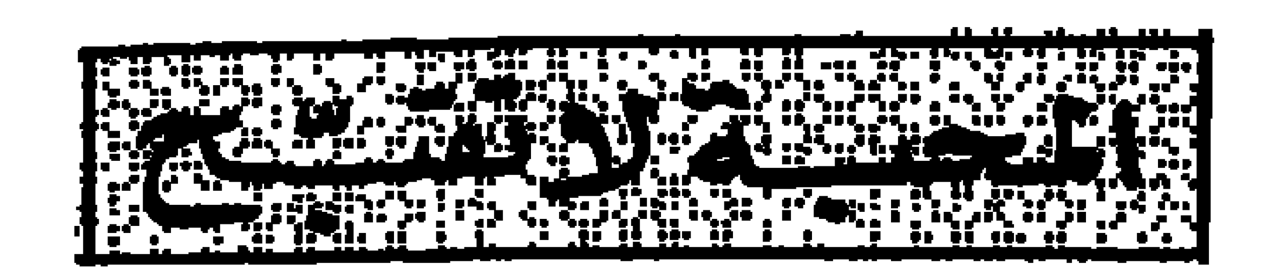
* * *

قلنا إن المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ، بسبب علو المركز، ولا بسبب المواهب، ولا بسبب العقل ...

كذلك لا تتفاخر بسبب الغنى ولا التمايز المادى.

المفروض أن الغنى يستخدم غناه لخير المحتاجين، وهكذا يكون قد أحبهم وكسب محبتهم له... ولكن لا يتفاخر عليهم وينتفخ، ويشعرهم بالضعة والمذلة. وإن أعطاهم، لا يجوز أن يعطيهم بارتفاع قلب، ولا بشعور أنه المعطى، وأنهم منه يأخذون. فهو فيما يعطى، إنما يتقاسم معهم مالاً، قد أرسله الله ليتوزع فى حب، عليه وعليهم ...

* * *



هنا ونقول : إن كان التفاخر ضد المحبة ، فكم بالأكثر التفاخر الذى يقبّح غيره .

الذى يقيم مقارنة بينه وبين غيره ، فإذا به هو الأفضل ، وغيره الأدنى ، مع ذكر مساوىء هذا الغير التى هى كذا وكذا...

إن تحقير الآخرين لا يتفق مع المحبة التى يفترض فيها أن تستر عيوب الآخرين ، لا أن تُقبحهم ، أو تشهر بهم وتظهر مساوئهم ...

بل المحبة بالأكثر تدافع عن الغير ، لا أن تذمه .

عندما تزوج موسى بإمرأة كوشية ، تكلم ضده هرون ومريم أخواه ، ولم يكن فى كلامهما عليه حب له . أما الرب الذى يحب موسى ، فقد دافع عنه ، وذكر أنه أمين على كل بيته . ووبخ هرون ومريم ، وعاقب مريم لأنها تكلمت على موسى بالسوء (عد ١٢ : ١ - ١٠) ... هذه هى المحبة التى لا تقبح .

مثال من سير القديسين : القديس أبا مقار الكبير الذى ستر على الأخ الخاطىء ، وأخفى خطيته . وكذلك القديس موسى الأسود ، والقديس بيساريون ... والشرح فى هذا الموضوع يطول ...



الفصل الخامس :

المحبة لا تطلب ما لنفسها

(١كو١٣: ٥)

المحبة لا تفكر فى ذاتها ، ولكن فيمن تحب .

تفكر فى الذى تحبه : كيف ترضيه ، وكيف تعطيه ، وكيف تريحه وتجلب السرور إلى قلبه ... وفى كل ذلك لا تطلب ما لنفسها . بل قد تبذل نفسها لأجل من تحبه ... ذلك لأنه إن كان من طبيعة الأنانية أنها تريد دائماً أن تأخذ، فإنه من صفات المحبة أنها تريد أن تعطى ...

عنصرا المحبة الرئيسيان هما أن تحب الله ، وأن تحب الناس . وفى كليهما لا تطلب المحبة ما لنفسها ...

وهكذا كانت صلاة التسبيح والتمجيد هى أقدس الصلوات . لأن الذات لا توجد فيها على الإطلاق، إنما الموجود فقط، هو التأمل فى صفات الله وحده . فنحن حينما نقول فيها مثلاً «قدوس قدوس قدوس رب الصباؤوت . السماء والأرض مملوءتان من مجدك» (أش٦: ٣)... فإننا هنا لا نطلب شيئاً لأنفسنا . إنما من أجل محبتنا لله ، نتأمل صفاته، وكفى...

* * *

إذن ما هو مركز الطلب فى حياة المحبة ؟ إنه :

الله أولاً ، والناس بعد ذلك . والذات آخر الكل ...

فنحن فى الصلاة الربانية ، إنما نطلب ما يخص الله أولاً : «ليتقدس إسمك ، ليأتِ ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض» ... وحينما نطلب بعد ذلك لأنفسنا ، إنما نطلب ما يخص علاقتنا بالله . فكأن الله أولاً ، ثم الله ثانياً ...

وما أجمل وصية السيد الرب لنا « اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه » (مت ٦: ٣٣)... وهل بعد ذلك نطلب ما يخصنا من أمور العالم ؟ هنا و يكمل الرب وصيته قائلاً « هذه كلها تزدادونها » أى يعطيكم الرب إياها حتى دون أن تطلبوا...

إذن إن كنت تحب الله ، لا تجعل صلاتك كلها طلباً ...

أقصد : لا تجعلها كلها طلباً لنفسك . وكما قال القديس باسيليوس الكبير « لا تبدأ صلاتك بالطلب ، لئلا يُظن أنه لولا الطلب ما كنت تصلى » ... وإن طلبت (لأنه قال : اطلبوا تجدوا) (مت ٧ : ٧) فاطلب أولاً ملكوت الله وبره... ثم اطلب أيضاً الخير للغير. ولتكن نفسك آخر الكل . فهذه هى المحبة ...

* * *

حقاً ، ما أجمل قول المرتل فى المزمور :

« ليس لنا يارب ليس لنا . لكن لاسمك القدوس إعطِ مجداً » (مز ١١٥ : ١).

إذن إن كنت تحب الله ، ففى كل خدمتك ، وفى كل ما تعمله ، لا تطلب الكرامة لنفسك . وإنما لتكن كلُ الكرامة لله . كما قال القديس يوحنا المعمدان « ينبغى أن ذلك يزيد ، وأنى أنا أنقص » (يو٣: ٣٠) . وكل الخير الذى تفعله ، ليكن ذلك لمجد الله ، إن كنت تحب الله . كما قال الرب فى العظة على الجبل « لكى يروا أعمالكم الحسنة ، فيمجدوا أباكم الذى فى السموات » (مت ٥ : ١٦) .

* * *

من أجل محبة الله ، قام الآباء والرسل برسالتهم ، ولم يطلبوا ما لأنفسهم ، بل على العكس دفعت أنفسهم الثمن ...

من أجل محبة الله ، شهد المعمدان للحق ، وقال لهيرودس الملك « لا يحق لك أن تأخذ إمرأة أخيك » (مت ١٤ : ٣، ٤) . فهل فى ذلك كان يطلب ما لنفسه ؟! كلا ، بل إن نفسه قاست بسبب ذلك ، إذ القى فى السجن ، ثم قُطعت رأسه .

وكل الشهداء والمعترفين ، لم يطلبوا ما لأنفسهم ، بل فى محبتهم لله تعرضوا لكل ألوان التعذيب ، ثم الموت أيضاً ...

وهكذا كان الكارزون . ولنأخذ القديس بولس الرسول كمثال :

وهو شاول الطرسوسى كانت له سلطة ونفوذ، و يستطيع أن «يدخل البيوت ويجر رجالاً ونساءً، ويسلمهم إلى السجن» (أع٨: ٣). ولكنه لما دخل إلى الإيمان، وخسر كل الأشياء وهو يحسبها نفاية لكى يربح المسيح و يوجد فيه (فى٣: ٨، ٩)، حينئذ ـ فى محبته للرب ـ ما كان يطلب مطلقاً ما لنفسه. بل صار هو يحتمل السجن والهوان.. جلدوه خمس مرات، وثلاث مرات ضُرب بالعصى. وهو يخدم الرب و يقول عن خدمته هو وكل معاونيه «فى كل شيء نظهر أنفسنا كخدام الله، فى صبر كثير... فى شدائد فى ضرورات، فى ضيقات فى ضربات، فى سجون فى اضطرابات فى أتعاب، فى أسهار فى أصوام...» (٢كو٦: ٤، ٥). «بأسفار مراراً كثيرة، بأخطار سيول، بأخطار لصوص، بأخطار فى المدينة، بأخطار فى البرية، بأخطار فى البحر، بأخطار من أخوة كذبة... فى تعب وكد، فى جوع وعطش، فى برد وعرى» (٢كو١٢: ٢٤-٢٧).. ولماذا كل هذا العناء؟ إنه من أجل محبة الله، ومحبة ملكوته وإنجيله. والمحبة لا تطلب ما لنفسها...

إنه لم يطلب ما لنفسه ، لأن نفسه قد ماتت مع المسيح (٢كو٤: ١١، ١٢). وهكذا يقول «مع المسيح صُلبت، لأحيا لا أنا بل المسيح الذى يحيا فىّ» (غل٢: ٢٠).

* * *

حقاً ، ما أعجب وما أعمق عبارة « أحيا ، لا أنا ... » .

إن المحب الذى لا يطلب ما لنفسه ، لا يجد تعبيراً أعمق من كلمة «لا أنا». هذه هى خدمة الحب ، التى لا تطلب لنفسها راحة ولا مجداً. خدمة الذى لا يعطى لعينيه نوماً ، ولا لأجفانه نعاساً ، إلى أن يجد موضعاً للرب (مز١٣٢: ٤).

إنها خدمة الذى يجد متعة فى أتعاب الخدمة ، وليس فى أمجاد الخدمة! الذى لا يبحث فى الخدمة عن ذاته، فى مجال الرئاسة أو السلطة أو الظهور... وهكذا فإن الخدام الذين فشلوا ، هم الذين اهتموا بذواتهم أكثر من اهتمامهم بالملكوت...

وعبارة (لا أنا) ، يمكن أن تطلق فى الروحيات الخاصة :

فالذى يحب الله ، يقول له « لتكن لا مشيئتى بل مشيئتك. أنا لست أطلب شيئاً

لذاتى، بل أسلّمها تسليماً كاملاً ليديك، وأنساها هناك، ولا أطلب إلاك أنت، وليس سواك ... ولهذا قال السيد المسيح «إن أراد أحد أن يأتى ورائى، فلينكر نفسه ويحمل صليبه و يتبعنى» (مت١٦: ٢٤). وإنكار الذات يعنى أنه لا يطلب ما لنفسه.

* * *

إن الذات هى أكثر ما يضر الإنسان.

لا يضره العالم ولا المادة، ولا الجسد، ولا الشيطان، بقدر ما تضره ذاته، إن كان يطلب فى كل حين ما يرضيها إن كانت هذه الذّات، كلما تطلب ما لنفسها تبعده عن محبة الله. وهكذا لخص السيد الرب كل حياتنا على الأرض فى عبارة واحدة خالدة، قال فيها:

« من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلى يجدها » (مت ١٠: ٣٩). إن كان الإنسان يطلب ما لنفسه، فإنه يضيعها. لأنه يركز حول الذات، وليس حول الله ومحبته.

* * *

ولننظر إلى آبائنا الرهبان والنساك.

الذين سكنوا الجبال والبرارى وشقوق الأرض، من أجل عظم محبتهم للملك المسيح ... إنهم لم يطلبوا أبداً ما لأنفسهم. بل تركوا المال والأهل والوظائف وكل المتع الأرضية. وعاشوا منسيين، بلا طعام بلا راحة، لا يطلبون سوى الله، الذى صار لهم هو الكل فى الكل...

هؤلاء الرهبان، صلّت عليهم الكنيسة صلاة أموات، لأنهم ماتوا عن العالم وكل ما فيه. وما عادوا يطلبون منه شيئاً لأنفسهم. أتراهم ضيعوا أنفسهم، أم وجدوها ...!

ولكن لماذا نتكلم عن الرهبان وحدهم، فلنتكلم أيضاً عن الذين عاشوا فى رفاهية العالم، ولكن لأجل محبة الله تركوا كل شىء.

* * *

موسى النبى لم يطلب ما لنفسه، بل يبدو أنه أضاعها.

كان أميراً وقائداً « ابن ابنة فرعون » وكانت أمامه كل خزائن فرعون. ومع ذلك

«فضل أن يذل مع شعب الله، عن أن يكون له تمتع وقتى بالخطية» (عب ١١).
وماذا كانت تلك الخطية سوى تمتعه بحياة القصر، وشعبه مرهق بالعبودية!

لذلك ترك كل شيء، القصر، والإمارة، والعظمة، والمال، ولم يطلب لنفسه شيئاً. لذلك رفع الله موسى وجعله سيداً لفرعون.

مثال آخر هو إبراهيم أبو الآباء.

قال له الرب «أترك أهلك وعشيرتك وبيت أبيك، واذهب إلى الجبل الذى أريك» (فلم يطلب لنفسه أهلاً ولا وطناً، إنما طلب طاعة الرب وحده. ثم قال له الرب «خذ ابنك وحيدك، الذى تحبه نفسك، اسحق، وقدمه لى محرقة على الجبل الذى أريك إياه»! ومرة أخرى لم يطلب إبراهيم ما لنفسه، ولو كان إبنه الوحيد، وأخذ ابنه ليذبحه... تكفيه محبة الله التى تسعد نفسه....

* * *

فلنتناول أيضاً هذه الوصية «المحبة لا تطلب ما لنفسها» فى الحياة الاجتماعية، وحياة الأسرة الواحدة.

تعيش الأسرة سعيدة، إن كان الزوج لا يطلب ما لنفسه، طاعة وسيطرة، إنما يطلب سعادة زوجته وأولاده، معتبراً أن هذه هى رسالته فى حياته الزوجية. وكذلك الزوجة إن اعتبرت رسالتها أن تسعد هذا الزوج، دون أن تطلب ما لنفسها مالاً ورفاهية وحرية. كذلك إن جعلت رسالتها أن تتعب من أجل راحة أولادها. وكذلك أيضاً الأبناء إن كانوا فى محبتهم للأب والأم لا يرهقانهما بكثرة الطلبات، ولا بالمخالفة. ولا يطلبون ما لأنفسهم إلا فى حدود قدرة الأسرة...

* * *

وفى الحياة الاجتماعية: الذى لا يطلب ما لنفسه، يقدم غيره فى الكرامة، ويتخذ المتكأ الأخير.

كما قال القديس بولس الرسول «مقدمين بعضكم بعضاً فى الكرامة» (رو١٢: ١٠). ليس فقط تنفيذاً لوصية الإتضاع، بل بالأكثر عن حب. إذ يحب غيره ويفضله على نفسه، فيقدمه فى الكرامة على نفسه، ويسعد إذ يجده مكرماً...

وإذ يأخذ المتكأ الأخير (لو١٤: ١٠)، إنما يسعد بأن يترك المتكآت الأولى لغيره، من أجل محبته لهم...

وفى كل ذلك، وبسبب محبته للآخرين، فإنه لا ينافس أحداً، ولا يخاصم أحداً من أجل شيء عالمى، ولا يزاحم الآخرين فى طريق الحياة، بل يترك الفرصة للغير أن يأخذ وينال ما يريد، دون أن يطلب ما لنفسه...

* * *

وتظهر وصية « المحبة لا تطلب ما لنفسها » فى مجال العطاء أيضاً.

فالذى يدفع العشور والبكور، ليس فقط ينفذ وصية الله، بل بالأكثر من أجل محبته للفقراء يفضلهم على نفسه، مهما كان محتاجاً للمال. بل أنه يدفع أكثر من هذا، بل يعطى من احتياجاته الخاصة. مثال ذلك تلك الأرملة التى أعطت من أعوازها، ووضعت فى الخزينة فلسين هما كل ما كانت تملك. ولهذا استحقت الطوبى من فم الرب، وتسجل عطاؤها فى الإنجيل (مر١٢: ٤٢- ٤٤).

هكذا أرملة صرفة صيدا، التى لم تطلب ما لنفسها فى وقت المجاعة. وأعطت كل ما عندها من زيت ودقيق لإيليا النبى (١مل١٧) فاستحقت بذلك أن يباركها الرب ويبارك خيراتها طول زمن المجاعة.

فى العطاء والبذل، لا يطلب الإنسان ما لنفسه، بل إنه يبذل كل شيء حتى نفسه، ويعطى غير ناظر مطلقاً إلى احتياجاته الخاصة. لأنه فى محبته للغير، يركز كل اهتمامه على احتياج الغير، وليس على ما يطلبه هو لنفسه. لذلك فهو يعطى ليس فقط من ماله، بل راحته أيضاً وصحته...

* * *

انظروا إلى السيد المسيح، وكيف أنه لم يطلب ما لنفسه.

بل من أجل محبته للبشر « أخلى ذاته، وأخذ شكل العبد » (فى ٢: ٧). وابتعد عن كل مجد عالمى. ولم يكن له أين يسند رأسه (لو٩: ٥٨). وكذلك لم يطلب ما لنفسه، حينما انحنى وغسل أرجل تلاميذه (يو١٣)، وحينما بذل ظهره للسياط، ثم صعد على الصليب، ولم يدافع عن نفسه. وبذل حياته عنا، البار لأجل الأثمة... « وبيّن محبته لنا. لأنه ونحن بعد خطاة مات لأجلنا » (رو٥: ٨).

والمحبة التي لا تطلب ما لنفسها ، تحتمل وتغفر .

ولكنى أود أن أؤجل هذه النقطة إلى موضع آخر. حيث أن الحديث عنها قد يطول ، وليس مجاله الآن. و يكفى أن الإنسان الذى يحب ، يمكنه فى محبته لغيره أن يتنازل عن حقوقه ، وأن يحتمل و يغفر...

* * *

الذى يحب ، لا يطلب ما لنفسه .

والذى لا يطلب ما لنفسه ، يستطيع أن يحب .

فإن كنت لا تطلب ما لنفسك ، يمكنك أن تتعب من أجل الله والناس... تتعب فى الصلاة، فى الصوم، فى السهر، فى الخدمة. لأنك لا تفكر فى راحتك وصحتك ، إنما تفكر فى الله وملكوته ، وتفكر فى خير الناس وخلاصهم... وهكذا تحب الله والناس ، ويحبك الله والناس. لأنك لا تقول : ذاتى وصحتى وراحتى. إنما تقول ملكوتك يارب ، وكنيستك وشعبك. بل تقول محبتك يارب وعشرتك قبل كل شيء...

* * *

بقى أن نقول نقطة ختامية وهى :

إن الذى يطلب ما لنفسه ، إنما يضيّع نفسه .

كالرجل الغنى الغبى ، الذى قال «أهدم مخازنى وأبنى أعظم منها... وأقول لكِ يا نفسى خيرات كثيرة لسنوات عديدة»... هذا الغبى ضيع نفسه. وقال له الصوت الإلهى: فى هذه الليلة تؤخذ روحك منك، فالذى أعددته لمن يكون ؟!» (لو١٢: ١٨- ٢٠).

كذلك داود النبى ، لما طلب المتعة لنفسه ، أضاع نفسه ، لولا رحمة الله التى اقتادته إلى التوبة، مع عقوبة شديدة فرضت عليه (٢صم ١١، ١٢).

* * *

الفصل السادس :

المحبة لا تحتد، ولا تظن السوء ولا تفرح بالإثم، بل تفرح بالحق



المحبة لا تحتد

الذى يحب ، لا يحتد على من يحبه . أى لا يغضب عليه ، ولا يثور، ولا يعامله بحدة ، أى بشدة وعنف . بل على العكس يعامله بوداعة ، و بحب ، وطيبة قلب .

وحسناً قال القديس بولس الرسول عن المحبة إنها لا تحتد ، بل قوله إنها لا تطلب ما لنفسها .

فطبيعى أن الذى يطلب ما لنفسه ، لا يحتد . إنما يحتد الذى يطلب لنفسه كرامة ومعاملة خاصة ، ولا يجد ذلك . ويحتد الذى يطلب لنفسه طاعة وخضوعاً ، ولا يُعامل هكذا . أما إن كان لا يطلب لنفسه شيئاً من هذا كله وأمثاله ، فطبيعى أنه لا يحتد .

* * *

كذلك فإن الاحتداد لا يتفق مع الصفات الأخرى للمحبة :

فمادامت المحبة « تتأنى وتترفق » ، فإنها بالتالى لا تحتد . لأن الحدة ضد الرفق . والذى يتأنى و يطيل أناته ، فإنه لا يحتد . مادامت المحبة « لا تنتفخ ولا تتفاخر » فطبيعى أنها لا تحتد . كذلك مادامت المحبة « لا تقبح » فإنها لا تحتد . لأن الإنسان يحتد بسبب ما يراه قبيحاً أمامه . كذلك مادامت « تصدق كل شيء ، وتصبر على كل شيء » فإنها لا تحتد . لأن الحدة لا تتفق مع الصبر . ومادامت تصدق من تحبه ، فلماذا إذن تحتد عليه ؟!

وهكذا نجد أن صفات المحبة تتفق مع بعضها البعض ...

والإنسان بطبيعته قد يحتد على عدو، أو على مخالف ومعارض، أو على مقاوم أو عنيد. ولكنه لا يحتد على حبيب. حتى إن أخطأ، يميل إلى مسامحته والتغاضى عن أخطائه. وكما يقول المثل العامى «حبيبك يبلع لك الظلط» أو كما يقول الشاعر عن نفس هذا المعنى:

عين الـرضـا عـن كـل عـيـب كـلـيـلـةٌ
ولـكـن عين الـسـخـط تـبـدى الـمـساويـا

* * *

وأعظم مثل للمحبة التي لا تحتد، الله تبارك إسمه.

الله مثل للمحبة التى لا تحتد، الذى قيل عنه فى المزمور إنه «لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا» بل أنه «كبعد المشرق عن المغرب، أبعد عنا معاصينا» (مز١٠٣: ١٠، ١٢)...

الله الذى قال عنه يوئيل النبى إنه «رؤوف رحيم، بطىء الغضب وكثير الرأفة» (يوء٢: ١٣). وقال عنه يونان النبى إنه «بطىء الغضب كثير الرحمة» (يون٤: ٢)... وهكذا قال أيضاً داود إنه (رؤوف وطويل الروح وكثير الرحمة» (مز١٠٣: ٨).

* * *

إنه الله الذى لم يحتد على أحباء كلموه بأسلوب يبدو شديداً.

لم يحتد على حبيبه ابراهيم حينما قال له «حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر تميت البار مع الأثيم... حاشا لك. أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً؟!» (تك١٨: ٢٥).

بل لم يحتد أيضاً على حبيبه أيوب حينما قال له «لا تستذنبنى. فهمنى لماذا تخاصمنى؟ أحسن عندك أن تظلم؟! أن ترذل عمل يديك، وتشرق على مشورة الأشرار» (أى١٠: ٢، ٣) «كف عنى، فأبتلج قليلاً» (أى١٠: ٢٠) «ماذا أفعل لك يا رقيب الناس. لماذا جعلتنى عاثوراً لنفسك» (أى٧: ٢٠).

ولم يحتد الرب أيضاً على حبيبه موسى حينما قال له «ارجع يارب عن حمو غضبك، اندم على الشر» (خر٣٢: ١٢). إنما استجاب له ولم يفن الشعب فى عبادته

للعجل الذهبى.

* * *

ولم يحتد الرب على أحباء له وقعوا فى أخطاء شديدة :

لم يحتد على تلميذه بطرس الذى أنكره ثلاث مرات، بل كلمه بلطف بعد القيامة، ورفع روحه المعنوية بقوله له «ارع غنمى. ارع خرافى» (يو٢١: ١٥-١٧).

ولم يحتد على تلميذه توما الشكاك الذى قال له «إن لم أبصر فى يديه أثر المسامير، وأضع أصبعى فى أثر المسامير، واضع يدى فى جنبه لا أؤمن» (يو٢٠: ٢٥). إنما ظهر له الرب، وحقق له ما أراد دون أن يحتد عليه. وقال له فى رفق «لا تكن غير مؤمن، بل مؤمناً»...

ومن قبل الصلب ، لم يحتد على التلاميذ الذين لم يستطيعوا أن يسهروا معه ساعة واحدة فى أشد الأوقات. بل فى رقة أوجد لهم عذراً بقوله «أما الروح فنشيط ، وأما الجسد فضعيف... ناموا الآن واستريحوا» (مت٢٦: ٤١، ٤٥).

فعل الرب هذا لأنه يحبهم ، والمحبة لا تحتد .

* * *

توجد أمثلة أخرى لهذه القاعدة فى حياة القديسين .

منها موسى النبى ، الذى لم يحتد على هارون ومريم لما تكلما عليه فى زواجه بالمرأة الكوشية، إذ «كان الرجل موسى حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض» (عد١٢: ٣)... بل أنه لما عاقب الرب مريم بسبب جرأتها على موسى، تشفع فيها موسى وطلب من الرب مسامحتها (عد١٢ : ١٣). هذه هى المحبة التى ليس فقط لا تحتد بل تشفع.

* * *

مثال آخر هو داود النبى فى معاملته لأبشالوم .

أبشالوم الذى خان أباه داود ، وأساء إليه ، وقاد جيشاً ضده ليستولى على ملكه... لم يحتد عليه داود، بل قال لرجال جيشه «ترفقوا بالفتى أبشالوم» (٢صم١٨: ٥).

ولما انتصر جييش داود، كان كل همه لمن بشروه بالانتصار «أسلام للفتى أبشالوم» (٢صم١٨: ٢٩، ٣٢). ولما علم بموته، بكى عليه وأبكى الشعب كله.

مثال آخر هو أبونا اسحق الذى لم يحتد على يعقوب لما خدعه.

خدع يعقوب أباه وقال له «أنا عيسو بكرك» (تك٢٧: ١٩). ونال البركة بمكر. ولما عاد عيسو، واكتشف اسحق الخدعة، لم يحتد على يعقوب، بل قال «نعم، يكون مباركاً» (تك٢٧: ٣٣)... إنها المحبة التى لا تحتد.

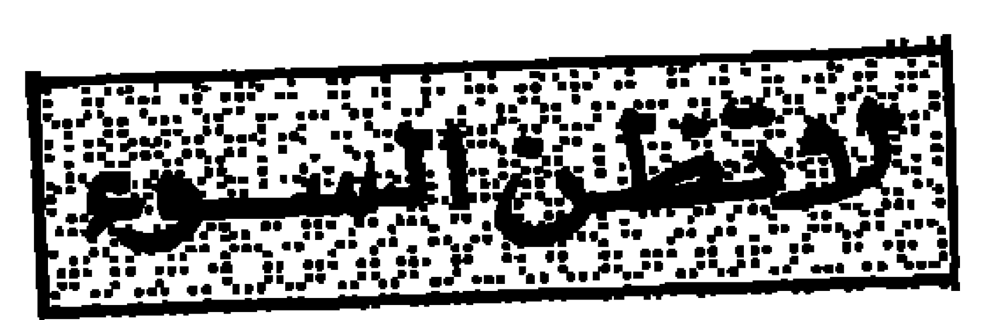
* * *

يذكرنا هذا كله وغيره بمحبة الأم لطفلها ورضيعها.

ما أكثر ألوان الإزعاج التى يسببها الرضيع لأمه بحيث لا تعرف معنى الراحة والنوم، ولكنها لا تحتد عليه لأنها تحبه. وقد خلقها الله بهذه المحبة التى لا تحتد عليه لأنها تحبه. وقد خلقها الله بهذه المحبة التى لا تحتد (بالنسبة إلى رضيعها) لكى يمكنها أن تهتم به وتربيه...

المحب لا يحتد على حبيبه، لأنه يود الاحتفاظ بمحبته.

لا يريد أن يفقد محبته، أو أن يعكر جوها بالحدة. وكذلك لأنه يحبه، فلا يريد أن يخدش شعوره بأى لون من الاحتداد. وأيضاً لأنه يأخذ كل تصرفاته بحسن نية، ولا يظن به السوء، لأن المحبة لا تظن السوء.



المحبة لا تظن السوء، فلا تحتد.

حتى فى الأخطاء الواضحة، لا ترى أن من ورائها قصداً سيئاً، ربما تعزوها إلى جهل أو عدم الفهم، أو لنية طيبة... المحبة تعيش مع من تحبه فى جو من الثقة، لا تشك فى تصرفاته ولا فى نواياه، مهما بدا التصرف غريباً.

السيد المسيح لم يفقد الثقة فى محبة تلاميذه على الرغم من أخطائهم.

ناموا فى بستان جثسيمانى وقت جهاده. وهربوا وقت القبض عليه، واختفوا فى

العلية خائفين من اليهود. وشكوا في قيامته. ولم يصدقوا المجدلية ولا تلميذى عمواس (مر١٦: ٩- ١٢). كذلك لما تحدث النسوة عن القيامة «تراءى كلامهن لهم كالهذيان، ولم يصدقوهن» (لو٢٤: ١١). وعلى الرغم من كل ذلك بقيت محبة السيد الرب لهم كما هي. ولم يحط اخلاصهم بشيء من سوء الظن، حسبما يحكم الآخرون...! (طبعاً بالنسبة للسيد المسيح لا نستعمل عبارة الظن، لأن كل معرفته يقينية. لكن نقول إن ثقته فيهم بقيت كما هي، على الرغم من سوء موقفهم وكثرة أخاطئهم).

ونحن في علاقتنا مع الرب نفعل هكذا.

مهما أصابتنا التجارب والضيقات والأحزان من كل ناحية، لا نشك في محبة الله لنا، ولا نظن السوء كأن الله قد تخلى عنا، بل نقول في ثقة «كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله» (رو٨: ٢٨). جاعلين أمامنا قول القديس يعقوب الرسول «احسبوه كل فرح يا اخوتي، حينما تقعون في تجارب متنوعة» (يع ١: ٢).

وبالمثل في علاقتنا مع الآباء الروحيين والجسديين.

لا نظن السوء في أي أمر منهم أو أي تصرف، مهما بدا لنا غريباً. إنما نقول لعل هناك حكمة وراء ذلك لا ندركها الآن. وهكذا نفعل مع اخوتنا ومع زملائنا في الخدمة، لأن المحبة لا تظن السوء.

وبهذا المبدأ يسود السلام في الأسرة وفي المجتمع.

لأن ظن السوء ، بالإضافة إلى كونه ضد المحبة والثقة، فإنه يشيع الشك والتخوف، مما يسبب تفكك العلاقات، وعدم القدرة على التعاون، وكذلك عدم تصديق أية كلمة، والشك في أي تصرف، كما قد يحمل لوناً من الظلم للآخرين وقد يكونون أبرياء.

عدم السوء، وهو من صفات المحبة، يعطي شعوراً بالأمان والاطمئنان.

ننتقل إلى صفة أخرى من صفات المحبة وهي:

المحبة لا تفرح بالإثم، بل تفرح بالحق.

لا تفرح بالإثم

إن العدو الذى يشمت فى عدوه، و يفرح بما يحل به من ظلم، أو ما يرتكبه من إثم يسىء إليه . ولكن المحب ليس هكذا . إنه يعامل حتى العدو بمحبة حسب وصية الرب « أحبوا أعداءكم » (مت ٥ : ٤٤) . و يضع أمامه قول الكتاب :

« لا تفرح بسقوط عدوك ، ولا يبتهج قلبك إذا عثر» (أم ٢٤ : ١٧) .

وإن يعقوب لم يفرح ، لما انتقم شمعون ولاوى من شكيم لما أذل اختهما دينة ، وقال لهما « كدرتمانى » (تك ٣٤ : ٣٠) . وداود النبى لم يسرّ بن بشره بموت أبشالوم ، بل بكى (٢صم ١٨) ... عموماً الشماتة شىء ردىء .

على أن عبارة « المحبة لا تفرح بالإثم » ، توجد فى بعض الترجمات هكذا « المحبة لا تفرح بالظلم » .

فإن تعرض عدوك لظلم ، لا تفرح بهذا ، لأنه شماته .

لئلا يرى الرب ذلك فيستاء . بل إن استطعت أن تنقذ عدوك إذا سقط ، يكون هذا نبلاً منك ومحبة ... إن السامرى الصالح ، لما رأى يهودياً من أعداء جنسه ، وقد اعتدى عليه اللصوص وتركوه بين حىّ وميت ، لم يفرح بأذيته ولا بالظلم الذى وقع عليه ، بل فى محبة عالجه وأنقذه (لو ١٠ : ٢٣) .

المحبة تفرح بالحق ، لأنه يوافق مشيئة الله .

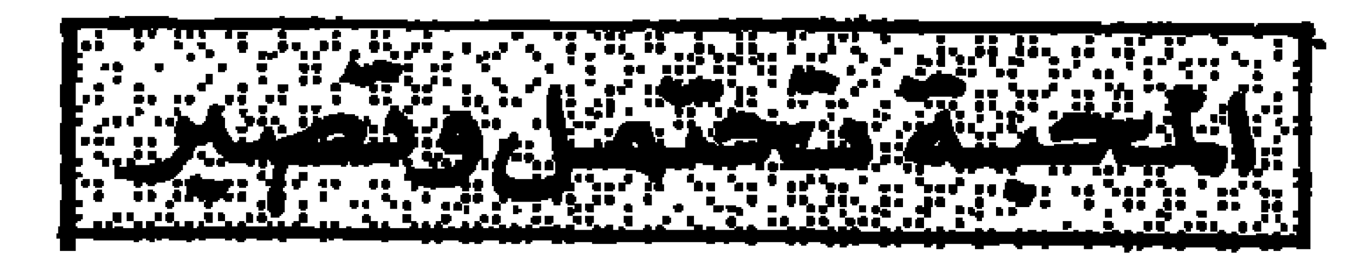
لذلك سرّها أن كل إنسان ينال حقه ، ولا يحيق به ظلم ، حتى إن كان عدواً لذلك فالإنسان المحب يدافع عن المظلومين ، ولو كانوا من خصومه أو مقاوميه .

ويمكن أن نأخذ هذه الوصية من جهة محبتنا لله .

فإذا نحن أحببنا الله ، لا نفرح بالإثم ، بل نفرح بالحق . لأن الإثم عداوة لله الذى نحبه . والحق هو الله . وقد قال الرب « وتعرفون الحق والحق يحرركم » (يو ٨ : ٣٢) . ففى محبتنا لله ، لابد أن نلتصق بالحق . ولذلك فإن الذى يدافع عن الباطل ، ولو باسم الشفقة ، هو بعيد عن الحق ، و بالتالى هو بعيد عن الله ...

الفصل السابع

المحبة تحتمل كل شيء وتصبر على كل شيء (١كو ١٣: ٧)



المحبة تحتمل وتصبر

لست أريد فى هذا المقال أن أحدثكم عن الاحتمال بصفة عامة. فالاحتمال موضوع طويل، وله أسباب عديدة. فهناك من يحتمل بسبب الوداعة والهدوء. وهناك من يحتمل بسبب إتضاع قلبه، أو بسبب الحكمة ويتجنب عواقب الأمور. أو لأسباب أخرى. ولكن موضوعنا الآن هو الاحتمال بسبب المحبة... المحبة التى تحتمل كل شيء...

* * *

الذى يحب شخصاً، يكون مستعداً أن يحتمل منه، وأن يحتمل من أجله.

أبونا يعقوب أبو الآباء احتمل الكثير من أجل محبته لراحيل. أحتمل أباها، الذى غيّر أجرته عشر مرات، واحتمل سنوات طويلة يخدمه فيها، قال عنها «كنت فى النهار يأكلنى الحرّ، وفى الليل الجليد. وطار نومى من عينىّ» (تك ٣١: ٤٠). ويقول الكتاب «فخدم يعقوب براحيل سبع سنين. وكانت فى عينيه كأيام قليلة، بسبب محبته لها» (تك ٢٩: ٢٠).

أيضاً يوناثان احتمل كثيراً من أجل محبته لداود.

احتمل غضب أبيه الملك شاول، وتوبيخه له بكلام قاس بسبب دفاعه عن داود، حتى أن شاول ألقى رمحه نحو يوناثان ليقتله (١صم ٢٠: ٣٠، ٣٣).

* * *

ومن أمثلة المحبة التى تحتمل، أحتمال الشهداء والنساك من أجل محبتهم لله. وكذلك أيضاً الأنبياء والرسل.

الشهداء احتملوا السجن والعذابات التى لا تطاق، ثابتين فى محبة الله، رافضين أن ينكروه إلى أن قطعت رقابهم. ومن أجل محبة الله، احتمل الثلاثة فتية القاءهم فى أتون النار، واحتمل دانيال أن يُلقى فى جب الأسود (دا٣، ٦).

ومن أجل محبة الله، احتمل الرهبان والسّواح والنساك أن يعيشوا فى البرارى والقفار وشقوق الأرض، بعيداً عن كل عزاء بشرى، فى شظف الحياة زاهدين فى كل شىء.

ومن أجل محبة الله ونشر ملكوته، احتمل الرسل ألواناً من الأتعاب فى كرازتهم «فى صبر كثير، فى شدائد فى ضرورات فى ضيقات، فى ضربات فى سجون، فى اضطرابات فى أتعاب، فى أسهار فى أصوام...» (٢كو٦: ٤، ٥).

* * *

ومن أمثلة المحبة التى تحتمل، محبة الأمومة والأبوة.

محبة الأم التى تحتمل متاعب الحمل والولادة والرضاعة، ومتاعب الصبر فى تربية الطفل والعناية به، فى غذائه وفى نظافته، وفى الاهتمام بصحته، وفى تعليمه النطق والكلام، وفى الصبر على صراخه وصياحه وعناده... إلى أن يكبر.

وكذلك تعب الأب فى تربية أبنائه، واحتمال مشقة العمل بكافة الطرق للإنفاق عليهم وتوفير كافة احتياجاتهم.

* * *

ومن أمثلة المحبة التى تحتمل، محبة الجنود لوطنهم.

فمن أجل وطنهم الذى يحبونه، يحتملون مشاق التدريب والحرب، والتعرض للموت أو للإصابة، وربما يحتملون فقد بعض أعضائهم، مع جروح أو تشوهات.

ونفس الوضع نقول على ما يتحمله الشرطة لحفظ الأمن.

كل هذا عن المحبة من أجل الغير، المحبة التى لا تطلب ما لنفسها، وإنما ما للغير... أيضاً كمثال رجال المطافى، وفرق الإنقاذ على تنوع تخصصاتها...

* * *

ننتقل إلى الحديث عن محبة الغير واحتمال تصرفاتهم .

المحبة التى تحتمل الغير وتغفر له ، والتى تحوّل الخد الآخر لمن يضرب اللطمة الأولى . المحبة التى تحتمل الاساءة ، ولا ترد بالمثل ... والمحبة لا تشكو من المسىء ولا تشهر به ... وتنسى الإساءة ، ولا تخزنها فى ذاكرتها - كما يفعل البعض - لشهور وسنوات ... المحبة التى لا تقول : هذه حقوقى وهذه كرامتى .

المحبة التى تحتمل ، هى محبة صاحب القلب الكبير الواسع .

* * *

القلب الذى يحتمل العتاب ولا يتضايق . وكما قال أليفاز التيمانى « إن إمتحن أحد كلمة معك ، فهل تستاء » (أى ٤ : ٢) ... تحتمل العتاب ، حتى لو كان بكلمة صعبة . وتحتمل حتى الفكاهة ولو كانت باسلوب يبدو فيه التهكم ...

على أن يكون الإحتمال فى غير ضجر ولا تذمر ولا ضيق .

بل بصدر رحب ، وروح طيبة ، غير متمركز حول ذاته وحول كرامته . إن صفات المحبة التى ذكرها القديس بولس الرسول تترابط معاً . فطبيعى أن المحبة التى لا تطلب ما لنفسها ، سوف لا تطلب كرامة لذاتها ، وبالتالى ستحتمل كل شىء . كذلك فإن المحبة التى لا تحتد ، سوف تحتمل . وأيضاً التى لا تتفاخر سوف تحتمل ...

* * *

بعض الناس لا يحتملون الذين لا يفهمونهم .

ومن هنا كانت مشكلة الأذكياء مع الجهلاء أو الأقل فهماً ، أو مع الطبقات الجاهلة . لذلك يبعد مثل هؤلاء عن كثير من الناس . وقد لا يحتمل الواحد منهم طول الوقت فى إقناع غيره ، فيبعد عنه . ولو كان فى قلبه حب نحوه لأطال أناته عليه ، لأن « المحبة تتأنى » . وأيضاً كان يصبر لأن المحبة تصبر . وهكذا يضم إليه هذا الجاهل ويحتمله ، ويرجو منه خيراً . وهكذا مع الأطفال ...

* * *

القلب الضيق الخالى من الحب ، هو الذى لا يحتمل الآخرين :

وهكذا قال بولس الرسول لأهل كورنثوس « فمنا مفتوح إليكم أيها الكورنثيون . قلبنا متسع . لستم متضيقين فينا ، بل متضيقين فى أحشائكم ... لذلك أقول كما

لأولادى : كونوا أنتم أيضاً متسعين » (٢كو٦ : ١٢، ١٣).

القلب المتسع يستطيع أن يحتمل الناس .

كن إذن متسع فى قلبك وفى صدرك وفى فهمك . ولا تتضايق بسرعة . واعرف أن المجتمع فيه أنواع متعددة من الناس . وليسوا جميعاً من النوع الذى تريده . يوجد فيهم كثيرون لم يصلوا بعد إلى المستوى المثالى ، ولا إلى المستوى المتوسط . وعلينا أن نحبهم جميعاً . وبالمحبة ننزل إلى مستواهم لنرفعهم إلى مستوى أعلى . نتأنى ونترفق عليهم ، ونحتمل كل ما يصدر من جهالاتهم ، ونصبر عليهم حتى يصلوا...

* * *

لا تقل « الناس متعبون » بل بمحبتك تعامل معهم ، وحاول أن تصلح من طباعهم .

ولو كنت لا تتعامل إلا مع المثاليين ، فعليك أن تبحث عن عالم آخر تعيش فيه .

فى إحدى المرات قال لى شخص «أنا لم أعد أحتمل (فلان) اطلاقاً... إنه شخص لا يطاق لا يمكن احتماله» !! فقلت له «وكيف إذن احتمله الله منذ ولادته حتى الآن ؟! وكيف احتمل غيره وأمثاله منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا ؟! حقاً إن هذا لعجباً» !

* * *

وقال لى آخر : (فلان) يقول الكلمة ويرجع عنها. فكيف يمكن أن أعاشره. إن عشرته لا تحتمل.

فقلت له . وكم مرة تعهدنا لله بشىء ، ورجعنا فى كل تعهداتنا ؟! وكم مرة وعدناه ولم نف بوعودنا ، واحتملنا !!

كم مرة فرعون وعد أن يطلق الشعب إن رُفعت عنه الضربة . ويرفع الله الضربة ، ولا يفى فرعون بوعده. ثم يعود الله فيحتمله فى وعد آخر!! (خر٨- ١٠) . بينما الله كان يعرف مسبقاً أن فرعون سوف لا يفى بوعوده .

* * *

وما لنا فرعون . كم مرة نذرنا لله ولم نف . وكان الله يعرف ذلك . ومع ذلك حقق لنا ما نطلبه فى نذرنا !!

فإن كان الله يحتملنا فى كل هذا، فلماذا لا نحتمل غيرنا ؟!

وكم مرة قدمنا لله توبة كاذبة . وكان الله يقبل اعترافنا وتوبتنا، ويسمح لنا بالتناول من الأسرار المقدسة . ثم نعود إلى خطايانا السابقة !! ويحتملنا الله ويطيل أناته علينا، حتى نتوب مرة أخرى...

كم مرة يأتى موعد الصلاة، فتقول ليس لدينا وقت نصلى فيه . يقول التراب والرماد للخالق العظيم : ليس لدى وقت اكلمك !! ويحتمل الله عبده... وكأنه يقول له : إن وجدت وقتاً افتكرنى !

* * *

حقاً ليتنا نتعلم دروساً من معاملة الله ونحتمل الناس .

نحتملهم كما يحتملنا الله . ونحتملهم كى يحتملنا الله . لأنه يقول «بالكيل الذى به تكيلون، يكال لكم ويزاد» (مت ٧: ٢) (مر ٤: ٢٤).

بل تذكر كيف احتمل الرب عذابات الصليب والإهانات السابقة للصليب، والتحديات المصاحبة للصليب التى تقول «لو كنت ابن الله انزل عن الصليب، وخلص نفسك» (مت ٢٦؛ مر ١٥). ولكنه احتمل الاستهزاء ولم ينزل، بسبب محبته لنا، لكى يخلصنا . ونحن نقول له فى القداس الإلهى :

«احتملت ظلم الأشرار» وأحب أن أضيف إليها : واحتملت ضعف الأبرار.

احتمل ظلم الأشرار الذين صلبوه، واحتمل ضعف الأبرار الذين هربوا وتركوه . احتمل من أنكره، ومن شك فيه . ومن قال لا اؤمن إن لم أضع اصبعى موضع المسامير... حقاً إن المحبة تحتمل كل شىء .

إن المسيح على الصليب احتمل وحمل . احتمل كل التعييرات والعذابات، وحمل جميع خطايا الناس منذ بدء الخليقة إلى آخر الدهور. فليتنا نحتمل نحن أيضاً أخطاء المسيئين إلينا، ونحتملها فى حب .

هذا كله من جهة الناس . فماذا عن العلاقة بالله ؟

* * *

الذى يحب الله ، لا يتضايق من انتظار الرب ، بل يحتمل .

قد يصلى ، ولا يجد أن الصلاة قد استجيبت ، فلا يشك فى محبة الله . ولا يظن أن الله قد نسيه ، بل يحتمل هذا (التأخر) فى الاستجابة ، أو ما يظنه تأخراً ! لأن الله يعمل دائماً فى الوقت المناسب ، حسب حكمته ...

لذلك ما أعجب أبانا ابراهيم ، الذى ينطبق عليه قول الرسول « المحبة تصدق كل شىء ، وترجو كل شىء ، وتصبر على كل شىء » . لقد وعده الله بنسل ، ومرّ على ذلك أكثر من عشرين عاماً ، دون أن تلد سارة . ولكن ابراهيم كان لا يزال يرجو ما وعده به الرب وصدقه ومازال يرجوه . ووُلد له الابن بعد ٢٥ عاماً من وعد الله . جميل قول المزمور :

« انتظر الرب . تقوّ وليتشدد قلبك ، وانتظر الرب » (مز٢٧ : ١٤) .

* * *

حقاً إن المحبة التى تصدق وعود الله ، تستطيع أن تصبر على كل شىء ، وترجو كل شىء ، وتنتظر الرب . وأيضاً تحتمل ، مهما طال الوقت . كما قال المرتل « انتظرت نفسى الرب ، من محرس الصبح حتى الليل » (مز١٣٠) .

القلب الواسع المحب ، يستطيع أن يصبر و ينتظر . أما القلب الضيق أو الذى محبته قليلة ، فهذا يتضجر . يريد أن يطلب الطلب ، و يناله فى التو واللحظة ...

* * *

كذلك الإنسان المحب لله يحتمل التجارب والمشاكل .

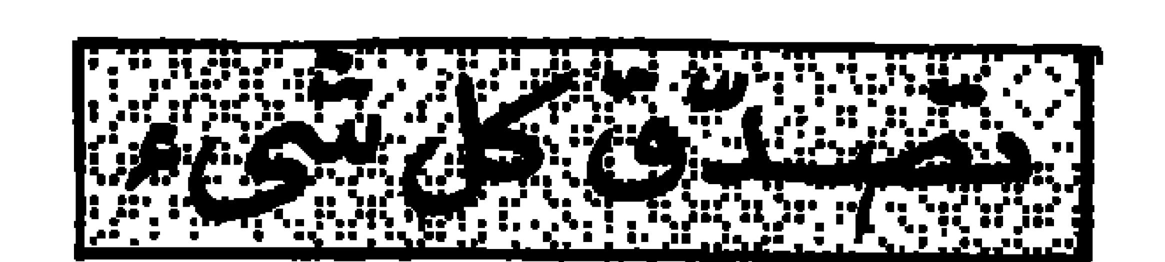
ولا تتزعزع محبته لله مهما طال وقت التجربة ، أو ازدادت حدتها . بل يقول فى ثقة « كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله » (رو٨ : ٢٨) . وكما قال القديس يعقوب الرسول « احسبوه كل فرح يا أخوتى ، حينما تقعون فى تجارب متنوعة » (يع ١ : ٢) إن المحبة تحتمل كل شىء ، فى ثقة وفى غير تذمر . ولا تتعجل حل المشكلات ، بل تنتظر الرب وتصبر . وتعطى المشكلة مدى زمنياً يحلها الله فيه ، فى الوقت الذى يراه مناسباً ، و بالطريقة التى يراها مناسبة .

* * *

والإنسان المحب لله ، يحتمل الضيقات المادية .

ويقول مع القديس بولس الرسول « قد تعلّمت أن أكون مكتفياً بما أنا فيه... تدربت أن أشبع وأن أجوع . أن استفضل وأن أنقص ... » (فى ٤ : ١١، ١٢).

« المحبة تحتمل كل شيء ، وتصدق كل شيء ، وترجو كل شيء » (١كو١٣: ٧). وقد أسهبنا فى عبارة « تحتمل ... » .



عبارة « تصدق كل شيء » يمكن ممارستها فى علاقتنا بالله .

نصدق كل مواعيده ، وكل ما ذكره الكتاب عن محبته . نصدق مجيئه فننتظره. ونصدق محبته فنبادله الحب . ونصدق كلامه فنؤمن به .

ولكن هل نستطيع أن نصدق الناس فى كل شيء .

مهما أحببنا الناس ، لا نستطيع أن نصدقهم فى كل ما يقولونه إن لم يكونوا أمناء. هوذا الرب يقول عن مجيئه الثانى «إن قال لكم أحد هوذا المسيح هنا أو هناك، فلا تصدقوا. لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ...» (مت٢٤: ٢٣، ٢٤).

يعقوب أبو الآباء صدّق أولاده فى أن وحشاً مفترساً قد افترس يوسف، وكانوا مخادعين (تك ٣٧: ٣١- ٣٥).

وحذرنا الرب حينما قال «فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم، لأن الرب إلهكم إنما يمتحنكم..» (تث١٣: ١- ٣).

* * *

المحبة تصدق ، فى الحالات الطبيعية . وفى غير ذلك فالمحبة لله أولاً، وتصدق الله أكثر من الناس.

فلا تصدقوا كل ما يتعارض مع كلام الله .

كذلك من الله « ترجو كل شيء » . وفى غير ذلك يقول الكتاب: الرجاء بالله خير من الرجاء بالإنسان... (مز١١٨).

الفصل الثامن :

المحبة لا تسقط أبداً

(١كو١٣ : ٨)



قد تسقط المحبة بين الناس إذا اصطدمت مصالحهم فيما يتنافسون عليه . أما المحبة التى «لا تطلب ما لنفسها» (١كو١٣ : ٥) ، فإنها لا تسقط أبداً . كذلك قد تسقط المحبة بين اثنين إذا احتد أحدهما على الآخر، أو قبّح سيرته أو ظن فيه السوء. أما المحبة التى لا تحتد ولا تقبّح ولا تظن السوء (١كو١٣) ، فإنها لا تسقط أبداً . المحبة الحقيقية التى وصفها الرسول هكذا ، لا تسقط . وكما قيل فى سفر النشيد :

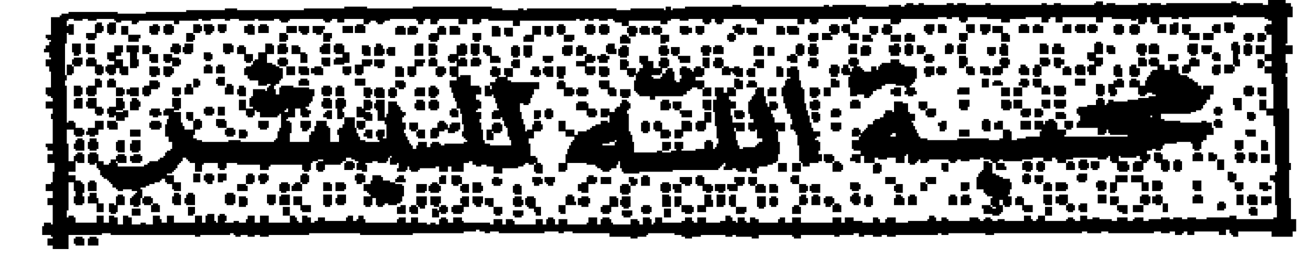
المحبة قوية كالموت ... مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفىء المحبة ، والسيول لا تغمرها» (نش ٨ : ٦ ، ٧) .

هى متقدة كالنار ، ومياه كثيرة لا تطفئها ، أى مهما حدث من تقصير، أو من إساءة ، أو من إهمال ، أو من عوائق ... لا يمكن لهذه المياه الكثيرة أن تطفىء المحبة ...

فإن كانت المحبة قوية وثابتة ، لا يمكن أن تزعزعها الأسباب الخارجية أياً كانت ، كالبيت المبنى على الصخر...

وينطبق هذا الكلام على المحبة بين الله والإنسان .

وكذلك على المحبة بين الإنسان وأخيه الإنسان .



تأملوا محبة الرب الذى أنكره بطرس وسب ولعن وقال «لا اعرف هذا الرجل» (مت ٢٦ : ٦٩- ٧٤)... بقيت محبته له كما هى لم تتأثر. وبعد القيامة ثبته فى

الرسولية، وقال له «إرع غنمى، إرع خرافى» (يو٢١)... وهكذا فعل الرب مع باقى تلاميذه الذين خافوا وهربوا وشكوا...

بل محبة الرب التى لم تتأثر بما فعله صالبوه، بل غفر لهم، وقال للآب «يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون» (لو٢٣: ٣٤). حتى قائد المائة الذى أشرف على صلبه، أنعم عليه بالإيمان، فمجد الله قائلاً: «بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً» (لو٢٣: ٤٧)... «حقاً كان هذا ابن الله» (مت٢٧: ٥٤). وكثير من الكهنة الذين سعوا لصلبه، أحبهم وجذبهم إلى الإيمان (أع٦: ٧).

* * *

ومن الأمثلة البارزة للمحبة التى لا تسقط، محبة الله للمرتدين والخطاة فى قبول توبتهم.

لم يفقدوا محبته إذ أنكروه وجحدوه. بل قبلهم إليه مرة أخرى، وهو يقول «هل مسرة أسر بموت الشرير- يقول السيد الرب-؟! إلا برجوعه عن طرقه فيحيا» (مز١٨: ٢٣). وهكذا قبل كثيراً من الخطاة، وفتح لهم باباً للتوبة، وجعل منهم قديسين... وأعطاهم اكاليل.

محبة الله لم تسقط من جهة شاول الطرسوسى الذى فى بدء حياته اضطهد الكنيسة بكل عنف، وقال عن نفسه «أنا الذى كنت قبلاً مجدفاً ومضطهداً ومفترياً» (١تى١: ١٣). ولكن محبة الرب إقتادته إلى التوبة، وجعله الرب رسولاً، ومنحه المواهب. وعملت النعمة فيه أكثر من الجميع (١كو١٥: ١٠).

* * *

ومحبة الرب التى لا تسقط شملت الشيوعيين الملحدين.

واحتملت إلحادهم ونكرانهم له أكثر من سبعين عاماً، أقتادهم بعدها إلى الاعتراف بالإيمان، وأحب الرب الأمم العاقر فى إيمانها. وجعلها توسع خيامها، ويصير أبناؤها أكثر من كنيسة الختان ذات البنين (أش ٥٤: ١-٣).

ومحبة الله لم تسقط عن الذين عبدوا العجل الذهبى.

حقيقى أنه أدبهم، لأن الذى يحبه الرب يؤدبه (عب١٢: ٦) (أم٣: ١٢).

وظلت محبته لا تتخلى عنهم. وأرسل الأنبياء ليقودوهم إلى التوبة. ثم أرسل يوحنا بن زكريا ليهيئهم له شعباً مستعداً، يدخلون فى معمودية التوبة. وصاروا هم النواة الأولى لشجرة الإيمان التى امتدت شرقاً وغرباً... حقاً ما أوسع قلب الله فى محبته، التى لا تسقط، بل تغفر للإنسان مهما أساء!! وتعطينا مثالاً حياً لوصية: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم (مت ٥: ٤٤).

* * *

انظروا إلى معاملة الله ليونان الذى هرب من وجه الرب.

لم تسقط محبته له على الرغم من عصيانه وهروبه فى سفينة إلى ترشيش. بل أعد له حوتاً عظيماً فابتلعه. واستجاب لصلاته فى جوف الحوت، وأخرجه ليبشر نينوى ويقودها إلى التوبة. ولم تسقط محبة الله لما أغتاظ يونان بسبب قبول الله لتوبة نينوى، وقوله «أغتظت بالصواب حتى الموت» (يون ٤: ٩). ولاطفه حتى أقنعه...

وعن المحبة التى لا تسقط، أعطانا الرب مثل الابن الضال.

فالآب لم تسقط محبته لابنه الذى ورثه فى حياته وترك بيته وذهب إلى كورة بعيدة وأنفق ماله فى عيش مسرف، بل قبله إليه وفرح به، وألبسه الحلة الأولى، وذبح له العجل المسمن.

* * *

إن الله قد يختبر محبتنا له: هل تسقط أم لا ...

لذلك يسمح بالضيقات أحياناً، ويرى موقف محبتنا له إزاءها. وهل نصمد أم نهتز... ولعلنى أذكر هنا مثل تلك الأم القديسة، التى احتملت فى أيام الاستشهاد أن يذبحوا أولادها على حجرها، وهى تشجعهم وتقويهم على احتمال الموت. ولم تقل لماذا يارب تسمح لى بهذه التجربة التى حسب الطبيعة لا يمكن أن يحتملها قلب أم...

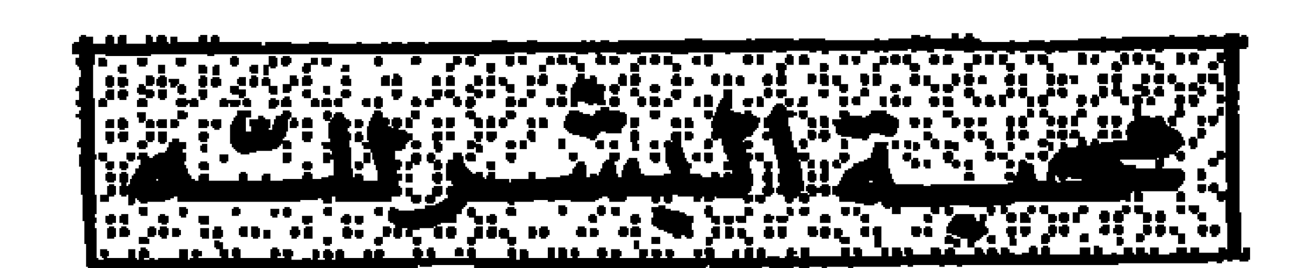
نقول هذا لتبكيت الذين إن حلّت بهم تجربة ولو بسيطة، يتذمرون، وقد يجدفون على الله. ويقولون: ما عدنا نصلى. ما عدنا نذهب إلى الكنيسة!!

خسارة أن تسقط محبتنا أمام الباب الضيق والطريق الكرب!

إن محبتنا لله يمكن أن تختبر بالضيقات. ومحبتنا للناس تختبر باحتمالنا لمعاملاتهم

أو جحودهم أو إساءاتهم ، لتعرف هل هى محبة حقيقية ثابتة لا تسقط أبداً ، أم هى غير ذلك :

انظر إلى بولس الرسول وهو يقول «من سيفصلنا عن محبة المسيح : أشدة أم ضيق أم اضطهاد ، أم جوع أم عرى ، أم خطر أم سيف ؟... ولكننا فى هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذى أحبنا ..» (رو٨ : ٣٥، ٣٧).



المحبة الحقيقية لا تسقط مهما كانت العوائق والصعاب .

إن محبة إبراهيم لله لم تسقط ، حتى عندما قال له : «خذ ابنك وحيدك الذى تحبه اسحق... واصعده محرقة على أحد الجبال ...» (تك٢٢ : ٢). بل ظلت محبة إبراهيم لله كما هى ، أكثر من محبته لابنه الوحيد .

ومحبة يوحنا الرسول للمسيح بقيت كما هى ، لم تتأثر ولم تشك ، حتى حينما رآه معلقاً على الصليب وسط جو من الاستهزاء والتحدى ، وهو ينزف دماً .

* * *

وبالمثل محبة يوسف الرامى ، الذى لم يخف من أن يطلب جسد المسيح من بيلاطس (لو٢٣ : ٥٢).

على الرغم من أن الانتساب للمسيح فى ذلك الوقت ، كان يعرض صاحبه للخطر. ولكن يوسف الرامى فى محبته ، لم يبالِ بالخطر ، بل أكثر من هذا وهب قبره الخاص الجديد لكى يدفن فيه المسيح . وقام بتكفين المسيح ودفنه بالأطياب والحنوط ، ولم يخف أن يُقال عليه أنه من تلاميذه ، فى الوقت الذى خاف فيه بطرس الرسول !

وفى ذلك الوقت ، اشترك فى تلك المحبة التى لا تسقط نيقوديموس الذى كان عضواً فى السنهدريم بينما اشتراكه فى تكفين المسيح يعرضه لخطر من جهة أعضاء ذلك المجمع الذى حكم على السيد المسيح بالموت ...

إنها المحبة التى لا تسقط بسبب العوائق ...

* * *

تذكرنا بمحبة الشهداء للرب على الرغم من التعذيب ...

ظلوا محتفظين بمحبتهم للرب وثباتهم فى الإيمان به، منتصرين على كل الصعوبات، من جهة الإغراءات الشديدة، والسجون والجلد والتعذيب والإهانات، والآلام التى لا تطاق، والإلقاء للوحوش الجائعة المفترسة.

ولكن فى كل ذلك، محبتهم لله لم تسقط أبداً... وكمثال للحب، نذكر إلقاء دانيال فى جب الأسود، والثلاثة فتية فى أتون النار...

* * *

نذكر فى هذا المجال أيضاً محبة يوليوس الأقفهصى.

كاتب سير الشهداء، الذى كان يهتم بأجساد الشهداء وتكفينها ودفنها وكتابة سيرتها، فى وقت كان فيه الاعتراف بالإيمان يعرض صاحبه للسجن والتعذيب والموت. ولكن محبة يوليوس الأقفهصى للرب ولأبنائه الشهداء، لم تسقط أبداً أمام هذا الخطر، الذى تحوّل إلى حقيقة. فأخيراً نال هذا القديس اكليل الشهادة.

* * *

كذلك المحبة التى لا تسقط، تظهر فى احتمال التجارب.

ومثال ذلك أيوب الصديق، الذى لم تهز محبته لله كل التجارب الشديدة التى تعرض لها، من جهة فقده لبنيه وبناته وكل ثروته، وفقده لصحته ومركزه وحتى احترام أصحابه له. وكان يقول «الرب أعطى، الرب أخذ، ليكن إسم الرب مباركاً» (أى ١: ٢١). وحتى حينما كلمته إمرأته، قال لها «تتكلمين كلاماً كإحدى الجاهلات. هل الخير نقبل من عند الله، والشر لا نقبل؟!» (أى ٢: ١٠). وفى كل ذلك محبته لله لم تسقط، إلى أن رفع الرب التجربة عنه. ووبخ أصحاب أيوب قائلاً: لم تقولوا فىّ الصواب كعبدى أيوب» (أى ٤٢: ٧).

* * *

وقصة يوسف الصديق أيضاً ترينا محبته لله التى لم تسقط، على الرغم من كل ما أصابه.

فمن أجل أمانته لله ورفضه للخطية بقوله «كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطىء

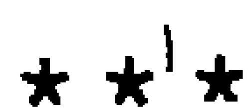
إلى الله ؟!» (تك ٣٩: ٩)... احتمل السمعة السيئة والسجن والاستمرار في حبسه سنوات، وهو الأمين في كل شيء من نحو الله والناس. ولكن محبته لله لم تسقط أبداً، ولم يتذمر قائلاً: ما هذا ؟! كيف أجازى عن الخير بالشر. إلى أن كافأه الله أخيراً، وما كان ينتظر كل تلك المكافأة.

كذلك محبته نحو اخوته لم تسقط، على الرغم من كل الشرور التي فعلوها به... فاهتم بهم في زمن المجاعة. وأسكنهم في أرض جاسان. وطمأنهم على مستقبلهم، ولم ينتقم منهم. بل بكى تأثراً لما عرّفهم بنفسه (تك ٤٥ : ٢).



ومن الأمثلة البارزة للمحبة التي لا تسقط : المحبة الطبيعية.

كمحبة الأم والأب. الأم التي مهما فعل ابنها وأخطأ، تظل على محبتها له. ومحبة الأب التي يمثلها بصورة رائعة محبة داود لابنه أبشالوم، الذي ثار عليه، وقاد جيشاً ضده ليستولي على مملكته، ودخل إلى قصره وأساء إلى سراريه (٢صم ١٥-١٨). ولكن داود بكى عليه بكل محبة (٢صم ١٨ : ٣٣). وفي هذه الواقعة يمثل أبشالوم شذوذاً في المحبة الطبيعية.



والمحبة التي لا تسقط، تظهر في المغفرة للمسيئين.

وفي ذلك نذكر سؤال بطرس الرسول للرب :

« كم مرة يخطىء إليّ أخي وأنا أغفر له ؟ هل إلى سبع مرات ؟ » فأجابه « لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات » (مت ١٨ : ٢١، ٢٢).

هذه هي المحبة التي لا تسقط أبداً، مهما كان عدد الإساءات التي تتعرض لها، حتى إلى سبعين مرة سبع مرات...! إنها تدل على القلب الواسع الذي يحتمل...

* * *

كذلك ماذا عن محبتنا لبعضنا البعض ؟

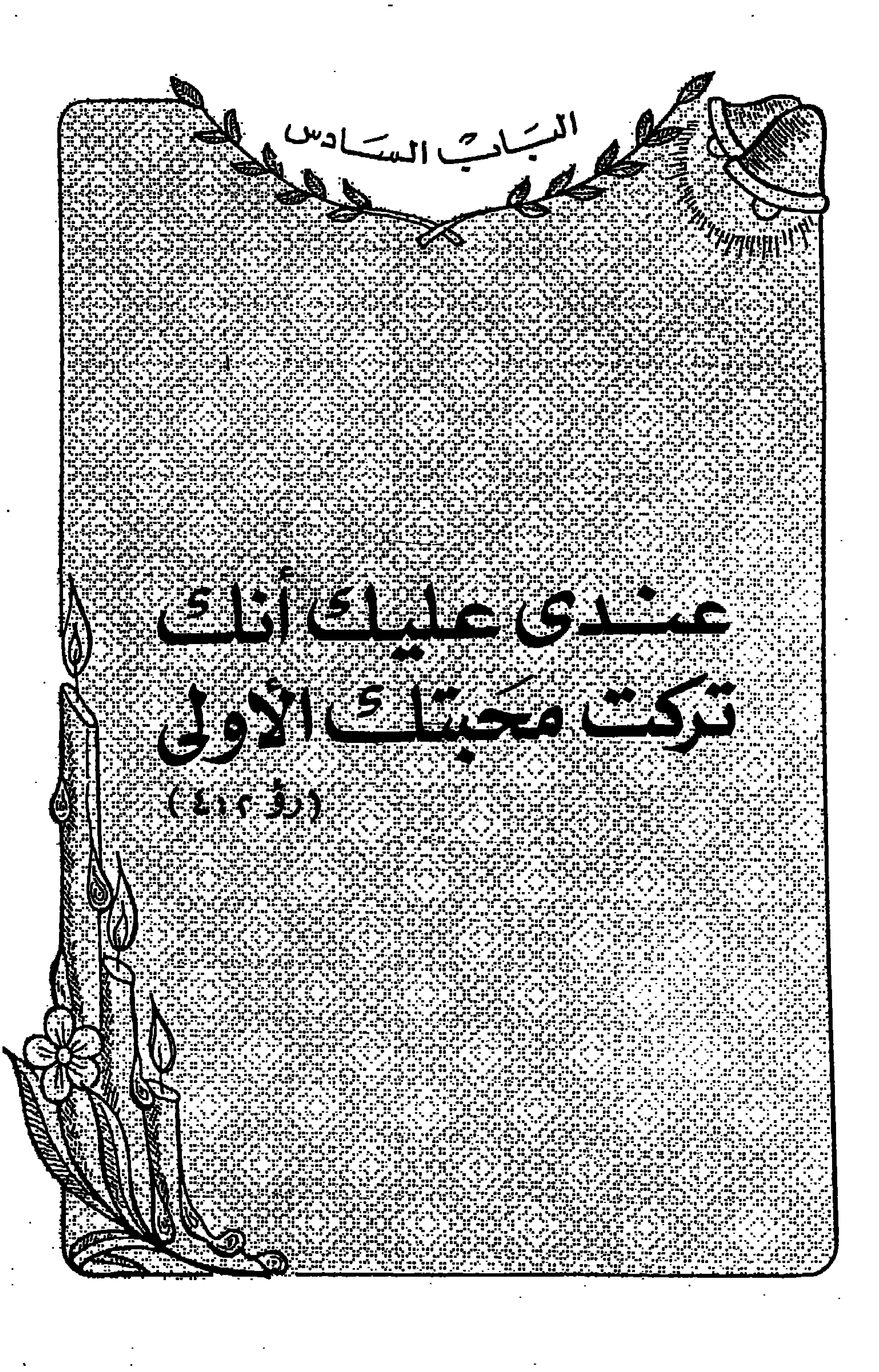
هل تصرف معين، بسببه تفك خطوبة، أو به يصل زوجان إلى محاكم الأحوال الشخصية وإلى الطلاق! وتسقط المحبة التى عاشت فى ظل الزوجية سنوات!!

وهل بتصرف معين ، يفقد الأصدقاء محبتهم القديمة، ولا تبقى أمامهم سوى الإساءة الحاضرة وليس غير؟!

ليتنا نثبت فى المحبة الحقيقية التى لا تسقط أبداً .

إلى هنا وأحب أن أنتهى من تأملاتنا فى (١كو١٣) .





الباب السادس

عندي عليك أنك تركت محبتك الأولى

(رؤ ٢ : ٤)

فى رسائل السيد المسيح إلى ملائكة الكنائس السبع ، قال :

« أكتب إلى ملاك كنيسة أفسس ... أنا عارف أعمالك وتعبك وصبرك ... وقد احتملت ولك صبر، وتعبت من أجل اسمى ولم تكل . لكن عندى عليك أنك تركت محبتك الأولى . فاذكر من أين سقطت وتب ... » (رؤ ٢ : ١ - ٥) .

عبارة « عندى عليك » تدل على أن الله يعاتب أحباءه .

ولولا أنه يحب ذلك الشخص ما كان يعاتبه ... بل كان يحمله إلى مصيره .

وهو هنا فى هذا العتاب ، يذكر لملاك أفسس أعماله الطيبة ، قبل أن يذكر ما يؤاخذه عليه ... إن الله يعاتب من كانت له محبة من قبل . ولكنها الآن قلت عن ذى قبل .

* * *

لم يذكر له أخطاء معينة ، لخصها كلها فى عبارة واحدة، أنه ترك محبته الأولى ...

يكفى أنك لم تعد تحب كما كنت من قبل . وهذه العبارة قد توجه إليك من الله أو من الناس ، من بعض أصحابك ... « عندى عليك أنك ... » أى لى شىء أعاتبك عليه . مثلما قال الرب فى العظة على الجبل « إن قدمت قربانك على المذبح، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك .. » (مت ٥ : ٢٣) أى أنه يمسك عليك شيئاً .

* * *

العجيب أن عبارة « تركت محبتك الأولى » يقولها الرب لإنسان له مكانة كبيرة جداً ...

إنه لا يقولها لشخص ضائع ، أوخاطىء ، ولا لإنسان عادى ، وإنما لملاك كنيسة ،

لشخص كائن فى يمين الرب، وله جهاد فى الكنيسة، وقد احتمل، وله صبر، وقد تعب من أجل اسم الرب ولم يكل، عجيب أن إنساناً من هذا النوع، محبته تضيع...
كل هذا يرينا أنه يجب أن نكون حريصين ومدققين، نلاحظ أنفسنا مهما كبرنا...

ونلاحظ هنا أنه يقول للملاك: اذكر من أين سقطت...

على الرغم من تعبه الكثير من أجل الله، إلا أنه يقول له «سقطت... وتب...». شيء عجيب، أن ملاكاً كهذا يحتاج إلى توبة... ليس معنى هذا أنه ارتد!! كلا. ولكن مجرد تركه لمحبته الأولى، اعتبر سقوطاً.

* * *

عبارة محبتك الأولى، تعنى أنه بدأ علاقته مع الله بداية طيبة.

كان له حب، ولكنه لم يستمر. والله هنا لا يدعوه إلى أن يتعلم الحب فى حياته، إنما يدعوه أن يرجع إلى المحبة التى كانت له من قبل...

حقاً، كم من إنسان بدأ التوبة بحرارة شديدة جداً، ولكنه بمرور الوقت فقد حرارته. ويبحث عنها الآن فلا يجدها. أو أنه بدأ الخدمة بغيرة مقدسة للغاية، ثم فترت غيرته شيئاً فشيئاً. فى بدء حياته فى التوبة، بدأ بانسحاق قلب عجيب، وباتضاع شديد. بل كان يدخل الكنيسة فى شعور عميق بعدم الاستحقاق. يقول فى نفسه «من أنا حتى أقف مع هؤلاء القديسين؟».. خطاياه القديمة كانت تملأ عينيه بالدموع وتملأ قلبه بمشاعر المذلة والانسحاق. وبمرور الوقت صار من التائبين، ثم من الخدام، ثم من القادة الذين يديرون الكنيسة. ويبحث عن نفسه فلا يجدها. ويسمع الرب يقول له «تركت محبتك الأولى»...

* * *

يا ليتك كنت قد احتفظت بمحبتك بمجرد نقطة البدء.

هنا نرى عجباً... المفروض أن الإنسان الذى يبدأ بداية طيبة، يظل ينمو ويزداد، حتى يصل إلى الكمال الممكن... أما أن إنساناً يبدأ حسناً ثم يقل ويقل، وينحدر إلى اسفل. حتى يقول له الرب أنك تركت محبتك الأولى... فإن هذا الأمر يدعو إلى الأسى حقاً...

* * *

قد تعاتب شخصاً على ترك محبته الأولى ، فيقول لك : كيف هذا ؟! هل أنا أخطأت فى حقك فى أى شىء ؟! وأنت تجيب : المسألة ليست مسألة خطأ ، وإنما مشاعر...

إنها أمور تحس .... وليس مسألة نقاش واقتناعات .

إنه يسلم عليه ، ولكن ليس بالحرارة السابقة ... يقابله بعبارة طيبة ، ولكن ليس بالفرح القديم . لا يفرح بالوجود معه ... لا يسعى إلى لقياه... ليس له نفس الاشتياق القديم ، ولا اللهفة القديمة . حقاً إنه لا يخطىء إليه ولكن فى نفس الوقت ، ليست له مشاعر الحب . لا يظهر الحب فى لهجته ، ولا فى صوته ، ولا فى عينيه ، ولا فى ملامحه ، ولا فى ألفاظه ، ولا فى حرارته ... هل تظنون أن الحب يقرأ ويكتب ويقال ؟ إنه يحس ...

* * *

هذا بالنسبة إلى الناس ، وبالنسبة إلى علاقتك بالله أيضاً ...

أنت تصلى ، ولكن بدون اشتياق إلى الله . لست فى صلاتك مثل داود الذى يقول «باسمك ارفع نفسى إليك يا الله ، كما تشتاق الأرض العطشانة إلى الماء» «محبوب هو اسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتى» . تصلى ولكن لا حرارة فى الكلام ، ولا اشتياق ، ولا رغبة فى البقاء مع الله .

لك صلاة ، ولكن بدون صلة !! كلام ... ! مجرد كلام !

وكما قال الرب «هذا الشعب يكرمنى بشفتيه ، أما قلبه فمبتعد عنى بعيداً» وتقف تصلى ، وأثناء صلاتك يقول لك الله «عندى عليك أنك تركت محبتك الأولى» . تقول له : هل أنا يارب قصرت فى صلاتى ؟ أو قللت مزاميرى أو تأملاتى أو قراءاتى ؟ جدولى الروحى منتظم ... يقول لك إنك تصلى ، ولكن ليس بمحبتك الأولى ...

* * *

نقطة أخرى فى المحبة ، وهى الثقة ...

صديق يقول لك : فى محبتك الأولى كنت تثق بى كل الثقة . حالياً تشك فى

المحبة فى التصرفات، تشك فى علاقتى بك... قديماً كنت لا تشك... كنت قديماً لا تحتمل كلمة رديئة تقال على، الآن أنت تحتمل! كنت قديماً لو تسمع كلاماً ضدى، بكل قوة تدافع... أما الآن فإنك تسمع ولا تدافع، أو تطلب باقى الكلام، وتصدق، وتشك. وجائز أن تنضم للمقاومين.

مع الله أيضاً، يبدأ الإنسان حياته بثقة كاملة.

يثق به، وبمواعيده، وبمحبته، ورعايته ومعاملاته، وصلاح مشيئته. حتى إن أصابته التجارب، يقول «المر الذى يختاره الرب لى، خير من الشهد الذى اختاره لنفسى»... حالياً، إذا لم تعد المحبة كما كانت من قبل، يبدأ العتاب: لماذا يارب تعاملنى هذه المعاملة؟ لماذا أصلى ولا تستجيب؟ لماذا نذرت نذراً ولم يتحقق ما طلبته؟ لماذا رفعت قداساً ولم أحصل على نتيجة؟ لماذا لم أحصل على الوظيفة، أو على الترقية؟ لماذا سمحت أننى أرسب؟...

لم يبق سوى أن تعاتب الله، وتقول له: عندى عليك، أنك تركت محبتك الأولى... !!

ويجيب الله: أنت الذى فقدت الثقة، أو فقدت الإيمان...

* * *

نقطة أخرى: فى محبتك الأولى، لم تكن تفضل شيئاً ولا أحداً على الله. كانت الأولوية له...

هو الأول وقبل كل شىء، بل هو كل شىء... أما الآن فتقول له: إن أنا وجدت وقتاً يارب، فإنى أصلى وأقرأ وأتأمل... وإن وجدت عندى قوة وصحة، حينئذ سأصوم واخدم... وإن بقى عندى فائض بعد سداد كل احتياجاتى ومطالبى، ففى تلك الحالة سأدفع العشور أو البكور. وإلا فعذرى فى كل ذلك معى، ويصبح الله فى آخر القائمة!! ما الذى حدث؟ أين أفضلية الله وأولويته فى ترتيب اهتماماتك؟!

* * *

لقد تركت محبتك الأولى. تغيرت عن وضعك القديم. ينظر إليك الله يقول: ليس هذا هو الإنسان الذى كنت اعرفه منذ سنوات.

إنك إنسان آخر لست نفس الشخص الذى كان يحبنى و يفرح بى. لقد تغيرت وتركت محبتك الأولى. مع أنك تعبت من أجل اسمى ولم تكل. لكنك تتعب، من غير حب. مثل إنسان له نشاط هائل فى خدمة الكنيسة واجتماعاتها، وفى كل لجانها. ولكن أين وجود الله فى قلبه؟ لا وجود ولا حس.

كزوجة لا تشعر بمحبة زوجها نحوها، ومع ذلك هو دائم العمل، ودائم الغياب... وإن عاتبته، يقول لها أنا أكد وأتعب من أجلك، لأصرف على البيت. وهى تسأل عن العاطفة فلا تجدها... صحيح تعبت من أجل اسمى ولم تكل... لك خدمة، ولكن بغير حب...

* * *

يشبه هذا الوضع، الابن الكبير، فى قصة الإبن الضال.

لقد قال لأبيه «ها أنا أخدمك سنين هذا عددها، وقط لم أتجاوز وصيتك» (لو١٥: ٢٩). ومع ذلك لم تكن مشاعره مع أبيه. وكانت مشيئته ضد مشيئة الآب.. ورفض دخول البيت، ورفض الاشتراك فى فرح أبيه بأخيه، ووصف أباه بالظلم، والبخل «قط لم تعطنى جدياً لأفرح مع أصدقائى... ولما جاء ابنك هذا...» وهكذا كان يشك فى محبة الآب....

* * *

أحياناً اشخاص تكون لهم العلاقة الظاهرية، وليست لهم العلاقة القلبية ومشاعرها...

كصديق قديم يقابل صاحبه، ليس حباً فى اللقاء، إنما خوفاً من أن تنقطع العلاقة تماماً.. إذ لم يبق من هذه العلاقة سوى خيط رفيع، لا يريد له أن يقطع.... فالمقابلة مجرد رسميات... كشخص يذهب إلى العمل لمجرد أن يوقع بالحضور، ولكن لا رغبة له فى العمل. أو آخر يحضر حفلة لزميله، لئلا يتأثر أو لئلا يعاتبه على عدم الحضور، ولكن بدون شعور...

* * *

إنسان يتحرك - حتى فى روحياته - بطريقة روتينية.

يصلى، يصوم، يقرأ، يتأمل، يحضر إلى الكنيسة، يعترف، يتناول... ولكن أين

محبت لله ؟ لا وجود لها فى كل ممارساته هذه... سلسلة واجبات روحية ! يخشى أن يمتنع عنها لئلا يوبخه ضميره، ولكنه لا يعملها بحب... تركت محبتك الأولى، ليس هذا ما يريده الله الذى يقول «يا ابنى اعطنى قلبك» (أم ٢٣: ٢٦). أين الاشتياق القديم إلى الله... وكأن الله يقول لك : لست أنت الذى كنت أعرفه من قبل...

كنت أعرفك ناراً تتقد. أما الآن فمجرد ماكينة تدور... آلة تدور وتنتج. ويمكن أن تتحرك بالريموت كنترول، دون أن تلجأ إلى روح الله ليحركها...

عذراء النشيد كانت لها محبة كبيرة تمثل علاقة الكنيسة أو النفس البشرية بالله. ثم جاء وقت، وقف فيه الله على بابها يقرع ويقول «افتحى لى يا أختى يا حبيبتى يا حمامتى يا كاملتى. فإن رأسى قد امتلأت من الطل، وقصصى من ندى الليل» (نش ٥: ٣، ٣) وللأسف هى تجيب «خلعت ثوبى، فكيف ألبسه ؟ غسلت رجلى، فكيف أوسخهما» !!

* * *

أين المحبة الأولى ؟ حالياً توجد مكانها أعذار... !

حالياً نعتذر عن صلتنا بالله، ونقدم عوائق وتبريرات. عندما تكون محبتنا لله متقدة، لا نبالى مطلقاً بالعوائق بل ننتصر عليها. ولكن حينما تقل المحبة، تبدأ الأعذار فى الظهور...

* * *

ونحن شبان فى الخدمة، ذهبنا لنفتقد شاباً تخلف فترة طويلة عن اجتماع الشبان، فوجدناه قد وقع فى عادة التدخين، وأخذ أحدنا يشرح له أضرار التدخين، وآخر يكلمه عن القدوة الصالحة، وثالث يقنعه بآيات وبراهين. ولكن واحداً منا كان يتكلم دائماً باسلوب روحى، قال له «أريد أن أسألك سؤالاً واحداً : هل أنت تحب الله كما كنت تحبه من قبل ؟!».

حقاً، عندما تقل المحبة : يبدأ الإنسان أن يحتاج إلى الآيات والاقناعات والبراهين...

* * *

أيام زمان ، كنت تلقى نفسك على الله إلقاءاً ، أما الآن فإنك تناقش ... تناقش كل نصيحة وكل توجيه وكل أمر. تريد أن تقتنع... وربما ترفض الإرشاد كأنه غير مقبول ... والحقيقة أنه ليس الإرشاد غير مقبول ، وإنما المحبة غير موجودة ... حتى الايات تريد لها تفسيراً يناسب رغباتك.... أما فى أيام المحبة الأولى، فلم تكن فقط تطيع كل الأوامر، إنما حتى الإشارة ... حتى مجرد أن تشعر أن هذا التصرف غير مقبول، لا تعمله ...

ومع الله ، أى شيء تشعر أن الله لا يرضى عنه، ترفضه بغير حاجة إلى إقناع ...

أنت غير محتاج أن تعرف الحكمة من الوصية ، يكفى أنها وصية . قلبك هو الذى يقودك إلى الله . وليست حكمتك البشرية وعقلك البشرى ...

نقطة أخرى فى العلاقة مع الله ، وهى المشغوليات :

* * *

حينما تقل محبتك لله ، تصبح مشغولياتك عذراً تبرر به بعدك عنه .

أصبحت تنشغل بغيره ، أعمالاً أو أشخاصاً.. وتفضل هذه المشغوليات عليه . والعيب ليس فى المشغوليات، إنما فى قلة محبتك... إذ لم تكن هكذا قبلاً... ولكن محبتك لله ظلت تقل حتى لم يتبق من علاقتك بالله سوى الإيمان... وما يتعلق بهذا الإيمان مجرد رسميات أو شكليات ... كإنسان يقابل صاحبه فيقبله .

إنها قبلة ، ولكن بغير حب . مجرد مظهر ...

* * *

كثيراً ما يحدث فى المقابلات وفى الزيارات ، وحتى فى الكنيسة، نقبل بعضنا بعضاً . ولكن لا تمتزج القبلة بمحبة . إنها قبلة رسمية ، وليست قبلة عاطفية ...

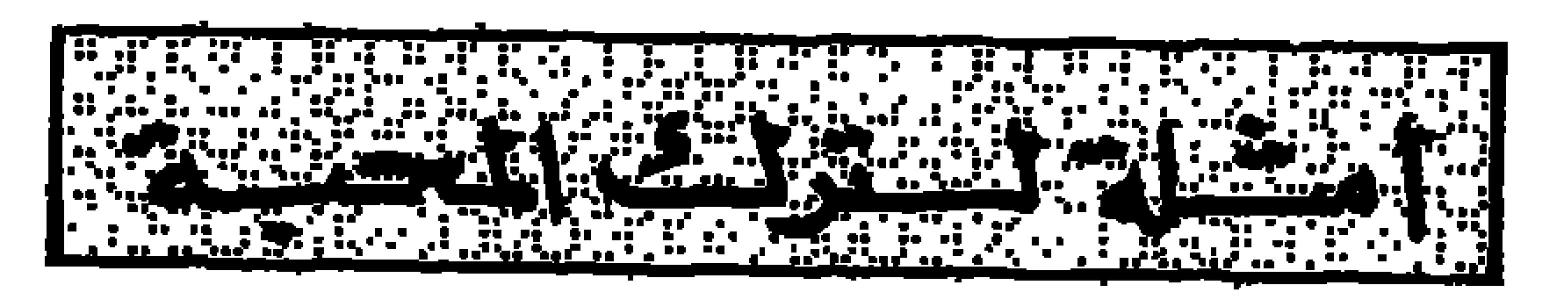
مثال ذلك - من ناحية أخرى - إنسان يعترف أمام أب الاعتراف ، ولكن بغير انسحاق ، بغير ندم، بغير توبة ... أو إنسان يدخل إلى الدير أو إلى الكنيسة، ولكن بغير خشوع... أو إنسان تحت عبارة الأبوة والبنوة التى تربطه بالله، ينسى نفسه... وقد يدخل إلى الكنيسة وكل اهتمامه ليس فى صلته بالله، وإنما فى مراعاة النظام بين

المصلين ...

وتسأله عن انشغاله فيقول لك « الغيرة المقدسة » ... الغيرة يا أخى تكون - قبل النظام - على مدى صلتك بالله .

* * *

فى بدء الحياة مع الله ، كان الإنسان منشغلاً بالله ، أما الآن فهو منشغل بخطايا الآخرين ... ليست المشكلة هى موضوع الإدانة ، بل أنه ترك محبته لله ، وأصبح - حتى داخل الكنيسة - ينشغل بالناس .



مثل من الأمثلة العجيبة فى ترك المحبة الأولى ، هو سليمان الحكيم .

ربما تنطبق عليه عبارة القديس بولس الرسول « والآن أذكرهم وأنا باكٍ » (فى ٣ : ١٨) . سليمان هذا بدأ بداية عجيبة . محبة لله ، وظهر له الله مرتين ، وكلّمه فماً لأذن ، ومنحه موهبة الحكمة ، ومنحه جلالاً ملوكياً . وسمح له أن يبنى هيكله ، الأمر الذى لم يسمح به لداود أبيه ... ومع كل ذلك ترك سليمان محبته الأولى « ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه » (١مل ١١ : ٤) ... أزاغته النساء . ومحبته للنساء أضاعت محبته لله !! كما أزاغه الترف الكثير ، ومهما اشتهته عيناه لم يمنعه عنهما (جا ٢ : ١٠) . وانشغل بالمتعة أكثر من الإنشغال بالله ...

* * *

ومن الذين تركوا محبتهم الأولى أصحاب أيوب ، وأصحاب داود .

أصحاب أيوب الثلاثة ، حينما رأوه فى تجربته « رفعوا أصواتهم ، وبكوا . ومزقوا كل واحد جبته ، وذروا تراباً فوق رؤوسهم » (أى ٢ : ١٢) . ولكنهم بعد قليل بدأوا يناقشونه ، ثم يتهمونه ويجرحون شعوره ، حتى قال لهم « معزون متعبون كلكم ... » (أى ١٦ : ٢) .

وأصحاب داود ، كثير منهم فارقوه ، وانضموا إلى ثورة أبشالوم ضده ، لما رأوا تفوق أبشالوم ... تركوا محبتهم الأولى ، والبعض منهم انتقدوه ، والبعض شتموه . ونسوا أنه

مسيح الرب، ونسوا افتخارهم القديم به...

إنها لم تكن خطية لسان ، إنما خطية قلب .

قلب ترك محبته ، فظهر ذلك على لسانه . لأنه «من فيض القلب يتكلم اللسان» . كإنسان جوفه مريض ، فيظهر طفح على جلده... إنسان يعاتب صاحبه بطريقة جارحة ، إنما يدل على أنه ترك محبته الأولى ، التى كان أثناءها يحرص على كل لفظ ، بل يحرص على ملامحه...

الله يعاتب أولاده

الله يعاتب أحباءه . أما أعداؤه فيعاقبهم .

إنه يذكرّهم بماضيهم الحلو معه «تركت محبتك الأولى» . إنه يعاتب الذى يمكن أن يرجع إلى المحبة الأولى التى اختبرها قبلاً . والآن قلت أو ضاعت . غالباً قلّت...

الله يهتم بهذه المحبة و يركز عليها . لأنه يريد القلب قبل كل شىء . وليس مجرد الممارسات . فقد لام أولئك الذين يقتربون إليه بالصلاة . وقلوبهم بعيدة عنه . فقال «يقترب إلىّ هذا الشعب بفمه و يكرمنى بشفتيه . أما قلبه فمبتعد عنى بعيداً» (مت ١٥ : ٨) .

إنه يعاتب أولاده الذين تركوه أو لم يعرفوه .

فيقول فى سفر إشعياء النبى «اسمعى أيتها السموات، واصغى أيتها الأرض ، لأن الرب يتكلم : ربيت بنين ونشأتهم . أما هم فعصوا علىّ» (أش ١ : ٢) .

إنه يعاتب كرمه الذى اعتنى به ، وقال عنه «ماذا يصنع أيضاً لكرمى ، وأنا لم أصنعه ؟! لماذا إذ انتظرت أن ينتج عنباً ، انتج عنباً ردياً» (أش ٥ : ٤)...

فى الخدمة

إنه يعاتب شخصاً كان ملتهباً فى محبته وخدمته . وقد صبر واحتمل ، وتعب من أجل اسمه ولم يكل (رؤ ٢ : ٣) . ولكنه الآن قد ترك محبته الأولى . وهو محتاج أن يعرف من أين سقط و يتوب (رؤ ٢ : ٥) .

عجيب أن هذا الخادم المحب يسقط ويترك محبته الأولى !!

هذا الملاك والكوكب الذى فى يمين الرب (رؤ٢: ١) ... إنه درس لنا فى أن نتمسك بمحبة الله ولا نفتر، حتى لا نسقط... ونستمع مثله إلى قول الرب « اذكر من أين سقطت وتب» (رؤ٢: ٥)... نحن نعلم جيداً أن «المحبة لا تسقط أبداً» (١كو١٣: ٨). فكيف إذن سقط هذا الملاك؟!

* * *

كيف سقط ، والمحبة لا تسقط أبداً .

إنه سقط ، ولكن محبته لم تسقط أبداً !! مازال ملاكاً . إنه يذكر ببطرس الرسول الذى سقط فى السب واللعن والإنكار وقت محاكمة السيد المسيح (مت٢٦: ٧٠-٧٤). وعلى الرغم من كل ذلك، لما سأله السيد المسيح بعد القيامة «أتحبنى..؟» أجاب « أنت تعلم يارب كل شيء. أنت تعلم أنى أحبك» (يو٢١: ١٥- ١٧).

السقوط كان خارجياً فقط ...

سقوط فى الإرادة ، وليس فى القلب .

* * *

لعلنا من هنا ندرك معنى عبارة «تركت محبتك الأولى» التى قالها الرب لملاك كنيسة أفسس... إنه سقط من درجة عالية فى المحبة، ولم يسقط من المحبة كلية... سقط من المحبة الأولى ، التى لو قورنت بها المحبة الحالية ، تعتبر المحبة الحالية سقوطاً يحتاج إلى توبة !!

إنه ليس مبتدئاً يتعلم الحب ، بل قد عاشه من قبل وذاقه... ولكنه قد هبط درجات عن ذى قبل. وكيف؟.. ذلك لأن المحبة ليست مجرد عاطفة، إنما تعبر عن ذاتها بالعمل... كما قال القديس يوحنا الرسول «لا نحب بالكلام ولا باللسان، بل بالعمل والحق» (١يو٣: ١٨). والرب يذكر ملاك كنيسة أفسس بهذه الحقيقة. فيقول له «اذكر من أين سقطت وتب. واعمل الأعمال الأولى» (رؤ٢: ٥)... أعمالك الآن لا تتفق مع المحبة المتأججة التى كانت لك فى القديم، والتى بها «تعبت من أجل اسمى، ولم تكلّ»...

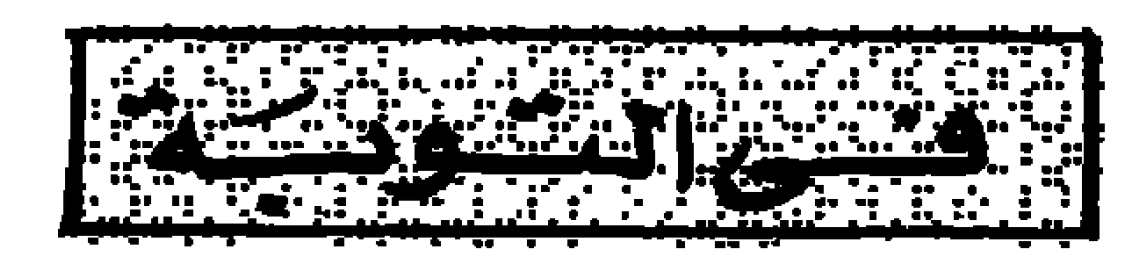
كانت المحبة ظاهرة فى خدمته القوية للرب .

والآن لم تعد الخدمة فى نفس الحرارة ونفس القوة... إنه لا يزال يخدم ، ولكن ليس بنفس الحب . مثل كاهن جديد كان فى أول سنة لرسامته شعلة من نشاط ملتهب يقول مع القديس بولس «من يعثر وأنا لا ألتهب؟!» (٢كو١١: ٢٩) «استعبدت نفسى للجميع ، لأربح الكثيرين» «صرت للكل كل شىء ، لأخلص على كل حال قوماً» (١كو٩: ١٩، ٢٢) .

أما الآن فإنه يخدم ... ولكن ليس بنفس الروح ، ولا بنفس الغيرة العجيبة على خلاص النفس... إنه يخدم كما لو كانت خدمته قد بدأت تشيخ... إنها تسير فى الطريق ، ولكن مستندة على عكازين .

لقد فترت محبته لله وللملكوت وللناس !

وأصبح فى خطر من أن يأتيه الرب عن قريب ، ويزحزح منارته من مكانها ، إن لم يعمل الأعمال الأولى (رؤ٢: ٥) .



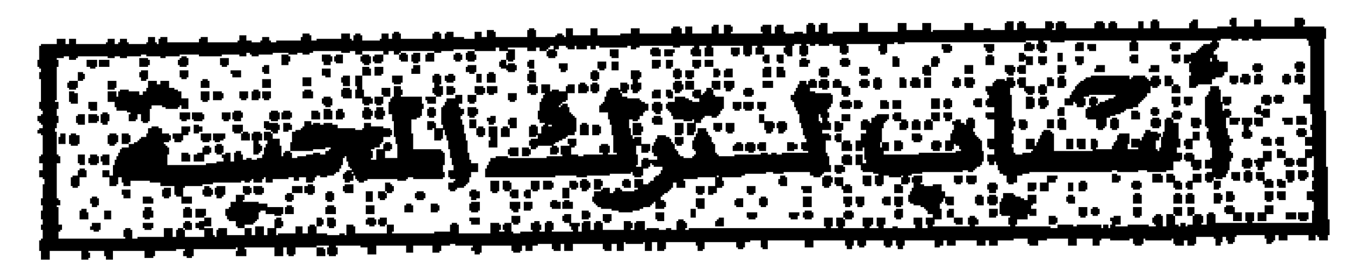
كما يُقال الكلام عن الخدمة ، يُقال عن التوبة أيضاً .

فى أول عهد الإنسان بالتوبة ، يكون نادماً جداً ، منسحقاً جداً . لا يكاد يتصور كيف أحزن روح الله الذى ناله فى سر الميرون المقدس!! وكيف نجس هيكله ، وكأنه يطرد روح الله من قلبه ، ويفض شركته مع الله . وهذا الحزن المقدس كم عصر عينيه بالدموع ، وكم ملأ صوته بالآهات ، حتى صارت دموعه شراباً له نهاراً وليلاً... وكانت عبارة «غير مستحق» يقولها عن نفسه بكل اقتناع وبكل عمق...

أما الآن فقد جفت الدموع من عينيه ، وقد بعدت حياته عن مرحلة التوبة ! أو يظن أن التوبة مرحلة يمكن أن يبعد عنها ، ويدخل فى إيجابيات كثيرة رشحته لها حياة الإنسحاق الملازمة للتوبة... إنه الآن يخدم ، وكثيرون يتتلمذون على يديه وعبارة «غير مستحق» إن قالها عن نفسه . يقولها من باب الإتضاع لا أكثر ، بغير عمق ولا اقتناع ... !

المرأة الخاطئة التى بللت قدمى المسيح بدموعها، أحبت كثيراً لأنه قد غفر لها الكثير (لو٧).

أما سمعان الفريسى الذى لم يكن يشعر أنه خاطىء مثلها، أو أن خطاياه ليست شيئاً على الإطلاق إذا قورنت بخطاياها... فهذا ما كان يحب الله مثلها، وما كان منسحق القلب مثلها، ولا كان يبكى مثلها... بل إنه يدينها على خطاياها، و يدين السيد المسيح الذى سمح أن تبل قدميه بدموعها... لذلك ذكّره المسيح بأنه هو أيضاً خاطىء مثلها. عليه خمسون، وعليها خمسمائة. وكلاهما «ليس لهما ما يوفيان»...



إذن من أسباب نقص المحبة، نقص شعور الإنسان بخطيته ...

«فالذى يُغفر له قليل، يحب قليلاً» (لو٧: ٤٧). أو لعل المقصود هو أن الذى يظن أنه قد غُفر له القليل، يحب قليلاً... وأسوأ من هذا الذى يظن أنه ليست له خطية!! لذلك قال الرسول «إن قلنا إنه ليست لنا خطية، نضل أنفسنا وليس الحق فينا» (١يو١: ٨).

* * *

وأسوأ من هذين الذى يظن أنه له أعمال بر ؟!

مثل الفريسى الذى بكل جرأة وقف أمام الله يفتخر بفضائله فقال «أشكرك يارب أنى لست مثل سائر الناس الظالمين الخاطفين الزناة... أنا أصوم يومين فى الأسبوع، وأعشّر جميع أموالى...» (لو١٨: ١١)... حقاً من أين تدخل فى قلبه محبة الله، وهو لا يذكر خطية واحدة قد غفرها له الله ؟!

* * *

الإنسان القريب العهد بالتوبة، يشعر بمحبة الله التى غفرت له، فيحبه من أجل مغفرته. بل يشعر أيضاً بمحبة الله التى قادته إلى التوبة، فيحبه من أجل قيادته إلى التوبة. وحينما يذكر فى صلاة الشكر عبارة «لأنه قبلنا إليه» تزداد محبته لله جداً. لأنه على الرغم من كل نجاساته وعصيانه وسقطاته، قد قبله الله إليه. وخطاياه ما عاد يذكرها له، وما عادت تُحسب عليه (رو ٤ : ٧، ٨).

فتزداد محبته لله ، عرفاناً بجميله عليه .

* * *

ويذكر كل ذلك فى مزاميره (مز١٠٣)... أما الإنسان الذى يفكر فى كم خدم، وكم تعب لأجل الرب ، فربما يظن أنه هو صاحب الجميل على الله ، لأنه يهيىء له ملكوته ، ولذلك يستحق منه ويستحق ... إنه يفعل مثل ذلك الابن الكبير الذى اعتبره أباه مقصراً فى حقه بما يناسب خدماته . وهكذا قال له فى كبرياء وفى عدم محبة «ها أنا أخدمك سنين هذا عددها ، وقط لم أتجاوز وصيتك . وقط لم تعطنى جدياً لأفرح مع أصدقائى ... !» (لو١٥ : ٢٩).

إذن محبة الإنسان لله تقل ، إن قلّ انسحاق قلبه .

* * *

وما أسهل أن كثرة الإنشغال تبعد الإنسان عن محبة الله .

ذلك إن انشغل بأمور عديدة ، لا تعطيه وقتاً يلتصق فيه بالله . وإن سئل عن صلاته ، يقول «ليس لدىّ وقت» !! إذن متى يتحدث مع الله فى حب؟ ومتى يشتاق إلى الله كما تشتاق الأرض العطشانة إلى الماء! ومتى يفتح قلبه لله ليملأه بالحب . حقاً مثل هذا الإنسان ينطبق عليه قول السيد الرب لمرثا «أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة ولكن الحاجة إلى واحد» (لو١٠ : ٤١، ٤٢).

أما أختها مريم التى امتلأ قلبها بالحب ، ووجدت لذتها فى آن تجلس عند قدمى الرب، تستمع إلى كلامه ، وتتمتع بمحبته، فقد قال لأختها عنها «اختارت النصيب الصالح الذى لن ينزع منها» (لو١٠: ٤٢)...

* * *

حقاً إنك قد تترك محبتك الأولى ، إن انشغلت عن الرب بشيء آخر.

حتى لو كان هذا الشيء هو الخدمة.. وما أصدق تلك الكلمة الروحية التى قالها أحد الأدباء : « قضيت عمرك فى خدمة بيت الرب. فمتى إذن تخدم رب البيت ؟!» .

اخدم إذن . ولكن لا تجعل الخدمة تعطلك عن الحديث مع الله ، وعن التأمل فى

صفاته الجميلة ، وعن الجلوس مثل مريم عند قدميه ، تسمع كلامه وترى عجائب من شريعته ...

★ ★ ★

وإن خدمت اخدم عن حب : حب لله ، وحب لملكوته ، وحب للناس ... وتذكر أن ديماس كان خادماً قوياً ، ومن المساعدين الكبار للقديس بولس الرسول . وفى إحدى المرات ذكره قبل لوقا الإنجيلى (فل ٢٤) ولكن ديماس لما ترك محبته الأولى ، وبدأ يحب العالم ، وحلّت محبة العالم محل محبة الله فى قلبه ، ضاع ديماس تماماً . وقال عنه القديس بولس الرسول فى أسى « ديماس تركنى لأنه أحب العالم الحاضر» (٢تى ٤ : ١٠) .

★ ★ ★

احذر من محبة العالم ، لئلا تضيع محبة الله من قلبك .

فهوذا القديس يعقوب يقول إن محبة العالم عداوة لله (يع ٤ : ٤) . ويقول القديس يوحنا الحبيب فى رسالته الأولى «لا تحبوا العالم ، ولا الأشياء التى فى العالم . إن أحب أحد العالم ، فليست فيه محبة الآب» (١يو٢: ١٥) .

إذن كلما يدخل الإنسان فى محبة العالم ، فى شهوة الجسد وشهوة العين وتعظم المعيشة» (١يو٢: ١٦)... فبالضرورة سيسمع عتاب الله يقول له «عندى عليك أنك تركت محبتك الأولى» .

★ ★ ★

ومن الجائز أن يترك محبته الأولى ، بسبب تحول القلب إلى آخر...

كأب بسبب محبته لزوجته الثانية ، يترك محبته الطبيعية لأولاده من الزوجة المتوفاه . قلبه قد تحول ، ومحبته لأولاده تحولت معه . وإذ تسوء معاملته لابن من أبنائه ، يقول له هذا الابن - ولو فى فكره - «عندى عليك أنك تركت محبتك الأولى» ...

★ ★ ★

وأحياناً يترك الإنسان محبته الأولى بسبب الوشاية أو كلام الناس !

كأن يسمع كلمة أو رواية ، فيصدقها دون أن يتحقق . ويشك فيمن يحب ، ويتعبه شكه ، فيترك محبته الأولى ، وبخاصة لو كثر سكب الكلام فى أذنيه .... إن

صدّق الوشاية ، يترك محبته الأولى . وكلما ترك محبته الأولى ، يكثر تصديقه للوشايات .

أما القلب المحب ، الثابت فى محبته ، الذى محبته لا تسقط أبداً ... فإنه إن سمع كلمة رديئة عمن يحبه ، لا يحتمل ذلك ، بل يدافع عنه ، ولا يقبل فيه كلمة سوء . أما قبوله لكلام الناس فهو دليل على أن قلبه قد تغير ، وثقته قد تغيرت ، ومحبته لم تعد كما كانت من قبل . .

* * *

من الجائز أن يترك محبته الأولى بسبب تأويله الخاطىء لبعض التصرفات .

وهذا الأمر يحتاج إلى تحقق ، لأنه ربما لو عرفنا السبب فى تصرف ما ، لأمكننا أن نجد له عذراً ... وقد يكون الهدف طيباً ، والتصرف غير مفهوم على ما قصد منه ...

ومن الجائز أن الإنسان يترك محبته الأولى ، لأن الذى يحبه لم يحقق له أغراضه التى يريدها ، أو أن فكره وأسلوبه يختلف عن فكره .

ومع الله أيضاً كم مرة نترك محبتنا الأولى له ، حينما لا نفهم حكمته من بعض التجارب والضيقات التى يسمح بها لنا ، وقد تكون لخيرنا ونفعنا ، ونحن لا ندرى ...

* * *

ومن الجائز أن يترك الإنسان محبته الأولى بسبب حروب الشياطين ...

ذلك إن ضعف القلب أمامها ، واستسلم لشىء من ضغوطها أو إغراءاتها . ومع ذلك فإن القلب المملوء بالحب ، يمكنه أن ينتصر على حروب الشياطين . حتى إن أظهر له الشيطان إحدى الرؤى أو الأحلام ، فإنه يرفضها ولا يصدقها . فليس كل حلم أو رؤيا من الله .

وبالمثل يرفض كل الأفكار والظنون والشكوك ...

* * *

المحبة
ليست من جانب واحد

الحياة الروحية هى حب متبادل بين الله والناس.

إن الله يحبك. هذه حقيقة لا جدال فيها. والله يحب العالم كله «هكذا أحب الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد..» (يو٣: ١٦).

ولكن على الرغم من هذا الحب والبذل، لم يخلص العالم كله.

لم يخلص يهوذا، ولا حنان ولا قيافا، ولا هيرودس... ولا كل أولئك الذين رفضوا الرب وماتوا فى رفضهم... أولئك الذين قال عنهم الكتاب «إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله» (يو١: ١١) «النور أضاء فى الظلمة، والظلمة لم تدركه» (يو١: ٥) «النور جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور» (يو٣: ١٩).

* * *

لا يكفى إذن أن الله يحبك، إنما يجب أيضاً أن تحب الله.

وإن لم تحب الله، لن تخلص. لأن الوصية الأولى والعظمى هى أن تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك» (مت ٢٢: ٢٧، ٢٨).

محبة الله طبيعة فيه، لأن الله محبة (١يو٤: ١٦).

* * *

ولكن السؤال الهام هو هذا: ما موقفنا من محبة الله؟

هل نرفض محبته؟ كما قال عن شعبه فى القديم «مددت يدىَّ طول النهار لشعب

معاند مقاوم» (رو١٠: ٢١).

أم نبادله حباً بحب، كما قال الرسول «نحن نحبه، لأنه هو أحبنا أولاً» (١يو٤: ١٩).

* * *

والمطلوب منا ليس أن نحبه فقط، بل أن نثبت فى محبته.

بهذا نخلص أن نثبت فى محبته

وهكذا قال الرب «أثبتوا فىّ، وأنا فيكم» (يو١٥: ٤)، «أنا الكرمة وأنتم الأغصان. الذى يثبت فىّ وأنا فيه، هذا يأتى بثمر كثير» «إن كان أحد لا يثبت فىّ، يطرح خارجاً كالغصن، فيجف ويجمعونه و يطرحونه فى النار فيحترق» (يو١٥: ٥، ٦). وما هو هذا الثبات؟ يقول الرب:

«أثبتوا فى محبتى» (يو ١٥ : ٩).

«كما أحبنى الآب، أحببتكم أنا. أثبتوا فى محبتى»... وكيف يارب نثبت فى محبتك؟ يقول «إن حفظتم وصاياى، تثبتون فى محبتى. كما أنى أنا قد حفظت وصايا أبى، وأثبت فى محبته» (يو١٥: ٩، ١٠).

* * *

هى إذن محبة متبادلة، وثبات فى هذه المحبة وعن هذا يقول القديس يوحنا الرسول:

«من يثبت فى المحبة، يثبت فى الله، والله فيه» (١يو٤: ١٦).

وأنت إن أحببت الله، فبالضرورة تحب قريبك، تحب أخاك فى البشرية. لأن الرسول يشرح هذا الأمر فيقول «إن قال أحد إنى أحب الله وأبغض أخاه، فهو كاذب. لأن من لا يحب أخاه الذى أبصره، كيف يقدر أن يحب الله الذى لم يبصره؟!» (١يو٤: ٢٠).

ثم يتابع الرسول كلامه فيقول «ولنا هذه الوصية: أن من يحب الله، يحب أخاه أيضاً» (١يو٤: ٢١).

* * *

إنها مخادعة أن يقول لك أحد، إنك تضمن الخلاص لأن الله يحبك... ! ولا يكمل تجاوبك مع هذه المحبة.

وكشف المخادعة هو: ماذا إذا كنت أنت لا تحب الله. هل تخلص وأنت لا تحبه ؟!

هل تخلص وأنت تكسر الوصية الأولى والعظمى، التي تقول ومن كل فكرك. والثانية مثلها: تحب قريبك كنفسك... وبهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء ؟! (مت ٢٢: ٣٧- ٤٠).

* * *

إن المحبة ليست من جانب واحد. إنها محبة متبادلة، الجانب الإلهى فيها كامل تماماً. ولكن ماذا عن الجانب البشرى ؟!

لو كان العامل البشرى لا أهمية له، إذن لخلص جميع الناس. لأن «الله يريد أن جميع الناس يخلصون، وإلى معرفة الحق يقبلون» (١تى ٢: ٤).

الله يريد الخلاص لجميع الناس. ولكن المشكلة أنهم هم لا يريدون الخلاص لأنفسهم. لذلك يهلكون.

وهكذا قال الرب «كم مرة أردت... ولم تريدوا. هوذا بيتكم يترك لكم خراباً» (مت ٢٣: ٣٧، ٣٨).

* * *

الله يحب الناس، ويريد خلاصهم. ولكنه لا يخلصهم ضد إرادتهم. لا يرغمهم على الخلاص. لابد أن يحبوا الله، ويطلبوا الخلاص، ويسعوا إليه.

وهنا أهمية العامل البشرى. وهنا أهمية قول القديس بولس الرسول «جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعى، حفظت الايمان. وأخيراً قد وضع لى إكليل البر، الذى يهبه لى فى ذلك اليوم الرب الديان العادل». (٢تى ٤: ٧، ٨).

وأيضاً قوله «ليس إنى قد نلت أو صرت كاملاً، ولكنى أسعى لعلى أدرك الذى لأجله أدركنى أيضاً المسيح يسوع» «أسعى نحو الغرض لأجل جعالة الله العليا...» (فى ٣: ١٢، ١٤).

هذا هو الجهاد المطلوب منا، لنثبت محبتنا لله، ولكى نثبت فى محبته. وهو جهاد ذو فرعين:

١ - جهاد ضد الخطية. وعن هذا يقول الرسول القديس «...بل اقمع جسدى واستعبده، حتى بعد ما كرزت لآخرين، لا أصير أنا نفسى مرفوضاً» (١كو٩: ٢٧). ولا يقول تكفينى محبة الله لى، وبها أخلص!! بل هناك واجب بشرى نحو محبة الله لى، أن أقمع جسدى واستعبده، وإلا ...

و يذكر أيضاً محاربتنا ضد قوات الظلمة، وهى مصارعة ليست مع لحم ودم، بل مع أجناد الشر الروحية (١ف ٦).

وعن ذلك قال الرسول للعبرانيين موبخاً:

« لم تقاوموا بعد حتى الدم، مجاهدين ضد الخطية» (عب ١٢: ٤).

ولم يقل لهم: تكفيكم محبة الله لكم. ستخلصون لأن الله يحبكم... بل عليكم واجب: أن تقاوموا الخطية وتجاهدوا...

★ ★ ★

٢ - الأمر الثانى هو عامل إيجابى من جهة البشر، وهو الإيمان، ومحبة الله، وثمر الروح. وله جوانب عديدة جداً.

فالمحبة تقرأ عنها فى (١يو٤) (١كو١٣). وثمر الروح تقرأ عنه فى (غل ٥: ٢٢، ٢٣). والإيمان ينبغى أن يكون عاملاً بالمحبة (غل ٥: ٦).

ما أشد خطأ الذين يركزون على عمل الله من أجلنا ...

و يهملون عملنا من أجله.

إنتظر كتاباً لتكملة الموضوع، عن:

محبة الله ومخافته

الفهرست

صفحة

الباب الثالث : محبتنا لله

الباب الرابع : محبتنا للناس

الباب الخامس : صفات وعناصر المحبة



بسم الآب والابن والروح القدس
الإله الواحد آمين

نشرنا لك من قبل كتاباً عن (الإيمان) وآخر عن (الرجاء) . وبهذا الكتاب عن (المحبة) نكمل مجموعة (الإيمان والرجاء والمحبة) (١كو ١٣: ١٣).

فيه نتحدث عن عناصر هامة :

١ - المحبة بصفة عامة وأهميتها
٢ - محبة الله لنا وللخليقة .
٣ - محبتنا نحن لله .
٤ - محبتنا للناس .
٥ - شروط المحبة كما في (١كو١٣) .
٦ - فتور المحبة أو عندى عليك أنك تركت محبتك الأولى) رؤ ٢: ٤

وكل نقطة من هذه النقاط ، تشمل على عناصر متعددة .

وأرجو أن ألحق هذا الكتاب ، بكتاب آخر عن (المخافة) إن أحبت نعمة الرب وعشنا .

البابا شنوده الثالث

